

كتاب

حاضر المصريين

أو

سر تأخرهم

تأليف

محمد عمر

من مستخدمي مصلحة البوستة المصرية

THE PRESENT STATE of THE EGYPTIANS

OR

THE CAUSE OF THEIR RETROGRESSION

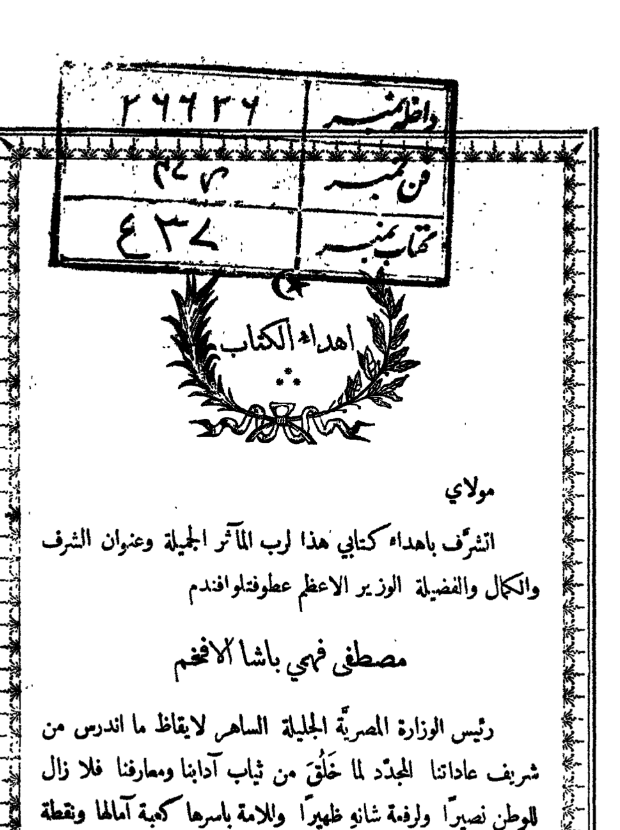
BY

MOHAMMED OMAR

Egyptian Post Office.

طبع في مطبعة المقتطف بمصر

سنة ١٣٢٠ هجرية و١٩٠٢ ميلادية



مولاي

اتشرّف باهداء كتابي هذا لرب المآثر الجميلة وعنوان الشرف والكمال والفضيلة الوزير الاعظم عطوفتلو افندم

مصطفى فهمي باشا الافخم

رئيس الوزارة المصريّة الجليلة الساهر لايقاظ ما اندرس من شريف عاداتنا المجدّد لما خَلُقَ من ثياب آدابنا ومعارفنا فلا زال للوطن نصيراً ولرفعة شانهِ ظهيراً وللامة باسرها كعبة آمالها ونقطة امتداد حياتها المادية والادبيّة . آمين

المحسوب

محمد عمر



الحمد لله والصلاة على رسوله

وبعد فان انفع العلوم علم يهدي الباحث فيهِ الى حال امتهِ الذي هو فردٌ منها من صعود وانحطاط ورشد وغواية وتفرُّق وائتلاف وخلل ونظام فاذا رآها في مصاف ذوي الصفات الصالحات جدَّ معها في شوطها وافتخر بأنهُ كان واحداً من تلك الامة الراقية والقوم الصالحين واذا رآها في الدرك الاسفل من سوء الاعمال وقلة المال وتخاذل الرجال اهرع الى الاصلاح يلتمسهُ لها من بابهِ واجتهد في تبيين النافع من الضار ضارباً الامثال باحوال مجاوريها من الامم وما كانوا فيهِ واسبابهُ وما صاروا اليهِ وابوابهُ مفصلاً علل التأخر موضحاً وسائل التقدم مشجعاً على الانتقال من حال الى حال معيراً بالبقاء على ما ظهر ضررهُ مشخصاً للداء معيناً للدواء مذكراً بالآباء الاولين والاجداد السالفين فما هو الّا ان يجتمع اليهِ كثير يعملون بفكرتهِ ويقومون بنصرتهِ فلا يلبثون حتى يعم هذا الفكر الصالح وينتشر النور وهذا هو الاجتماع والعمران

ولقد مضت السنون الطوال وتتابعت القرون والاجيال والناس عندنا لاهون بالخيال مجدون في الخبال عن هذا العلم النافع غافلون وبغيره مما لا يفيد فائدة

مشتغلون وبقي ذلك كذلك الى ان ظهر تحت سماء مصر كتاب الاستاذ الكبير العالم الاجتماعي الشهير ديمولان الذي ابان فيهِ كل احوال الفرنسيس في هيئاتهم الاجتماعية كلها وبيَّن ما في كل واحدة منها من النقص وقابل ما عندهم بما عند جارتهم الامة الانكليزية من كمال تلك الهيئات ومتانة اصولها مبيّناً اسباب ما لديهم من ذلك الكمال ولذلك وسمهُ باسم (سرّ تقدم الانكليز السكسونيين)

ولما اعترتني الصدفة بهذا الكتاب ترجمتهُ الى اللغة العربية ليعم النفع بهِ فانهُ ان بقي على اعجميتهِ كان بالنسبة الى بلادنا كانهُ لم يكن

ما وُجد هذا الكتاب مترجماً في ايدي الناس وقرأهُ العامة والخاصة منهم حتى ترتبت عليهِ الفائدة التي قصدتها والتفت حضرة الفاضل محمد افندي عمر الى ما عليه امتنا المصريَّة من التأخر والانحطاط فقام ينظر في الاسباب وطرق لذلك جميع الابواب حتى استجمع كثيراً من احوال الاغنياء والمتوسطين والفقراء وجمع الجميع في كتاب سماهُ (حاضر المصريين او سرّ تأخرهم)

تصفحت هذا المؤلف الجديد فاذا هو قد ألمّ بالمطلوب ووفى البحث حقهُ فتكلم عن اخلاق الطبقات الثلاث التي تتالف منها امتنا المصريَّة وعن عاداتها وحالها في كل مجتمعاتها بما ابان العلة وتمحص الداء وارجع جميع الادواء الى اصول الاخلاق وبرهن على ان العمل انما هو الموصل الى السعادة

الحق احق بالاتباع والضرر انما هو في تمويه الحقيقة بما يسمونهُ تستراً والصدق ان كان مرّاً ربما حلت عاقبتهُ وحمدت غايتهُ على انهُ ان كانت النصيحة بالتي هي احسن فلا يضيع فيها الصدق الاخبار عن الواقعيات وقد يكون الواقع اشد ما يكون سماعهُ على النفوس فلابد اذن من أن يتحرى الناصح الحق ويبين العيب ويدعو الى التنصل منهُ والتنحي عنهُ ولا بد من ان البدرة تبت متى وُضعت في

ارض صالحة واستكملت الشروط وكل النفوس صالحة لتلقي النصيحة ولا ينقصها الاّ ان يكون زارعها مستجمعاً لشروط القبول ومتى صلحت النية فكل عمل صدر عن صاحبها فهو وان كان صعباً يكون مقبولاً

كان يسرني كثيراً ان انتقد على هذا الكتاب في موضوعهِ فاقول ان هذا العيب الذي ذكرهُ مؤلفهُ في الصنف الفلاني غير موجود ونسبتهُ اليهِ غير صحيحة غير اني آسفٌ اسفاً شديداً لما رأيتهُ من ان صاحب الكتاب لم يذكر عيباً في طبقة ولم يندّد بعادة ولم يعير بخصلة ولم يتعرّض الى خلة الاّ وجدتهُ بعد التدقيق مصيباً فيما قال صادقاً فيما نسب بل رأيتهُ مستعملاً الرقة في البيان والتلطف في المقال

الحقيقة التي لا ريبة فيها ان مجموع الاغنياء منا منصرفون عن هذا العالم بأمرهِ غير عالمين بانهم في هذه الدنيا فما عليهم منها اذا عمرت او عمها الخراب ولذلك نرى كل واحد منهم وحدهُ يهيم في لذاتهِ غير مبالٍ بضياع المال الذي جاءهُ عفواً بطريق الصدفة لانهُ ابن فلان وارتفعت فيما بينهم صفات التعارف وضاعت من ايديهم ثقة كل واحد باخيهِ فكانوا بذلك هملاً تضيع ثروتهم ولا يعلمون ويؤخذون على غرةٍ وهم غافلون وهم اولى بان لايعدون من الامة فضلاً عن انهم هم العالون

سرت هذه الحال من الاغنياء الى المتوسطين لانهم اقرب اليهم رتبة خالطوهم او سمعوا من اخبارهم والوهم قتال فتشبهوا بهم على غير روية وقلدوهم بحكم تسلط طمع القوي على الضعيف فمالوا ميلهم وطبعت نفوسهم على محبة الظهور الباطل وتنافسوا في الشهوات وتفانوا في اللذائذ وقالوا انّا اطعنا سادتنا وكبراءنا ولم يقولوا فاضلونا السبيل فكانوا بذلك خاسرين ضائعين

الفقراء وهم السواد الاعظم مسيرون لا مخيرون وليس في ايديهم ما يصرفونهُ

هباءً في لذة ورأس مالهم الذي هو قوتهم وعافيتهم وصبرهم على تحمل المشاق مدّخر عندهم في خزانة الكسل وليس لهذا مفتاح الاَّ نصح الناصح مسموع الكلمة وهو لا يكون الاَّ من طبقة اعلى بحكم العادة القديمة وهذا كما تقدم لا يهمهُ صلاح ولا يعنيهِ فلاح في نفسهِ فما الظن بهِ في غيرهِ ان نام الفقراء وضاعت رؤوس اموالهم التي اكتسبوها بالطبيعة وكانت تنفعهم كثيرًا لو صرفوها في تحصيل الرزق الواسع وما هم بفاعلين

لو التفت الاغنياء والمتوسطون الى ان ذنب اولئك الضعفاء الفقراء في رقابهم واقبلوا على العمل النافع لانتقل اولئك المستضعفون من حالهم الى ما هي خير منها ولعاشوا في نوع من السعة والنعيم. اذكر ان بعض الاغنياء وغيرهم من كبار المتوسطين اقلعوا من زمان غير بعيد عن استمرار ليالي المآتم الى الاربعين كما كان الحال من قبل فلم يعمل بالامر الجديد سوى اثنين او ثلاثة حتى علق بهِ اصاغر المتوسطين واخذهُ قاعدة جديدة عميمة وسمعنا في كثير من الاندية والمحافل شديد التنديد بالعادة القديمة والتنويه بالجديدة وانتقل الناس بعد ذلك من تقصير ليالي المآتم الى سير سرير الجنازة واخذت العادة الشنعاء تتلطف ولا شك انهُ اذا بقي الكبراء على ذلك تبعهم الفقراء وحل الجديد النافع محل القديم المضرّ في هذا الامر وان كان ليس بالعظيم

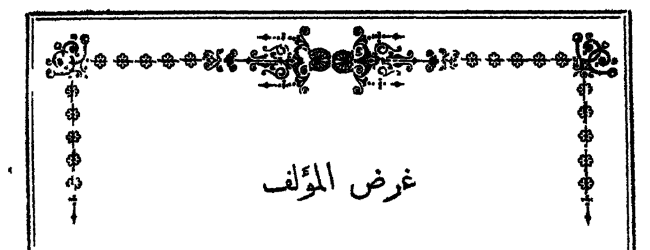
واذكر كذلك ان بعض الامراء أقبل اليوم على تحسين حالة الزراعة فالتفت الاصاغر من مجاوريه الى مذهبه ولا ارتاب في ان الحالة المعاشيَّة يمكن ان تصير الى حسن ثم الى احسن ان لم يصرف اولئك الاصاغر ما يحصلونهُ فيما لا قبل لهم بهِ تقليدًا للامراء وكذلك لا ارتاب في انهُ لو كثر امثال اولئك الامراء لانتشر عملهم الصالح بين تلك الطبقات فانني لا ارى هذا الاقبال من الضعفاء الاَّ في

المجاورين لقرى اولئك الامراء ولا اشك في انهم لو صلح حال جميعهم في صرف ما يشتغلونهُ لصلح حال مجاوريهم كذلك في هذا الباب وبذلك يتبين صدق ما قلناهُ من ان علة خسارة الضعفاء هم اكابر الاغنياء والمتوسطين وكذلك هم سبب التقدم والنجاح

وبما تقدم كلهُ يستبين انني حكمت في امر هذا الكتاب بانهُ كتاب نافع فيما أُلّف فيهِ وانهُ قد استوفى كل ما يقال فلم يبقَ الاَّ ان احث الناس على الانتفاع بهِ وان اعلمهم بان ما فيهِ هو فينا واننا يجب علينا ان نسارع الى الخروج عمَّا وصمنا به بحق وان مؤلفهُ لا يبتغي منا سوى الصلاح وكنا احق بان نطلبهُ لانفسنا ولو بدون منبه فمن نبهنا اليهِ فقد وجب علينا لهُ الامتنان

احمد فتحي زغلول





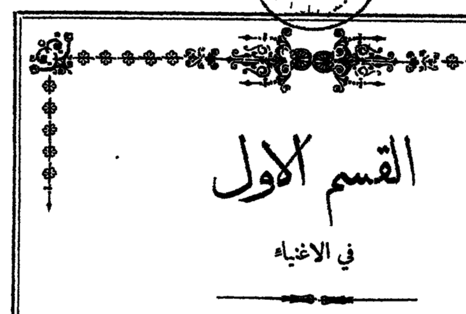
غرض المؤلف

وضعت كتابي هذا على مثال كتاب (سرّ تقدم الانكليز السكسونيين) المعربة بقلم سعادة العالم القانوني الفاضل احمد فتحي زغلول بك رئيس محكمة مصر الابتدائية الاهلية . ولكنهُ مع الاسف يشرح سرّ تأخر المصريين لا تقدمهم . وغاية ما أودُّ ممن يطالع هذا الكتاب ان لا ينظر اليه بعين الاستغراب لما حواهُ من كشف المخبآت ورفع الستار عن المعايب التي في جسم الامة وتؤدي بها الى الهلاك بل ارجوهُ ان يكون على ثقة باني ما كشفت ذاك الستار إلاَّ حباً بأمتي وشفقةً عليها لا شماتة . علَّنا اذا عرف الدَّاء سارعنا الى اخذ الدواء قبل استفحال الخطب فنندم حين لا ينفع الندم

اذا انت لم تخبر طبيبك بالذي يسوءك أبعدتَ الدواء عن السقم

اردت بجمع هذه الادواء التي تضرُّ بصحة امتي ان احث البقية الصالحة من الامة فتهب من غفلتها وتلم شعثها وترأب صدعها وتسد خللها وتبحث عن دواء نافع وبلسم شافٍ تداوي تلك الادواء التي اثقلتنا ونحن عنها غافلون . هذا ما قصدت . وانما الاعمال بالنيات ولكل امرئٍ ما نوى

محمَّد عمر



القسم الاول

في الاغنياء

الاغنياء والعصبية

ما فازت طائفة . ولا ساد قوم ولا عزت أمة ولا علا شأن جماعة الاَّ بالعصبية . هي التي تربط الافراد وتجمع الاشتات وتحيي النفوس فيشتد ازر الواحد باخيهِ ويقوى الكل على تحصيل سعادة الامة . والسعي في دوام ارتقائها حتى يعز جانبهم ويخافهم القريب ويهابهم البعيدو حتَّى ينصروا بالرعب من ابعد مكان وفي قولهِ تعالى "كأَنهم بنيان مرصوص" اشارة الى معنى العصبية وهذا الارتباط . وما البنيان الذي يهولك منظرهُ ضخامة وشموخاً الاَّ لبنة فوق لبنة وآجرة فوق آجرة. ولو أمعنت النظر لوجدت ما تستعظمهُ من الاجسام انما هو جواهر فردة لا تراها العين لتناهيها في الصغر . وانك لو لقيت عشرة رجال ونازلت واحدًا واحدًا منهم وكنت تفوق كُلاًّ منهم في القوة شيئاً قليلاً لافنيتهم عن آخرهم ولكنك لا تستطيع ان تقاوم ثلاثة منهم اذا اجتمعوا عليك حتى ولا اثنين . وعلى هذا جاء القول المشهور " وضعيفان يغلبان قويًا ". وبهذه العصبية عز المسلمون في القرون الاولى وسادوا ودفعوا بها الغوائل عنهم واخافوا من حولهم وصحبتهم هاتهِ القوة في كل ناحية

واصل العصبية انما تكون في اهل الدار الواحدة لاواصر القرابة ولحمة النسب ثم تمتد من اهل الدار الى الجار وجار الجار وهكذا وقد اوصى النبي صلى الله عليهِ وسلم بالجار الى اربعين جاراً وجعل للجار حقوقاً وما الشفعة الاَّ بعضاً منها

ثم تمتد العصبية بالتربية الى كل الجمعية لاتحادهم في تعلم ما يتعلمونهُ فينشأُون على مشرب واحد لتخرجهم على اصل واحد . ثم تمتد العصبية بالدين الى الامة بتمامها ولا تبلغ في الحقيقة عصبية قط ما تبلغهُ العصبية الدينية ولا ترى شيئاً اقوى من رباط تربطهُ القرابة فقد جعل الله المؤمنين وان تناءت اقطارهم وتباعدت ديارهم اخوة بقولهِ " انما المؤمنون اخوة " وهذا هو الاصل الذي تمحي عندهُ كل جنسية او وطنية او عصبية مهما كان شأْنها . وردهم بذلك الى اصل العصبية وهو القرابة والنسب . وبهذه العصبية غلب المسلمون وهم شرذمة قليلة على اكبر الممالك في قرونهم الاولى وغلبهم الاجنبي الآن وهم اربى من حصى البطحاء لزوال العصبية بفقد التربية واهمال امر الدين فاصبحوا في ذلٍ قد علاهم فيهِ من كان دونهم وأَخذ بمقاليد امورهم وهم مغمورون في الجهل لا يمسحون عن عيونهم غبار هذه الغشاوة ليروا ما هم فيه من العار والذل ولو طال عليهم هذا الحال يخشى ان يصلوا معها الى ما لا تحمد عقباهُ . والتربية تطهر الاخلاق وتهذب النفوس فتكون الى الاتحاد اقرب والى الارتباط ادنى وناهيك بالدين فانهُ يأْمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو الى المحبة ويحض على مكارم الاخلاق فيزيل الحسد ويمحو البغضاء ويمحق الخداع فتتألف القلوب وترتبط النفوس وحينئذٍ تظهر في ابهى مظاهرها ومن تدبر آي القرآن الحكيم رآهُ يدعو الى العصبية ورأى من اعظم همّ الشيطان تفريق تلك العصبية وان امضى سلاحهِ في ذلك هو المال فهو ينثرهُ بين الناس فيجفو الابن اباهُ والاخ اخاهُ وتختلف اهواء من في البيت الواحد ويحسد الجار جارهُ

فتشتد العداوة و يشغلهم ما هم فيهِ فيهملون امر التربية فينشأُ كل واحد منهم على هوى غير هوى صاحبهِ فتختلف اميالهم ولا تجمعهم جامعة فيجب على المسلمين ان ينفضوا عنهم غبار الكسل ويتآمروا باوامر الله حتى يصدق عليهم قولهِ تعالى واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءً فألف بين قلوبكم "الآية"

زواج الاغنياء

اذا طرَّ شارب الفتى واخضرَّ عارضهُ والهمهُ الله رشدهُ رأى من نفسهِ ما يدفعهُ نحو أليف يأتلف بهِ ليعاونهُ على عيشتهِ وليشاركهُ في سراء الحياة وضرائها . فاذا اقترن بفتاة على حسب سنة الله في خلقهِ كان اول ما يتوخاهُ الراحة والعيش الرغيد . اما اغنياؤُنا فهم احد رجلين رجل يعرف كيف يجب ان يكون النظام العائلي فيعيش عيشاً رغداً ويتمتع باطايب الحياة وقليل ما هم . ورجل لا يعرف ذلك النظام فيعيش ولا يهنأُ لهُ خاطر فيتوغل في المآثم مثل كثير من اغنيائنا و يستنزف ملذات الحياة في زمن صباهُ ولا يرعوي عن غيهِ حتى اذا سئمت نفسهُ الملذات وادرك بعض ما كان فيهِ من الخطإِ مال الى الزواج بفتاة تكون اكثر منهُ ثروة واعرض جاهاً وارفع منزلة حتى يرقع ما تخرّق من جلباب ثروتهِ فاذا وفق الى وجود تلك الضالة فاز بالاقتران بها على هنة الله وعلى هذه الخطة يسير ابناءُ اغنيائنا لكنهم قبل الاقتران يهتمون باعداد لوازم الفرح ولا يكاد هذا ينتهي الأَ و يطرق ابواب العروسين رؤساء الحرف وبيد كلٍّ منهم قائمة الحساب . هذا يطالب بثمن الخضر وذلك بقيمة المصابيح وآخر بثمن المسكرات وغيرهُ باجرة المغنين والمغنيات

واكثر ما ينفق في هذين السبيلين هو ما يأخذه الاجنبي ثمن الشموع والمشروبات ولا ينتهيان الا وقد اورثتها هاته الافراح الدمار والاتراح والشاهد على ذلك عدة بيوت قد استنزفت ثروتها في هذا الطريق يعلمها القارئ فلا حاجة بنا الى ذكرها

غير اننا نأتي على ذكر شيء مما يجري في بعض افراح الاغنياء . ليعلم القارئ الحالة المتبعة الآن فيقيس عليها المستقبل ويقف على سر تأخرنا من جهة الافراح فيشعر به ويتأمله . ولا نقصد بذلك إيلام القارئ لحقيقة الحالة ورداءتها تؤلم وتكدر وليس علينا من ملام ما دامت افراح اغنيائنا من اسباب تأخرنا ايضاً

يجري في افراح الاغنياء امور كثيرة غير التبذير الكثير والاسراف المضر كلها نقائص وفضائح ما كان اغنى الاغنياء عنها وعن كل ما يقاربها لو علموا الحقيقة والواجب في هذا الشأن ولا نعدد الآن ما بيع من املاك ورهن من اطيان بسبب افراح الاغنياء وتبديد الثروة على هذه الكيفية . بل نذكر النقائص التي كان الاولى بهم البعد عنها

نعددها ونشهرها فانا ولو تأخرنا عن اشهارها فقد اشهرها الافرنج قبلنا ونشروها ونحن لاهون عاكفون على المباراة والتنافس والمباهاة فيها وهم قائمون على البعد عنها ضاحكون منا . ولا ندري أضحكهم هذا هو سرور لنا ام تأسف على ما لحق بنا واستهزاء . والاغلب ان يكون ضحكهم استهزاء لا حناناً ولا شفقة بنا وهذا الامر ظاهر لهم فهم ينظرون فيما عندنا ليأخذوا منه الكمالات ويتركوا لنا النقائص . نرى الوالد والولد الغنيين منا يقولان ان اقامة الفرح وتبذير المال من ضروريات الزواج كيف لا وهي عادة اخذناها عن فلان البيك وفلان الباشا. وكيف نبطلها ونحن لسنا باقل منهم ثروة او ادنى منهم وجاهة فكيف نقصر نحن عنهم وهم لم يقصروا ونحجم نحن وهم قد اقدموا . وكفى حجة للافرنج على استهزائهم بنا تهافتهم

للذهاب الى افراح الاغنياء والتفرج عليها . فانهم مع ما يظهر لهم رب البيت من حسن الوفادة والاكرام (ولو لم يكن لهُ بهم سابقة معرفة) يدخلون وتدخل نساؤهم دار حرمنا وبأيديهم آلات التصوير يظنها الرائي شنطة في الايدي فلا يسأل عنها فيأخذون ويأخذ نساؤهم بها صور الرجال والنساء ويطبعون منها المئات والالوف وتبقى عندهم صورة تلك الشريفة الاصل العالية الفرع (١) مطمحاً لانظارهم وعرضة لنظر اولادهم ولمن يزورهم وعليها يبنون قواعد التربية والتعليم بينهم ولا يظنن القارئ انا مبالغون فيما ذكرنا فلدى بياعي الصور امام فندق شبرد بمصر (٢) صور شتى عن حفلات اغنيائنا تباع وتشترى فيها صور نسائهم ومناظر حفلاتهم للسياح والوافدين الى ديارنا من الغرباء عنا ويا ليت الحال قد اقتصرت على الاغنياء منا فقط . الاَّ انها تتناول الوسط حتى الفقراء . فاني اذكر ان جارنا وهو يستخدم قنصلية احدى الدول بمصر كان محتفلاً بزواج ابنتهِ ولداعي صحبتهِ بترجمان قنصلهِ دعاهُ للفرح فلبى الدعوة وأتى ومعهُ بعض صحبهِ من السياح ودخلوا حفلة العرس وبيد بعض نسائهم آلات التصوير واخذوا بها صور النساء وما كاد الفرح ينتهي بقليل من الزمن الاَّ وشاهدت حفلة زفاف البنت معروضة امام فندق شبرد للبيع ولمعرفتي بالبنت وامها وبعض اقربائها تحققت انها هي بالذات

وقد اصبح بعض الاغنياء الآن من شدة شغفهم في تقليد الافرنج وتعلقهم باهداب تمدنهم يجعلون الفرح على نوعين احدهما على الطرز الاوربي والآخر مجاملة على الطرز الشرقي اي بعمل بوفيه حاوٍ من انواع المسكرات المعتقة في الدنان والآخر بمد السماط . وهنا مجال للقارئ يمكنهُ ان يتصور فيهِ ما يلزم لكل ذلك من

(١) والتي قامت لاجلها القيامة على سعادة قاسم بك امين بعدم رفع الحجاب

(٢) لديهم جملة من صور افراح الباشوات والامراء

النفقات الزائدة والتبذير المضر. كما اني لا ادري كيف يتسنى للمدعوين الفرح والسرور وهم سكارى وقد كان الواجب عليهم ألا يعدموا الشعور ويضيعوا الاحساس ليتأتى لهم مشاركة صاحب الفرح في فرحهِ وسرورهِ وانسهِ وحبورهِ . ولكنّ التقليد والجهل وكثرة المال المجموع بغير تعب او الموروث عفوًا اوجد كل ذلك فينا من تافهٍ وسقيم

ولا يحتاج الحال بنا الى استلفات نظر القارىء الى بهرجة الرجال في لبسهم وتبرج النساء حتى انهنّ ليزدنَ عن تبرج الجاهلية فيحتاج بنا الامر لعلم جديد ودين يفهم بعد مضي ثلاثة عشر قرناً وهم في الاسلام

ولا يخلو الفرح من الترح ومن السرقة والسلب والسب والشتم والضرب وكثيراً ما يتسبب لرب الفرح مشاكل فيتقدم لاجلها الى الحاكم

ولا نغفل احضار الراقصات الفاسدات الاخلاق المتهتكات ليرقصنَ بين بنات ابكار واخوات وامهات ابرار صالحات . فلولا ان عميت قلوب الرجال وتأصل الخوف في النساء لدرجة لا يمكنهنّ المطالبة حتى بالصون كما امر الله لما امكن ان يوجد هذا بينهم وفي ديارهم

يحضرون الراقصات ويزعمون ان ذلك مجلبة لسرور المدعوات وهم لا يدرون ما في ذلك من ضياع الادب وفقد الصون والعفة

وقبل ان نختم القول على زواج الاغنياء نقول ان من تأمل وعرف ما درج عليه كثير من الشبان بيننا رأى كثيرينَ من الذين يتزوجون من اولاد اغنيائنا يودعون عشيقاتهم قبل ليلة الزفف بالبكاء والنواح فضلاً عما يبذلهُ البعض لهنّ من الهدايا والتحف وكثيراً ما تكون الهدية مشابهة تماما لهدية الزوجة الشرعية والاَّ فللعاشقات تأثير على عقول شبان الاغنياء وكثيرًا ما يشيرن عليهم بطلاق زوجاتهنّ

بعد قليل فتطلق الزوجة الشرعية من غير ذنب جنتهُ سوى قلة تربية الزوج وعدم اهليتهِ للتزوج وفرط الجهل المتغلب عليهِ والهوى المستولي على عقلهِ . وكنت اود ذكر ما فعلهُ بعض الشبان تشهيرًا لسوء عملهم الاَّ اني اترك كل ذلك لفكرة القارئ وفطنتهِ علهُ يتذكر بعضهم فيعلم سر انفراط الزوجية بين الاغنياء وهم الاغنياء بما منحوا من سعة العيش والراحة ولكنهم بالحقيقة فقراء العلم والتربية والفهم والله مصرف الامور كيف يشاء .

المحبة بين الزوجين الغنيين

محبة الرجل للمرأة هي ثمرة امتزاج عواطف وحاسيات كلٍّ منهما عند اشتراكهما على تكميل ما في كليهما من النقص . والمحبة بين الزوجين الغنيين امر ضروري يجب وجودهُ لدوام السرور وجلب الراحة والطمأنينة . وهي التي عليها مدار لذة الحياة كما هي الاساس لبناء التقوى وردع النفوس عن الشكوى . والمحبة هي الحياة الحقيقية التي ان فقدت كان من ورائها الموت وربما كان الموت اسهل منالاً على نفس من يدرك معنى المحبة وفقدها . وكم من مرة كانت سببًا للسلوى عند المصيبة والفرح عند الحزن . ويمكننا ان نقول ان المحبة هي الروح الحيوية التي تنبعث في قلب الزوجين كانبعاث الدم من القلب الى العروق والمفاصل . ذلك تعريفنا عنها وربما اتخذ غيرنا خطة في التعريف خلاف خطتنا ولكن مرجعها الى هذه النتيجة بلا ريب . وخلاصة القول عنها انها الكلّ في الوجود . فاذا كان هذا حال المحبة كما بيناهُ وذكرناهُ فهلم اليَّ ايها القارئ نتجسس خلال ديار اغنيائنا علنا نجد بعض الشيء منها او نقف على آثار من ناضلوا عنها نضال الرجال فغبطهم التاريخ وكانوا خير سلف عاش بسلام مطمئن

ارسل ايها القارئ رائد نظرك معي وتأمل ايها الصامت فيما اقصهُ عليك وانظر عن يمينك وشمالك واحكم بما تراهُ بلا امتراء ؟

ألست ترى ان المحبة الزوجية مفقودة والشقاق شاملاً بين الزوجين والمساعي مخفقة في ارجاعها والنفور سائداً بينهما لبعدها عنها بعد المشرقين والدلائل على ما ذكرنا كثيرة فانك تسمع كل يوم طرفاً من غيهما مع ان الدهر خصهما بنعمهِ وافاض عليهما بوافر خيرهِ وكرمهِ

لقد وجدا في سلام وولدا في رخاء وسعة من العيش آهل منع ذلك السلام الذي ولدا فيهِ والرخاء الذي نشأ عليهِ انشغال البال وشقاء الحال ؟ مسكن فسيح الجوانب وقصور مشيدة الاركان تكاد تناطح السحاب علوّاً فهل منع ذلك ضيق العيش فيها وانحطاط ذويها الى درجة فقدا بها المحبة والطمأنينة ؟

راحة موهوبة واطمئنان موروث !!! ولكن مع من .... مع من لا يدركهُ ولا يفقه لهُ معنى !!! عطاء بغير نصب وخيرات بلا تعب وامل ولا رجاء !!! مع من هذا ؟ مع من لا يدركهُ !!!

صحة جيدة عند النشأة ونظر سليم فهل اثمرت الصحة وابصر النظر المحبة وفوائدها ؟ كل ذلك لم يثمر حقيقةً وان اثمر فمحبة حيوانية صادرة عن ميل غريزي فلذا ترى المتزوج من اغنيائنا سريع الحب والكره ولا يدرك دافع الميل ولا معنى الانعطاف وقلّ من يدرك معنى الحبّ الزوجي فلذا تجد منهم امیالاً قريبة الزوال سريعة الفقدان ولا تجد في اخلاقهم من المتانة شيئاً . والاسباب كلها جهالات بعضها فوق بعض فأم جهول وزوجة اجهل تدعي الاولى بحق التربية والثانية تُدْلي بحق الزوجية فلا يتفقان ولا يتخذان طرق المسالمة بينهما اذ هما عدوتان للراحة بعيدتان عما يجلبها لاختلاف المشارب والآراء ولو كانتا في سعة من العيش ورفاهية من النعيم

راحة مجهولة وعقل مفقود لا يشعر بفقدانهِ الاَّ العاقل فكيف يتفقان والحب والوئام غير موجودين

أب يحب وام تحب وابن يحب وزوجة تحب ولكنهم لا يدركون معنى الحب ولا ما هو المراد منهُ

ان محبة الزوج لزوجتهِ امر يترتب عليهِ نفع كبير وفائدة عظمى . امر يبنى عليهِ طيب العشرة ودوام السرور والراحة وعليهِ قوام السعادة الحقيقية اذا وجد والعيش الهني الصحيح بدون جدال ما زال موجوداً بين شخصين اتفقا على دوام الاتحاد لدفع طوارئ الزمن و كوارث الايام . ومحبة الزوجة لزوجها فيها نفع اكبر واتم ان وجدت كانت فيها التعزية عند الكوارث والطمانينة عند المخاوف والراحة عند التعب والاقدام عند المواقف الحرجة ولكن اين ذلك فيما بين الاغنياء منا والزوج رجل بمالهِ لا بصفاتهِ والزوجة بمثابة الطفل الذي لا يدرك ولا يعقل من حياتهِ سوى المطعم والملبس فاذا فقدت المحبة لم يبقَ غير الزينة والراحة الوهميَّة والتمتع بملذات الحياة المكسوبة عفواً دون شقاء وعناء

أَليس في ذلك كله دليل على سوء المحبة بين الزوجين . او ليس ذلك سرٌّ للانحطاط ايضاً في داخلية امور اغنيائنا . و كيف الحال والزوج جاهل والمرأة اجهل وهي الشريكة في الحياة . او كيف البقاء والارتقاء وهذا كلهُ لا تدرك حاجاتهُ وكمالياتهُ الاَّ بمحبة صادقة ووداد ثابت . فما علينا اذاً الاَّ ان نعلم نسائنا ونثقف رجالنا لنصل الى معرفة المحبة قبل الزواج وهي أُسهُ والله ولي المؤمنين وهو على كل شيء وكيل

العشرة بين الزوجين الغنيين

تكلمنا فيما سبق عن الطريقة التي يتبعها الاغنياء وصولاً للزواج وبقي علينا ان نتكلم عنهم بعد زواجهم وكيف يتصرفون في بيوتهم ليعلم القارئ لاي درجة وصلنا من الانحطاط على كلامنا يكون عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين

قلنا ان الرجل اذا تزوج فهو لا يعرف في امرأته بادئ بدء الاّ الصفات التي كان قد سمعها عنها قبل الزواج وهي على الغالب مكذوب فيها او مبالغ بها فعوضاً عن ان يمتحن بنفسه بعد الزواج اخلاق امرأته ومقدار معارفها للتوصل الى ايجاد طريقة او صفة فيها تكون مشتركة بينهما وبالتالي موضعاً للالفة تراهُ مشتغلاً عن ذلك بما يحط من مقامهِ ويشين بعائلتهِ اذا كانت تعلق على الشين اهمية . ولا نعلم الذنب في هذا على من أعلى الزوج الذي اذا لم تكن عائلتهُ قد ربتهُ لم يتربَّ هو من الدهر . ام على الزوجة لفساد اخلاقها التي اكتسبتها فيما بين الخدامين والخصاة وزادتها بلاء بمعاشرة والدتها ورصيفاتها اللواتي لا شغل لهنَّ الاّ التبرّج والزينة والخلاعة والسفاهة مما نخجل القلم ان نخط عنهُ حرفاً واحداً

انما مرجع كل ذلك الى اساءة التربية ولذلك ترى المرأة لا تهتم بشؤون زوجها كما انهُ هو لا يهتم بها ويعيشان في بيت واحدٍ ولكن قلوبهما متفرقة (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بانهم قوم لا يعقلون) ومتى تفرقت القلوب فهناك المصيبة التي لا مرد لها لما يتأتى بينهما من الشقاق وربما الفراق والانفصال . وعلة ذلك عدم ادراك معنى المحبة اولاً والمعاشرة ثانياً وتسليمهم انفسهم بانفسهم الى العوامل الخارجية والاحوال التي تتقاذفهم كيفما شاءت . ومن امعن النظر في ذلك رأى الرجال لا يهتمون باعمال زوجاتهم حتى ان المتأمل يظن ان لا عشرة هناك ولا زوجية . وكثيراً ما

سمع القارئ ان الزوج منهم لا يحتاط لعدم وقوع زوجته في الحيل والشباك التي تعمل لها اذ مهما بلغت العشرة وطال عليها الامد بين الزوج وزوجته الغنيين لا يأتمن بعضها البعض فلذا ترى في كثير من الدوائر جماعة الكتبة فريق منهم قابض على حساب الزوج وفريق على حساب الزوجة ولو سألت عن الاسباب الداعية لذلك ترى النفور والحسد والاثرة بين الزوجين هي المسببة لما ذكر والمرأة منهن كثيراً ما تكون ذات قسوة مكتسبة في نفسها وليست امرًا طبيعياً فيها لعلمها بتوفر رزقها ولعلمها انها اغنى من زوجها وكأن الواحدة منهن عند ذكر الغنى والثروة زادت فيهن الحركة والصوت فلذا لا تستأنس احداهنّ بزوجها ولا ترق عليهِ ولا تذل لديهِ ولا تسكن اليهِ الاّ قليلاً وهنّ المهذبات المربيات وقليل ما هم . واذا لم تحترم شخصهُ فهي في شقاق معهُ طول عشرتها اياهُ . يغنينا عن اتيان الدليل واثبات الشاهد تفكرة القارئ في حالة العشرة الزوجيَّة الغنيَّة فانهُ لا يرى بينهما سوى احتدام الكلام قائمًا منصوبًا ووطيس الشقاق مبثوثًا بينهم والسبب يكون اما من غنى المرأة على الرجل من جهة او انحطاط الزوج في شرف النسب من جهة أُخرى . ولكن الاغلب والذي جرَّ هذه الكوارث فرط جهل النساء وعدم تعليمهن طرق المعيشة وجهل الزوج واجبات الحياة وشرائط احترام الزوجة والنسب والاهل كما قررتهُ شريعتنا الغراء ولكننا نرجع بالذنب كلهِ على الاب لسوء ما ربى والام لسوء ما ارشدت وسوء ما فرطا كليهما واليك مثال تربية الاولاد لتجعلهُ قياساً من الحاضر على المستقبل

تربية اطفال الاغنياء

"قال حكيم" — ربَّ الولد في طريقهِ فتى شاب لا يحيد عنها —

الولد سرُّ ابيهِ وامهِ يأخذ من مزاياهما واخلاقهما ويدل عليهما بين الاهل والمعارف كما يدل عليهما في الجماعة والوطن . وكل مولود يولد ففيهِ نفع لاهلهِ وتقوية لجامعتهِ فاذا عرفنا هذا وتحققناهُ فهل هذا نشعر بهِ كلنا او على الاقل هل يعرفهُ الاغنياء منا ؟ . او ماذا يكون الولد في نظر هؤُلاء الاغنياء ؟ اذا كان ذكرًا أحبهُ ابواهُ معًا واذا كان أُنثى كرهها ابوها واحبتها امها كما قال الله عزَّ وجل عن امثالهم "واذا بُشر بالانثى ظلَّ وجههُ مسودًّا وهو كظيم" اذ لا يميل الاب الى البنت ميل الام اليها . وكم أدى ذلك الى النفور والخصام بين الوالدين اذ ربما كان عدم تقبيل الاب لبنتهِ سببًا يدعو امها الى ان تتفوهُ بكلمات تسيئهُ والاَّ كان الميل خداعًا واستعطافًا لها ومواربة منهُ اليها وكم نشأَ من هذا القبيل حكايات كثيرة كانت سببًا لزرع الشقاق بينهما وربما جرت الى الفراق واذا استفحل الامر فالى الطلاق. الاَّ من حسنت آدابهما وتكاملت اخلاقهما فانهما لا يعتدان بما ذكرنا بل يهتمان بالطفل لا فرق عندهما ذكرًا كان او انثى بل يجعلان كلاًّ منهما امام نظرهما سيان ولا يجعلان لمثل هذه الامور تأْثيرًا عليهما . الاَّ ان الام تستنكف إرضاع الطفل فتأْتي بمرضع لارضاعهِ وهذا امر اصبح لا يتناول الاغنياء فقط بل كاد يكون عامًا حتى ان تناول الوسط واصبحت لذلك المرضعات تعد بالالوف ولا يخفى ما يتشربهُ الطفل الرضيع مع اللبن من أمزجة هؤُلاء فضلاً عن الامراض التي كثيرًا ما تصاب بها الاطفال وقلَّ ان تجو منها ولذا تكثر بين اطفال الاغنياء الامراض ويصابون بالعقد الخنازيريَّة وغيرها

نعم لا ننكر ان ذلك يمدح ان كان مزاج الام غير ملائم وغير مساعد على الرضاعة ولكن ما القول اذا كان نساء الاغنياء يستنكفنَ ترفعاً منهنَّ وعظمة عن ارضاع اطفالهنَّ وحتى لا يقال انهنَّ غير متمدنات — قال عالم فاضل — تتساوى في نظري العاقر والتي لا ترضع اولادها — فما القول الآن ولا توجد امرأة ترضى بارضاع اطفالها وفي سير النساء المسلمات في صدر الاسلام وفي بهجتهِ وعزهِ كانت نساء الخلفاء والامراء هنَّ اللواتي يعتنينَ باطفالهنَّ ويرضعنهم مع مقدرتهنَّ في ذاك الوقت على احضار من شئنَ من المراضع .

لا شك ان هذا الامر المنتشر بين ظهرانينا مضرٌّ بنا ولهُ علاقة كبيرة في فساد اخلاقنا وضعف تربيتنا واضمحلال قوميتنا وقد عرف هذا كثير من علماء الاخلاق فنبهوا عليهِ وحذروا منهُ . ويمكننا القول عنهُ ايضاً بانهُ سبب مهم في تغيير الامزجة وجر الامراض على اطفال العائلات الغنيَّة من حيث تدري ولا تدري . وتربية الطفل ليست من الامور اليسيرة حتى يستهان بها او يتقاعس عنها الى حد يؤدي بها الى ما لا تحمد عقباهُ كما نراهُ ونشاهدهُ الآن بل الحقيقة ان الطفل اذا دبَّ على الارض لزم لهُ الاعتناء العام وما دامت نشأتهُ في الحياة كنشأة النبات في النمو والظهور وجب ان يعتنى بهِ وبما يحفظ قواهُ وينميها والاَّ ذهب ضحيَّة جهل والديهِ من حيث لا يشعرون كذلك النباتات اذا لم تسقَ بماء يحييها من حين الى آخر ذبلت او ماتت [1]

وعلى الوالدة المحافظة على ولدها ومساعدتهُ بكل ما يمكنها من الوسائط لنموهِ

(١) وابلغ من هذا ذهاب بعض فلاسفة التربية الى ان الاعتناء بالتربية يبتدئ من زمن الحمل وهذا معقول لا امتراء فيهِ ولا ارتياب

وارتقائهِ وهذا سهل عسير. سهل اذا كانت الام الكبرى بين اخواتها ورأت امها تربي اطفالها. وصعب عسير اذا اعتمدت على نفسها بدون ان تسترشد من سواها وكانت ممن لا يدركنَ علم تربية الاطفال كما عليهِ اغلب نساء الاغنياء اذ هنَّ لا يعرفنَ ما يلزم مما لا يلزم وهذا مما يدعونا الى الاسف في عصرنا الحاضر وهو علة لجلب الخادمات واستخدامهنَّ وهنَّ اجهل منهنَّ في هذه الامور وان كان اغلب نساء الطوائف الاخرى قد انتبهنَ الى تربية اطفالهنَّ وجعلن لها دروساً تعطى عند تعليم البنات في مدارسهنَّ الاَّ نحن فنساؤنا أجهل من ان يدركنَ معنى علم تربية الاطفال وهنَّ في مقدمة نساء العالم بانهنَّ لا يهتممنَ بهم قدر اهتمامهنَّ بزينتهنَّ وبهرجتهنَّ وفي مقدمة ذلك التهاون تسليم الاطفال للخدم زعماً منهنَّ انهنَّ سعداء يمكنهنَّ جلب المراضع والخدم لاولادهنَّ ولكن شتان بين ام تربي طفلها بيدها وهي بهِ ارحم كما هي عليه اشفق ممن ليس عملها الاَّ مقابل اجرة تتقاضاها عاجلاً بخلاف الام فانها مسئولة شرعاً وذمة امام الانسانيَّة وامام الله بكل ما لحق باولادها وهم صغار فهل ادرك ذلك نساء الاغنياء وعملن به؟ كلاَّ كانهنَّ عدمنَ تربية امهاتهنَّ لهنَّ والشفقة والحنان عليهنَّ

وعلى هذا النسق تترك الامهات الاطفال حتى اذا بلغوا سن السادسة او السابعة فرحت الام واستبشر الاب وحمدوا صنيعهم قائلين لبعضهم قد كبر الابن او البنت فهلم بنا نعلمهم ونهذبهم على طرق يصبحون بها متمسكين بالآداب وبما يشبه تربية الافرنج لاولادهم كما نسمع ونرى فيأتون لهم بخادمات من غير ابناء العرب لكي يعلموهم ويرشدوهم على قولهم حتى ان الولد ليأتي بعمل تلقاهُ من مربيتهِ الاولى ولا يقع لدى الاخيرة فتستهجنهُ قائلة أفٍّ من فعال ابناء العرب فيضيع عند ذلك من الولد ما تلقاهُ وهو صغير ويصبح حائراً لا يدري كيف يسترضي

الاخيرة [1] وناهيك ما يقع فيهِ الولد وهو صغير من الارتباك والتشويش فضلاً عما يتجدد في نفسهِ من الكره لاخلاق وعوائد أُمتهِ وبني جنسهِ وهو لا يدري الاصوب فيتبعهُ . هذا غير فقدان ما تعلمهُ من لغة قومهِ واهلهِ وكثيرًا ما يقف محتاجًا لترجمان بين امهِ ومربيتهِ الجديدة . وهذا ايضاً امر قد دخل جديدًا في التربية واوجد الفتور فيها والقلق . والدليل على ذلك ان اولاد اغنيائنا لا يكونون مثل ابائهم او امهاتهم في الاخلاق الاَّ نادرًا . ولا يستغرب مستغرب ما نقولهُ فها هم اولاد العظماء لديهِ فليتأمل فيهم يرى لما نقولهُ صحة ولما نشير اليه حجة .

ان شئت ان نعرف كيف تتولد البغضاء ويتولد النفور بين الاولاد وهم صغار فسببهُ ايضاً فساد في التربية وسببهُ الاكبر سوء تصرف الاباء والامهات معهم . اذ هم يعاملون اولادهم معاملة المحاباة تفضيل احدهم على الآخر في كل شيءٍ من مأكل وملبس وهم لا يدرون ان بعملهم هذا يزرعون الجفاء بين الاولاد يزرعون البعد بين القلبين فينشأوا وهم شابون على كراهيةٍ بعضهم بعضاً شابون على جفاء متمكن منهم واين لي بمن يفهم الوالدين ان في عملهما ذلك مجلبة لحرمانهما من الراحة فيما بعد والاَّ لو عقلا الاسباب وفقها النتائج ووهبا عقلاً ما فعلا ذلك ولا

(١) مما يدل باجلى بيان على ضرر استخدام الاوربيات مربيات للاولاد . اني اعرف صديقًا لي كنت معهُ يومًا نتنزهُ في حديقة الازبكية. فاوقفتهُ احدى الافرنجيات ومعها جملة اولاد وبنات صغار وقالت لهُ ألا تعرفني فقال كلاَّ فاجابتهُ تأمل فيَّ جيدًا فلما لم يعرفها قالت لهُ كيف تنساني وانا التي كنت في "البار" الفلاني وكنت تتردد عندي ليلاً فاستغرب ذلك منها خصوصاً لما رأى الاولادَ الذين معها فسألها عن حقيقة حالها فقالت بعد ان استحلفتهُ بكتمان امرها انها الآن في سراي الباشا ..... بصفة مربية للاولاد ووكيلة في السراي وصاحبة الامر والنهي في جميع تصرفات السراي جميعها وعمار السراي وخرابها متوقف عليها . ثم ودعها والتفت اليَّ قائلاً تأمل فان مثل هذه المرأة يعلمن اولاد وبنات الذوات على المبادىء التي يعرفنها فتنفست الصعداء متألماً متوجعاً على هذه الحالة المحزنة

اقدما عليهِ ولكن انى لهما ان يفقها وهما بعيدان عن معرفة ما يرجحهُ العقل من ان الحب يتوارث والبغض يتوارث . ولذا ترى الاولاد يشبون على كره الواحد للآخر والشواهد عديدة يعلمها الكل ومن شاء معرفتها فلينظر لاختين ربيتا على ما تقدَّم وتزوجتا وهما لا تزور احداهما الاخرى . لا شك انهُ عند معرفة ذلك يقول قد صح الحكم واتضحت الاسباب وصدقت الآية الكريمة " الاخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوٌّ الاَّ المتقين " نسمع باذاننا ان بعض الاخوة تمر عليهم الايام وتكر عليهم السنون وهم لا يتذكرون انهُ يجب عليهم السؤَّال عن بعضهم . هذا امر نشاهدهُ او نسمع بهِ وهو حاصل بين اولاد ذواتنا حاصل بالاخص بين بناتهم وذلك غير ما كانت عليهِ بنات ذواتنا قديمًا ولدينا كتب السير نقرأُها نراهنَّ على جانب عظيم من المودة الخالصة والوفاء الحميد . لا شك انا فقدنا منهم ما كان معروفًا فيهم قبلاً ولا ندري الى اي طريق يصلون ولا ندري تعليل هذا الجفاء في زمن اصبحنا فيهِ بعيدي الدار بعيدي المحبة والائتلاف

أدب الاولاد الآن ناشئ من الخوف ناشئ من استبداد الاباء والامهات عليهم وليس هو الادب الذي كان معروفًا عنهم قبلاً الناشئ عن الفهم والعلم والمعرفة الحقة اوالمكتسبة من الدرس والمطالعة والتعليم ولذا نرى كثيرًا من اولاد اغنيائنا في حضرة ابائهم وامهاتهم يظهرون ادبًا وبالاخص امام الزائرين . اما في حالة وجودهم في البيت على انفراد فحدث عنهم كل ما يخالف الحشمة ويضاد الادب وذلك مع الخدم والجواري ولهذه المعاملة السيئة تكرهُ الخدم خدمة الاسلام وتنفر عنها ويفضلون الخدمة عند الطوائف الاخرى لان اولادهم اعلى ادبًا واوفى كما لا يأمرون بالمعروف الذي كان فينا وبالاحسان الذي كان يعرف قديمًا عنا . والاَّ نخذ لذلك مثالا خادم او خادمة في منزل رجل غني مسلم قائمين

بواجبات شؤونهما كما يجب . سواء كانت من نظافة او طباخة او غيرها فاذا لم يطيعا حالاً ما يؤمرا بهِ ولو كان من غير عملهما المخصصين لهُ . يجدون من انواع السباب والاهانة ما يغيب منهما الرشد ويبعد عنهما الصواب . والسبب سوء خلق اهل البيت من ولد وبنت وزوج وزوجة ولا يمكننا وصف حالتهم بدون تذكير القارىء بما اصبحت عليهِ الغنيات من خشونة الطبع وسوء الخلق في معاملة خدامهنَّ . بيد انهُ يوجد منهنَّ عدد عديد لا يدركنَ معنى الحياة فلذا تراهنَّ يأتمنَّ الخدم ويعاملنهم معاملة حسنة مقابل جعلهم مستودعاً للاسرار . حتى بلغ البعض من جراء ذلك لدرجة كثيراً ما يتأتى منها الضرر ولو شئت معرفة تأثير اخلاق الامهات في الابناء والخدم فانظر للحرية التي خلقت للانسان منذ خلقتهِ ووهبها لهُ الله ليعمل بها العمل الطيب البار النافع . وتأمل لشرطها وهو احترام حقوق الغير وعدم تعدي الناموس الادبي والذي عرفها العاقلون ولم يعرفها الجاهلون امثال امهات واباء اولاد الاغنياء منا نجد الحرية بينهم تجر الاضرار والاذى . لانها حرية مظلمة تربي في النفوس الرذيلة وتنمي المفاسد والقبائح . تجدها فيهم ويا للاسف حرية مفسدة للاخلاق والتربية واليك مثالها

تخرج الام من خدرها وتبرز من بهوها الجالسة فيهِ اغلب ايامها بدون عمل وبعد ان تتأنق بقدر من الرياش والترف وما يتبع ذلك تذهب لزيارة صديقة او لزيارة مقام فتلوّن نفسها بكثير من انواع مذمومات الخلق والشر ثم ترجع الى منزلها فتحدث بما رأت وما سمعت من قول واشارة فتفسد الام بقولها هذا ما عندها من الابناء وتجر الضرر من حيث لا تدري وكم من ام تود الربح فتقع في الخسارة

وناهيك عمن يتردد الى البيوت من اسافل القوم ورعاع الجماعة من عجوز وصبي وما شاكلها . اذ بهذه الحالة تنبت المفاسد وتربو الاخلاق السافلة في الابناء

فضلاً عن تأثير اخلاق الخدم من مذمومات الخلق الذي يدرّبون عليهِ الاولاد وهم صغار لا يعقلون اذ لو اردنا البحث في تأثير الخلق من الخدم لرأينا ان الموكول بالاولاد منهم الآغوات الذين لا يفقهون الصالح من الطالح. حتى ولو اطالت الاولاد السنتهم ورفعوا ايديهم لا ينتبهون ان عملهم هذا خطاء في حق الاولاد اذ ترتقي مع الولد قلة الادب وفقدان التربية ما ارتقى في السن ان لم يكن لهُ رادع سيما والانسان بعيد عن الكمال محب للرذيلة

بكثيراً ما يأمرهم الخدم بكل قبيح ويعلمونهم السرقة من الاباء والامهات وكثيراً ما يُعطى الاولاد دراهم لا لزوم لها فيصرفونها على شرب السجاير وهم صغار او تعاطي مواد أُخرى مضرة بالصحة . والمعلم والمنبه لكل هذه الامور الخدم والحواشي ومن العابهم تعرف درجة انحطاطهم عمن يماثلهم في السن من الطوائف الاخرى . ولا يخفى على المتأمل في حقائقهم سوء العواقب الوخيمة وسوء المغبة والمآب فاحكم بعد ما تقدم بما وصلوا اليه وما سيصلون في زمن تربية المدرسة والتعليم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

تعليم اولاد الاغنياء

قال الامام الغزالي رضي الله عنهُ "الصبي وديعة عند والديهِ"

اعتاد الاغنياء منا تعليم اولادهم في ثلاث مدارس . المدرسة الاولى هي المدرسة المخصوصة اي التي يأتي اليها المعلم في البيت والثانية والثالثة المدارس الاميرية والاجنبية . اما الاولى فهي مكونة من معلم شيخ او غيرهِ وتلميذ او اكثر يعطون حصة او حصصاً في النهار . واما الثانية والثالثة فامرها معلوم وسيأتي الكلام

عليها . والمدرسة المخصوصة هي كما تقدم يأتي اليها المعلم ولا يذهب اليها التلميذ للتعليم . مدار التعليم فيها المبادئ الاولية من قراءة وكتابة بسيطة لا تكفي لتعليم الناشئين تماماً اذ لا يكون التلميذ امام معلمه وهو في بيته الا كمثل من يضيف زائراً فيقدم له الاحترام ما مكث . وليس من وجود لطاعة او سماع لاشارة ولا للمربي من سلطان ما دام في نفس المعلم لتخص المتعلم احترام ورهبة اكثر مما في نفس المتعلم اذ ليس في نفسه انقياد واذعان لما يؤمر به من معلمه ولا يمكن ان يتحصل التلميذ بهذه الكيفية على فائدة تقنى او تؤهل الطالب الى وسائل النجاح حسبما ذكر والا واليك بيان كيف تنقضي ساعة الدرس في تلك المدارس المخصوصة بين المعلم والمتعلم . اذا حضر المعلم نودي التلميذ من بين الخدم او الحرم فاذا جاء وقابل معلمه واهدى اليه السلام جلس بين يديه يتلو درسه برهة ويقص عليه ما جرى بينه وبين خدمه برهة اخرى ثم يكتب دقيقة ويتكلم معه بضع دقائق في شأن ما عزم عليه ابوه من شراء خيول وتجهيز عربات حتى اذا ازف الوقت وانتهت ساعة الدرس (وهي تنتهي بلا درس) قام المعلم مودعاً وقام التلميذ ضاحكاً وللعب مولعاً مشتاقاً وليس من اب ينبه على المعلم بالاعتناء بالتعليم او يلاحظ ما يستفيده ولده من معلمه حتى يرى اذا كان أثر هذا التعليم صالحاً مفيداً مهذباً لابنه ومغذياً لعقله ومقوياً لفهمه او لا . كل هذا لا يلتفت اليه بالنسبة للولد المتعلم بل يترك وشأنه لذلك المعلم ولا مرشد للابن يبين له ثمرته في الصغر عملاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم — لان يؤدب احدكم ابنه خيراً له من ان يتصدق بصاع طعام[1] وهذا عكس ما كان عليه الاغنياء من قبل عند ما كانوا يوصون معلمي اولادهم

(١) حكاه ابن ابي جمره في شرح البخاري

ومؤدبيهم بقولهم (١) "ليكن اول اصلاحك بني اصلاحك لنفسك فان عيوبهم معقودة بعيبك فالحسن عندهم ما فعلت والقبيح ما تركت . علمهم الدين ولا تهملهم فيه فيتركوهُ ولا تتركهم منهُ فيهجروهُ وروّهم من الشعر أعفهُ ومن الكلام اشرفهُ ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يحكموهُ فان ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم. تهدّدهم بي وادّبهم دوني وكن كاالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء وجنّبهم محادثة السفهاء وردّهم سير الحكماء" هكذا كان يأمر الاباء بتعليم الابناء وبهذا نشأ السلف الصالح على نشأتهِ الاولى من ادب وكمال ولكن الآن قد بعد عن ذلك المعلمون الخصوصيون والاباء واصبحت ساعات تعليمهم في مدارسهم الخصوصية ساعات فكاهات ولهو ولعب من قص حكايات وتجاوز مناقشات تبعد الدواء وتجلب الادواء وتجر تعليم السفه وقلة الاكتراث بالعلم حتى اذا عكف المعلم والمتعلم حيناً من الزمن خرج الولد من بين يدي المعلم سفيهاً قليل الادب والتهذيب . ثم اذا شاهد الاب عدم نجاح الابن سعى جهدهُ وأخذ بطوق ابنهِ الى المدرسة وبذل ما في وسعه لادخالهِ فيها فاذا دخل الابن وتم لهُ القبول كان رفيقاً لاولاد صغار على كبرهِ في السن هم الاعلى وهو الادنى . ولذا ترى أغلب اولاد اغنيائنا زملاء لاولاد صغار في المدارس كلهم يتعلمون ويكدحون نحو التقدم . الاّ هم فانهم يتأخرون ويتقاعسون عن التقدم في التعليم فضلاً عن اتيانهم صباحاً متأخرين عن ميعاد المدرسة مجهدي قوى عقولهم صباحاً للاحتجاجات التي يقدمونها كل يوم للاساتذة مع ان لهم الركائب والخدم والوسائل التي تسرع بحضورهم الى المدرسة وهنا يتبين لنا شيءٌ غامض في زمن المدرسة الا وهو انحطاط

(١) قول عمر بن عتبه بن ابي سفيان يوصي مؤدب ولدهُ بهِ

اولاد الاغنياء وارتفاع اولاد الفقراء والفضل لسوء تربية الاولين في الترف والنعيم والدلال . ولحسن تربية الآخرين منذ الصغر على المناضلة والتنازع لمعاركة ما هم فيهِ من الانحطاط والفقر فينمو في الاولين البطالة والكسل وفي الآخرين الاجتهاد وحب العمل . ومن شبَّ على شيء شاب عليهِ . لا شك بعد هذا اذا نظرنا الى مستقبلهم في التعليم فانا نراهم مقصرين الاَّ في اللعب والعربدة ولذا ترى سيرهم وسلوكهم مع الاولاد الآخرين سيئًا للغاية فتراهم عديمي المحبة لاخوانهم في التلمذة كبيري النفوس والحقد والبغضاء عليهم تمر السنة المدرسية وهم لاهون غير شاعرين واذا جاء زمن الامتحان قصروا واذا قصروا رفتوا من سلك المدرسة وقبل رفتهم يتعللون كل يوم لابائهم بسوء التعليم وقلة الانتباه وكثيرًا ما تلقى حيلهم هذه اذنًا صاغية فيخرجهم الاباء من المدرسة قبيل زمن الامتحان ويدخلونهم الى مدرسة أُخرى وهكذا حتى ان كثيرين منهم قد يطوفون على جميع المدارس ثم يدخلون المدارس الاجنبية وهذه كما لا يخفى كثيرة العدد كثيرة الوجود قلَّ ان يخلو منها حي غير ان هذه المدارس لها مشارب واغراض لا توافق من كان مثلنا يرجو النفع الحقيقي ويؤمل الغاية الصحيحة من التعليم والاَّ فكل مدرسة من هذه المدارس عاملة على نشر لغة قومها . قائمة على بث مبادئ اصحابها فمثلاً مدارس الجزويت والفرير تجتهد في تعليم اللغة الافرنسيَّة والعربيَّة الاَّ ان للاولى العناية الحقيقيَّة وللثانية العناية الوقتيَّة فضلاً عن بث مبادئ الديانة المسيحيَّة للتلامذة سواء كانوا مسلمين او مسيحيين من عقيدة تخالف عقيدتهم اذ الكل مكلفون ساعة الصلاة بالركوع ورسم الصليب . وتلاوة الصلاة بالخشوع التي كثيرًا ما يكون التلميذ المسلم عارفًا بدين اصحاب مدرستهِ اكثر من دين اهلهِ

وقومهِ فضلاً عما يرمي اليهِ اصحاب هذه المدارس من الاغراض التي اصبحت غير خافية على احد والتي نرجو من جميع مدارسنا التمسك بمثل هذه المبادىء . غير اننا نقول ان مدارس المرسلين الاميريكان هي احسن كل هذه المدارس تعليمًا وادبًا وتربية وصحة مبادىء وتقويم اخلاق . غير ان اساس تعليمها ايضاً مبني على تعليم الديانة البروتستانية ونشرها بين الناس من مسلمين ومسيحيين ويهود وغيرهم وهي ايضاً لا يرجى منها انا نفع في تعليمنا وتقويمنا الأ اذا كان تعليمها للدين ممنوع المسلم مباح للمسيحي . ومن الاسف ان نرى جميع اولاد ذواتنا في هذه المدارس يتعلمون ومنها يتخرجون فاذا كان ذلك كذلك فلنبحث عن سلوكهم مع التلامذة وعن درجة تقدمهم . اما عن سلوكهم في هذه المدارس فسلوك حسن نوعا ما عما يكونون في المدارس الاميرية . غير انهم لا يزالون يعتبرون انفسهم انهم اعلى ممن يقارنهم من التلامذة ولو كانوا في الحقيقة أدنى منهم في الدرس والتعليم اهل ادب وبطالة وعربدة ودعارة اكثر منهم سفها وادعاء وخيلاء فضلاً عن كثرة انقطاعهم وحبابهم وقلَّ منهم من يعتني بفهم الدرس كزملائهِ فاذا لا يصطحب احدهم بآخر الأ اذا كان أعلى منهُ فهمًا وعقلا . تراهم مقصرين في الدروس النافعة مجتهدين في ما يجر الى الانحطاط عقلا وادبًا . ولدينا شواهد حالهم في المدارس اذ هم معتادون ان يكتبوا كل سفيه وان يقرأوا كل رذيل (١) ولذا تراهم قد اعتادوا

(١) يكثر بين اولاد الاغنياء وهم في المدرسة قراءة قصص الافرنج وتضييع اوقاتهم في مطالعة الروايات السافلة وغيرها من كتب الخلاعة والهذيان عربية كانت او افرنجية بخلاف اولاد الطوائف الاخرى فان الاباء يهدون الابناء في الاعياد الكتب التي تفيدهم وتحثهم على الافادة

قال "المقتطف" الاغر عن هذه الكتب . ان هذه الكتب تؤلف لهذه الغاية وتقصد

الكتابة لبعضهم من امثال ما ذكر جملاً والفاظاً سافلة يحمر منها وجه الادب حياءً وخجلاً واكثر ما يقع منهم هذا في وقت المدرسة او في وقت المسامحة اذ منهم كثيرون يكتبون على ابواب بيوت بعضهم ما يدل صراحة على درجة براعتهم في النقائص والمعائب واني اعرف حادثة جرت بين ولدين من اولاد الاغنياء سببها واحد ولكنها كبرت معهم حتى قام كلٌّ منهما وطبع في حق الآخر كراساً حشوهُ البذاءة وقلة الحياء وقد وزع كلٌّ منهما على اخوانه ومعارفهِ تلك الكراسة مجاناً ولم يتركا طريقة لزيادة انتشارها الاَّ طرقاها حتى انهما ادرجاها في جريدة من الجرائد السافلة . هذا هو سلوكهم مع اخوانهم في التعليم فتأملهُ . اما سلوكهم مع الاساتذة فسلوك رياء مصطنع واحترام يقدمونهُ للاساتذة ما داموا في المدرسة اما خارجها فلا يوجد ثمة احترام . ويستنكفون التسليم عليهم لئلا يظن الناس اذا سلم احدهم عليهم انهُ تلميذ يحترم استاذهُ ولا يخفى على القارىء فعل ابناء الاغنياء وعملهم في مدرستي الطب والحقوق سنة ٩٢ وسنة ٩٦ وعدم اطاعتهم لمعلميهم واساتذتهم

اذا مرت السنون ووصل احدهم لنهاية الفصول من المدرسة يقدم بغير روية امتحان امام نظارة المعارف فيسقط امام الامتحان و يعزون سبب سقوطه لقلة اهتمام معلميه به ثم اذا مكث سنة أُخرى اما ان يستأجر من يقدم نيابة عنهُ باسمهِ لاخذ

بها الفائدة وحدها او الفائدة والفكاهة فلا يكاد الولد يبلغ العاشرة من عمرهِ حتى يصير عندهُ مكتبة صغيرة فيها من نخبة الكتب التي يستنير بها عقلهُ وتتسع معارفهُ حتى يسير في هذه الدنيا على هدى ولا يخبط فيها خبط عشواء . ثم قال "المقتطف" وكما تهدى اليهِ الكتب تهدى اليهِ الجرائد العلمية والادبية فيشترك باسمهِ فيرى نفسهُ مشاركاً لاهل العلم والادب في حداثتهِ ويبذل جهدهُ ليقوم بحق هذه المشاركة اه

الشهادة[1] او يترك المدرسة معتقدًا بانها لا تصلح لهُ ولا يصلح لها حيث قد وصل الى سن الرجولية وعار عليهِ البقاء في سلك التلامذة لحين اتمام الدروس الانتهائيَّة وما دام انهُ رأى اصغر منهُ سناً قد خرج منها ظافرًا بشهادتهِ وارتد هو عنها خاسرًا

وهنا لا ندري كيف يكون لنا قوام في هؤلاء الابناء وهم لم يحصلوا على شيء من العلم يكسبهم صفات الرجولية الحقيقيَّة ويجعلهم اهلاً لها اذا دخلوا في دور تربية المرء نفسهُ بنفسه اي ان يمرّن المرء نفسهُ بالممارسة في ميدان هذه الحياة ومعرفة شؤونها لا شك بعد ما تقدم ان نظرنا للمستقبل نظرة عموميَّة وارتد بنا البصر حاسرا ووقف القلب حائرًا واللسان ممسكًا عن المقال ولكن لا بأس من ذكر ما قد اصبحوا عليه فيما يلي حتى نعلم سر انحطاطهم وتأخرهم والله مقيم العباد فيما اراد

تعليم بنات الاغنياء

البنت في العائلة مدعاة لمعرفة ما اذا كانت تلك العائلة في درجة من النجاح في هذه الحياة ام لا . وجليٌّ ان بحياة العائلة حياة الامة . اذ الامة انما هي مجموع عائلات ليس الاَّ ولذا من اراد استطلاع كنه احدى العائلات ايعلم درجة تقدمها في النجاح والفلاح فعليه ان يمعن بصيرتهُ في الفحص والتنقيب عن أدب وتعليم البنات في تلك العائلة . فان وجد ثمت ادبًا وألفى التعليم ليس بمفقود علم ان حياة هذه العائلة حقيقيَة وعيشها رغيد غير مشوب بالاوهام والشبهات . وان الامة التي تتكوّن من هذه العائلات هي متقدمة دون ريب والعبرة ليست بكثرة الافراد في

(١) لا ينسى القارئ ذينك الاثنين من اولاد الذوات اللذين زورا الامتحان امام لجنة الامتحان ثم حكمت عليهما المحاكم بالسجن ثمانية عشر شهرًا

العائلة بل بعدد المتعلمين فيها من البنين والبنات اذ مهما بلغت كثرتها فهي لعدم التعليم اصغر في نظر العاقل من عائلة صغيرة افرادها متعلمون . انظر في تاريخ نشأة الاسلام الاولى تجد العائلات وقتئذٍ متقدمة تقدماً عظيماً حتى انك لترى بينها كثيراً من الكاتبات الاديبات والعالمات البليغات . تعلم ذلك اذا رجعت الى الاطلاع على تمدن القرن الاول حتى السادس من الهجرة زمن انتشار المعارف والآداب التي تقصر عن تحصيلها بنات عائلات الاميريكان والانجليز والامم المعاصرة لنا . ونحن نفتخر بفضلٍ كان فيهم لافينا وهم لو تكلموا وخرجوا من اجداثهم لقالوا لنا بلسان عربي فصيح "هذه محاسننا فاين محاسنكم اعملوا مثلما كنا نعمل واقتفوا آثارنا والاَّ فنحن براء منكم" لا ريب في اننا فقدنا في تعليم البنات والبنين كل شيء وتثبطت منا الهمم الموروثة عنهم وغابت عنا تلك العزائم التي كانت تشاهد منهم . ورب سائل يقول — كيف تعلم البنات في تلك الاعصر الخالية حتى اصبحنَ على نحو ما نقول — وجوابنا انهُ كان لهنَّ مجتمعات عامرة وكانت بهنَّ عناية وافرة واهتمام زائد ناشيء عن الاحساس بما يثمرهُ تعليمهنَّ وتهذيبهنَّ ولذا خرج منهنَّ عالمات فاضلات يبثثنَ روح التعليم في بنات جنسهنَّ وفي الرجال . وبلغن في الفنون والصنائع والتأليف والتصنيف والاشعار البديعة شأواً عظيماً وغاية ليس وراءها غاية . ولذا كانت الواحدة منهنَّ عالمة فاضلة . اما الآن فلا مدارس للبنات يتعلمنَ بها كما كان لهنَّ من ذي قبل ولا عناية بامرهنَّ ولا اهتمام مطلقاً ولذا تراهنَّ على ضد ما كنَّ عليهِ بنات جنسهنَّ في الزمن الغابر . كيف لا وهنَّ قد اصبحنَ يتباهين الآن بما عليهنَّ من الحلي وما عندهنَّ من الملابس وكل واحدة منهنَّ تفاخر اقرانها بواسع نعمها وثروتها لا بعلمها واطلاعها ولو علمنَ لكنَّ يفخرنَ بحسن المبادىء والعلم والادب ولكنَّ يخجلنَ مما هنَّ عليهِ الآن . اذ البنت

لو تعلمت لكانت كنز فوائد لا يفنى على كرور الايام بل كلما ازدادت في فهم العلوم ازدادت المادة وغزرت كالبئر يكثر فيها الماء اذا نزحت وتنضب اذا تركت لشأنها بل وتفسد. وكانت لاطفالها بعد زواجها هادياً ومربياً صالحاً. ونعم ما قالت احدى السيدات الفاضلات في هذا الصدد ونصهُ (١) "ولو اراد النساء ان يقتصرن على الاهم من مطالبهنَّ لقلنَ لرجالهنَّ انما نطلب منكم ان تهتموا بتعليم بناتنا كما تهتمون بتعليم بنينا ولا نطلب فوق ذلك لان الابنة المتعلمة تعرف مقامها في الهيئة الاجتماعية"

والبنات المتعلمات ريحانة النفوس وتفاحة القلوب ومخففات هموم الرجال اذ لا خليل اوفى ودًّا من امرأة متعلمة مهذبة ولا اعطف قلباً وارق فؤاداً من امرأة تعتني بعيالها وتربيهم على حب الفضيلة والتقوى. ومما روي ان قطر الندى بنت احمد ابن طولون لما زفت الى المعتضد بالله شغف بها فوضع رأسهُ في حجرها فنام فتلطفت في ازالة رأسه عن حجرها ووسدتهُ وخرجت من البيت فلما استيقظ ذعر وناداها فاجابتهُ من مكان قريب منهُ فقال اسلمت نفسي اليكِ فذهبتِ عني فقالت لم ازل كائنة لامير المؤمنين قال فما اخرجكِ من البيت قالت ان مما ادبني به ابي اني لا اجلس مع النيام ولا انام مع الجلوس. على هذه الحالة من الادب كانت بنات ونساء الاغنياء منا قبلاً ولذا ارتقت بينهم العائلات وسعدت منهنَّ الافراد وقويت بهنَّ الامة حتى اذا اراد احد معرفة الامة وحياتها وسبقها في ميدان الحضارة والتمدن فعليه بالاستعلام عن درجة نسائها في العلوم

وانا لو بحثنا الآن عن مدارس البنات بيننا لما وجدنا سوى المدارس المختصة بتعليم بنات المسيحيين والتي فيها التعليم موكول الى نساء من الاجانب

(١) قول لحضرة مدام صروف انظر المقتطف سنة ١٤

لا يدركنَ كنه حاجة البنات المسلمات وما يلزم لهنّ من المبادي [1] اذ البنت المسلمة ولو كانت في سن السادسة او السابعة ليست على استعداد يوازي استعداد ما للبنت المسيحية منذ الصغر من التهذيب وطاعة المهذبين واحترام المعلمات وتتميم الواجبات . اذ مما سبقنا فيهِ نساء المسيحيين هو تعليم بناتهم احترام الحق احترام التهذيب منذ زمن الطفولية بخلاف بناتنا اللواتي يتربينَ على ضد ما ذكر تماماً . تأمل طبقة بنات الاغنياء تجد فيهنّ اموراً مدهشة كلها ناطقة بلسان فصيح على بعد ما بيننا وبينهم والسبب في ذلك جهل الام وسقم فهم المربيات .

نعم نرى بناتنا وهنّ ذاهبات الى مدارسهنّ صباحاً بلباس ابيض ناصع حتى لتخالهُ منظر ابرار وهيئة ملائكة طهر وترى زرافاتهم كطيور الجنة . ولكن عقولهنّ وآدابهنّ التي نشأنَ عليها احط قدراً واخس هيئة وتقصيرهنّ امام الطوائف الاخرى منذر لنا بسوء الطالع وعظم المصيبة . تأمل عظم البعد في الادب بين بنت منا وبنت من طائفة أُخرى ترَ بوناً شاسعاً وفرقاً بعيداً . وياحبذا تعليمهنّ لو تم على ما نود ونرغب . لكننا نراهنّ لا يتعلمنَ في مدارس الاجانب سوى فن البيانو واللغات الاجنبيةّ من فرنساويةّ او انجليزيةّ . اما لغتهنّ العربيةّ فلا يصلنَ اليها ولا يتلقينها في هاتيك المدارس . ولو شئنا معرفة مستقبلهنّ لحار منا العقل واندهل . كيف والحاضر عنوان المستقبل وهو موءذن بالجهل التام في العلم والدين واطاعة الاقارب واحترام الزوج على حسب ما تقتضيهِ الشريعة المحمديةّ . فهل يرضى بذلك المسلمون وهل لا يزالون يقولونْ "سود المحاجر لا يقرأنَ بالسور" او وُهم الاغنياء منا حتى انهم لا يدركون معنى تعليم البنت ولا يفقهون ما يلزم لها وينبغي

(١) يلزم لهنّ علم حقيقة الاحوال المشتركة بين الانسان وزوجتهِ وولدهِ واهلهِ وخدمه ووجه الصواب فيها

ان تكون عليهِ حتَّى تكون بناتهم غنيَّات بعقولهنَّ وتربيتهنَّ يجمعنَ الى وافر الثروة جودة العقل وطهارة الدين

اولاد الاغنياء واللغة العربية

يكفي التعريف عن شرف اللغة العربية انها لغة الدين والقرآن والحديث الشريف ولذا كان قديما لاغنيائنا ولع كبير بالاعتناء بها وتحصيلها . وقلَّ من كان ليس لهُ المام بها ومعرفة بفروعها اذ كانوا يتنافسون بجمع كتبها سواءٌ كانت خطية او مطبوعة وكنت اذا نزلت عند احدهم ترى عنده مكتبة كبيرة جامعة الكتب العلمية والتاريخية والادبية التي بعضها مما يندر وجوده الآن . اما في وقتنا الحاضر فقد ضاع كل ذلك الا من عدد قليل يعد على الاصابع . شأن كل نافع كان لنا وفقدناهُ باهمالنا . فقد اصبحنا نرى الآن تطرق الخلل في التكلم والتعبير بالعربيَّة ويغنيك شاهدًا الآن عندما تتكلم مع احدهم بالعربية الفصحى . فانك تراهُ لا يدرك معنى اللغة فضلاً عن دس كلمة او كلمتين من لغة الغير بين كل جملة وأخرى إما بالفرنساويَّة او بالانجليزية حتى ان اللغة العامية المصرية نفسها قد حرفوها عن مواضعها وتنازلوا فيها الى من اختلط معهم من الاجانب غير المتعلمين مثل قولهم (امسكتوا من واحد دكان) بدل سترت من دكان وهكذا قد انسلخنا عن كل شيء حتى لم يبق لنا ما يمكن ان ينسب الينا او ينسب لنا مما يعدهُ الناس شيئًا . ومنهم من اذا تكلمت معهُ يقصر تعبيرهُ عن فكره فيقول معنى ذلك باللغة الافرنجية مثل قولهم لا تؤاخذني فاني اليوم تأخرت عنك لانهُ كان بيني وبين آخر (رندفو) او متشكر (مرسي) او لا مؤاخذة (بردون) وان نبهت احدهم الى ذلك عذر وهز

بكتفيهِ مستهزئًا وهو يقول لا ادري اللفظة التي بها أُؤدي المعنى الذي اريدهُ بالعربيَّة كانهُ ليس من ابنائها. ومن الغريب ان الاجانب عن اللغة قد تعلموها واصبحوا وهم يكلمونك ويكاتبونك بها . اما ابناء العرب الاغنياء فقد هجروها ولم يتعلموها ولذا هم يستعينون في التعبير عن اغراضهم بلغة الغير [1] نعم ان الذي جرَّ الى ذلك ملكة اللسان الافرنكي منهم اذ لا يخفى ما لملكات اللغة في اللسان من التأثير العظيم وجلب الخلل على لغة الاصل ولكن لو كان لهؤلاء اعتناءٌ بتعلم لغتهم ما فسدت اللغة معهم او لو كثرت مطالعتهم لكتب الاجادة في اللغة بدلاً عن كتب الهزء والسخرية لارتقت معهم . اما وهم على ما تعلم لا يقرأون الأ كتب الهذيان والسفه وجرائد اللغة الدارجة [2] فلا عذر لمعترض عليهم . تأمل ما اصبحوا عليهِ تراهم يقصون عليك ذكر ما كتب في السفه والاقتراء والغزل والشجن . فضلاً عن كثرة مخالطتهم للغريب في المهارشة والمداعبة التي افسدت عليهم صيتهم وسمعتهم كما ضيعت عليهم لغتهم عدا عن ضياع الثقة منهم في الكتب والجرائد النافعة . ومن الاسف ان اكثر من يحرر هذه الوريقات السافلة المسببة لضياع لغة الدين لغة القرآن والحديث الشريف هم من المسلمين . او لا يعلمون انهم يهدمون في قبة مجدهم بمعاول من السنتهم وأيديهم . واكثر القراء في هذه الجرائد هم من المسلمين واولادهم وهي تصدر في احيائهم وتباع في الاكثر بين ظهرانيهم ويأتي بها الاب

(١) حدثني صديق ان ابن احد الاغنياء استعار كتاب "تحرير المرأة" من آخر ولما قرأهُ ولم يدرك لهُ معنى قال لا شك ان قاسم بك امين مؤلف هذا الكتاب قصدهُ سيءٌ وغرضهُ التضليل بلغتنا والدليل اني كنت اقرأ كتابهُ ولم افهم لهُ معنى

(٢) ظهر من تقرير البوستة سنة ١٩٠٠ ان من هذه الجرائد ١٧ جريدة كلها تنشر باللغة الدارجة ولو لم تكن غير جريدة تطبع كل اسبوع ما يقرب من الاربعة آلاف نسخة لكفى

ويستدعي لديهِ الابن ويرجوهُ ان يقرأها على مسامعهِ حتى اذا تمَّ الابن قراءتهُ يمدحها للابن قائلاً "لله در منشئها فانهُ يقول الصدق والحق في قالب تفهمهُ الخاصة والعامة" ولا يبعد عليهِ القسم لو اراد تفضيلها . اما الجرائد العربيَّة الفصيحة فلا يقرأونها الاَّ اذا كان لهم فيها امر يهم من اعلان او مسألة خصوصيَّة . وقد سرى تغلب الافرنج بين اولاد الاغنياء في الاحكام والمتاجرة والصنائع والحرف حتى ان شدة اختلاطهم بهم افسدت عليهم لغتهم وكادت تذهبها من بينهم قطعياً

فاذا كنا لا نزرع في قلوب ابنائنا في صغرهم محبة الوطن واللغة ولا نرضعهم لبان الشهامة وحب التقدم فمن اين لنا ان نسابق الفرنجة في اعمالهم او نضارعهم في صنائعهم او نجاريهم في مخترعاتهم ونكون قدوةً لغيرنا كل هذا يجب على الاباء الانتباه اليهِ والعمل به . والاَّ اصبحنا يوماً ما ونحن بلا دين ولا لغة وهذه شر الميتات الادبيَّة فلنتناصر اذاً على منع كل ما من شأنه جر الويل والضرر علينا وعلى اوطاننا قبل ان تتمكن يد الضلالة منا فنندم حين لا ينفع الندم ويصبح المقتدي بنا أطف منا في فقد اللغة مكيالاً . وأخف في حفظ كيانها مثقالاً والله على كل شيء رقيب

دين اولاد الاغنياء

انهُ وان كان يظهر أثر الدين جيداً على وجوه اهل البادية او المتدينين المتقشفين من الحضر المتجافين من الملاذ وفي معاملاتهم غنيهم وفقيرهم بالنسبة لتمسكهم بالدين وجريهم على سننه واوامرهِ الاَّ انهُ يكون اكثر واجمل ظهوراً لو وجد في اهل المدن وخصوصاً الاغنياء منهم الذين هم في رغدٍ من العيش وبسطة

من الرزق . لانهُ بظهورهِ على وجوههم تكون مملوءة بالبشر وفي احوالهم تكون انفسهم بحالة انبساط وارتياح . ومن هاتين الحالتين المصاحبتين يكتسي المرء ذلك الاثر ثوب كمال وجلال هو عز الدين ولطفهُ وكمالهُ واقتدارهُ فللهِ اولئك الاغنياء الذين يظهرون بهذه الصورة ولكن اين هم

انى لأُلفِتُ عيني حين افتحها على كثيرٍ ولكن لا ارى احدا

نعم لا نرى غنياً وعليهِ اثر من هذا الاثر فان الاغنياء بعد ان نطرح من جملتهم اولئك الذين لا يبالون بدنيا او آخرة بحياة طيبة مستقيمة او رديئة وخيمة فان الباقين منهم دينهم المال يأتمرون باوامرهِ وينتهون بنواهيهِ . واني وان كنت التمس لهم عذرًا وذلك من وجه ان المدنيَّة الحاضرة الملقاة بذورها بينهم تنبت مثل هذه العواطف الاَّ اني ارجع عليهم باشد اللوم من جهة قبولهم منها ما يجرح الدين في جوهريات قواعدهِ مثل اكلهم المال سحتاً واخذهم الربا وقد نهوا عنهُ واكلهم اموال الناس بالباطل . او كنت ارحمهم لتفشي الجهل بينهم فاني انثني عليهم بالتأنيب لانهم لا يعملون على ازالتهِ بل قد يمهدون لهُ طرق التوطن بينهم بمثل الابتعاد عن مواقف التعاون والتخلف عن مواطن التعليم والتنوير . والبخل في الاتحاد على انشاء المدارس الاهليَّة التي تربي ابناءهم التربية القوميَّة الدينيَّة الصحيحة حتى جرَّ عليهم الجهل بكل هذه الويلات خرابًا في دينهم ومواتًا في قلوبهم واتساعا في ذممهم فاصبحوا والقسَم الكاذب عندهم من ابسط الامور . مع ان حال الاسلام قديمًا ينبئنا انهُ لم يكن ليقدم انسان على حلف يمين وان اقدم جعلهُ تحت شرط عملاً بقول المرشد الاعظم صلى الله عليهِ وسلم — من كان حالفًا فليقل ان شاء الله فانهُ يدفع الحنث ويذهب الخبث وينجز الحاجة — اما الآن فالمشاهد بين اغلب اغنيائنا المسلمين قلة الدين وكثرة الحلف لاقل مناسبة.

وقد يحلفون على الله الكذب وهم يعلمون ولو كانت اليمين الكاذبة أقبح من اليمين الفاجرة . او لو كان مع الكذب الاستهانة باليمين اذا كانت حقة فكيف بالباطلة ولو كانت الاعراض الدنيوية اوخم امرًا وأخس قدرًا من ان يفزع فيها الى يمين الله كل ذلك اصبح مشهورًا عن اغنيائنا الحاضرين واولادهم "الاّ البعض منهم" حتى ان المرء لتأخذهُ هزة عند فكرهِ فيما اذا كان هؤلاء كفارًا او مسلمين . فان الدين يعلمهم بقولهِ — (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) — الآية — ولكن انّى لهم معرفة ذلك وهم غير متعلمين — الدين يعلمهم — ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً — ولكن انّى لهم المعرفة وهم يستنكفون عن المخالطة باهل الدين . لو كان في هؤلاء دين صحيح لرغبوا عن الحمق الممقوت لاقل سبب اذ الدين هو الذي يأمر بمكارم الاخلاق ويعلمهم بقولهِ - (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) - ولكن انّى لهم ذلك وقلَّ منهم من يكون طيب الخلق هادىء الطبع كما اشتهر ذلك عن اجدادهم

لقد كانت عوائد آبائهم واجدادهم التأهيل والاحتفاء بشيخ القرآن المرتب للقراءة في البيت صباحًا وقد كان لهؤلاء قاعات مخصوصة يقرأون فيها جالسين اما الآن فاصبحنا نرى بعضهم "الاّ القليل منهم" يترك الفقهاء يقرأون بجانب غرفة البواب او في غرف الخدم كأن هؤلاء الخدم مسلمين وصاحب الدار ليس بمسلم . اما الحقيقة فهي انهم لا يودون انزعاج خاطرهم على زعمهم بكلام الله تعالى في رقدة الصبح التي هي لديهم بعد طول السهر اشهى شيء في الوجود . ولكن لا تظنن ان نومهم استماع وانصات عملا بالآية — واذا قرئ القرآن فاستمعوا لهُ وانصتوا لعلكم ترحمون — بل هو سهو مستطيل هذه عادتهم يجرون عليها الآن ولم تكن فيهم من قبل وهي تسوءنا ان نذكرها ولكنهُ الحاضر المشاهد فكيف لا نذكرهُ وننشرهُ واذا

استقرينا هذا الحاضر نقيس عليهِ المستقبل المخيف بشرورهِ وكثرة محارمهِ . ولقد افرط الاغنياء واولادهم الآن في شهادة ان لا اله الاّ الله وان محمدًا رسول الله ولا يذكرها احدهم الاّ في وقت الموت او ربما نسيها وغفل عنها في حياتهِ وعند مماتهِ وهي اولى الفرائض الاسلاميّة فهل من مدكر

تهاون الاغنياء واولادهم بالصلاة فلم يؤدُّوها حقها وان ادوها فلا يؤدونها باركانها وضيعها الكبير منهم والصغير "الاّ القليل" وهي المفروضة على المؤمنين كتابًا موقوتًا وثانية الاركان المبني عليها الاسلام

تهاون الاغنياء واولادهم في اداء الزكاة الى الفقراء والمساكين وتناسوا الآية والاصناف الثمانية المذكورة فيها — انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل — وعملوا بضد قولهِ تعالى — خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها - واصبحوا وهم ممن نص عنهم الكتاب الشريف بقولهِ — والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذابٍ اليم — وتركوا الصوم وجاهروا بالفطر في شهرهِ واطاعوا انفسهم وافرطوا في الوقوع في نواهيهِ حتى اصبحنا نرى بعضهم يحث البعض الآخر بقولهِ " ان هذا الصوم ليس من شروط التمدن الحاضر ولا نفع منهُ" وفاتهم معرفة الصوم وفوائدهِ للدين والصحة

تركوا الحج للبيت الحرام واتبعوا الحج كل سنة لبلاد هي مرتع الفساد تركوهُ ولم يفكروا فيهِ ظنًّا منهم انهُ لا يليق بهم اداؤهُ ما داموا لا يفقهون لهُ معنىً ولا مبنىً هذا ما نبذهُ الاغنياء واولادهم ظهريًّا من اساسات الدين الخمسة . ثم لا يخفى عليك ما كان عليه اباؤهم واجدادهم من اتباع الكتاب والسنة والاحسان الى الفقراء والمساكين خصوصًا في ايام العيدين وباقي المواسم . تركوا كل ذلك

حتى فيما بينهم ولا يأتون بشيء من هذا لا خلقاً ولا تخلقاً لا رياء ولا سمعة . لا رهبة ولا رغبة واصبحوا في ركوب متن الشرور سواء . حتى اصبح العاقل وهو يخاف عليهم ان يصيبهم ما اشار اليهِ الرسول صلى الله عليهِ وسلم في حديث لهُ "لا يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا" أبعد ذلك اعراض منهم وانكار وانت لو سألت احدهم عن الاسلام اعرض ونأى بجانبهِ وربما انكر الاسلام علانية فتأمل وقل سبحانك اللهمَّ تضل من تشاء وتهدي من تشاء

المحبة الاخوية

"سنشد عضدك باخيك" قرآن شريف

تتولد المحبة الاخويَّة بين الاخوة لما بينهم من صلة الرحم وامتزاج الدم ولحمة القرابة ولانهم يربون في بيت واحد ويدرجون تحت ظل اب واحد يرون منهُ انعطافا عليهم وحنانا فتأتلف قلوبهم بالطبع على تبادل الحب وتنزرع في قلوبهم المحبة الاخويَّة . فاذا كان الابوان متهذبين يعلمان كيف تربي الاولاد نمت دون ريب بذور المحبة بينهم واينع غرس التربية الحسنة في قلوبهم ومن شبَّ على شيء شاب عليه . كما يقولون في الامثال . والغلام يربو على اخلاق مرشدهِ بلا خلاف . حتى اذا شبَّ ثبتت فيه تلك الاخلاق ولم يستطع تغييرها العمر او نكبات الزمان مهما تكاثرت ونوالت . واذا اتفقت اهواؤُهم على عمل ما كان من ورائه النفع لهم واستحكمت تلك المحبة بينهم فاثمرت منهمْ الاعمال الجليلة واشتهرت عنهم الامور العظام . واذا اختلفت منهم المشارب والآراء كان منهُ تعرقل المساعي واستحكام الشقاق وخراب تلك الهيئة التي تتألف من جملتها الانتظام الاجتماعي . فاذا عرفنا

عنها ما ذكر وبحثنا عن وجودها بين اخوة اغنيائنا فلا ريب اننا لا نجدها بينهم بل نجد بدلها النفور سائداً والخصام مستحكماً والقطيعة والتدابر وقلة الانصاف ذلك لما رُبوا عليهِ كما مرَّ بك في فصل تربية الاولاد حتى صحَّ فيهم قول القائل

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة   بين الرجال ولو كانوا ذوي رحمِ

والاَّ لو كانت المحبة موجودة لتهادوا وتحابوا بدلاً من ذلك النفور والجفاء المشاهد بينهم الآن اذ التهادي والتحابب يضاعفان الود . ويذهبان بغوائل الصد وعوامل الحقد ويمحقان البغض من القلوب . ثم ان الذنب في عدم وجودها بين اولاد الاغنياء راجع الى الآباء والامهات اذ هم ايضاً لا يعرفونها ولم يتلقوها منذ صغرهم بل كل منهم تراهُ يريد استبدال طبعه وخلقهِ والتطبع بضدهِ لغاية دفينة في النفس الامارة بالسوء الاَّ من رحم ربي . حتى انهُ ليتعسر على الناقد البصير التمييز بين اخلاق وطباع الاغنياء . ما داموا يأنفون العودة الى اخلاق اهليهم وعوائدهم الاصلية . لما استحكم فيهم من بواعث الكذب والغش فتراهم جريئين على النفاق والمكر والخديعة كأَن طيب نسبهم وذكاء منبتهم لم يغنينا عنهم شيئاً وقد مرَّ بنا في باب المعيشة الزوجية انهم قائمون على الشقاق والانفصال عن زوجاتهم واستباحة كل محرم كأَن لم يكن الدين شيئاً مذكوراً وكأَن الآداب لم تكن الاَّ لتزيدهم جرأة على اتيان الموبقات وارتكاب المحظورات المنهى عنها في كل شرع وعرف فلذلك اذا ولد لهم اولاد لم يقوّموا منهم عوج الاخلاق دائبين وراء تهذيبهم بل تراهم احوج اليهِ من اولادهم . وعلة ذلك الشقاق والانقسام وفقدان المحبة الكافلة بقوامهم وتقدمهم طمعاً في ميراث زهيد او ربح تافهٍ او أثرة لا معنى لها وكل ذلك لا يزيدهم ان حازوا عليه ولا ينقصهم اذا لم يستحصلوا عليهِ والسبب في كل هذه الامور المجلبة للنكد في المعيشة والباعثة على

ما لا يحمد بين امثال هؤلاء الافراد هو عدم المحبة وتبادل المنافع بلا طمع ولا زيادة ولذلك كان الانقسام بين اولادهم طبيعياً فينشأون ولسان الاخ يقول لاخيهِ هذا فراق بيني وبينك . والدلائل للقارئ كثيرة يكفيهِ النظرة في اخوة احد الاغنياء او ذلك البرنس المسجون وما فعلهُ معهُ اخوهُ واختهُ في اول محنتهِ التي حكم عليه بها لجهلهِ وطيشه فان الاثنين تزوجا اول شهر قضاهُ اخوهم في السجن معذباً . كأن اواصر القرابة والمحبة الاخوية قد افقدها مصاب ذلك الاخ الذي سجن ضحية جهلهِ وهو لو ربي على ما يخلق بامثالهِ من الامراء لكانت التربية حرزا حريزاً لهُ عن اتيانه مثل ذلك الذنب واحتمال ذلك الجزاء

والخلاصة انا لو دققنا البحث ما وجدنا اثراً للمحبة بين الاخوة الاغنياء وليس ثمت شيءٌ يمكن التعبير عنهُ بالمحبة الاخوية بينهم فليتدبر المنصفون

عوائد اولاد الاغنياء المستحدثة

لقد تطرقت الى عوائد الاغنياء ما وخصوصا الشبان منهم عوائد قبيحة جلها او كلها مأخوذ عن عادات الاوربيين غير المستحسنة والتي لم يكن الاسلام يسمح بها بمبادئه القويمة . اما الآن ولا زاجر للنفوس من دين ولا ادب فترى عادات "المساخر" في اعياد المرافع الافرنج قد انتشرت بين الشبان الاغنياء منا . ويا ليتهم جاروهم في اعمالهم النافعة بدلا من هذه الامور التافهة

واليك ما شهدتهُ في اعياد المرافع الماضية بينما كنت ذات ليلة من ايام المرافع جالساً مع صديق لي في احدى المنتديات العمومية واذا بثلاثة اشخاص احدهما في زيّ امرأة والآخر في زي خادم هرم والثالث في زي الرجال ولكن

صورة وجههِ بدلاً من ان تكون صورة آدمي هي صورة كلب يعرف عند الافرنج — بول دوج — هجمت عليَّ الاولى فضربتني بكرباج بيدها والثاني اخذ كأس الماء من امامي ورش ماءَها عليَّ والثالث ضحك واستغرق في ضحكهِ كثيراً على ما حصل . فظننتهم سكارى نخففت ما بي من الغيظ وكتمت ما لحقني من الأذى ظناً مني انهم ربما يكونوا من الاروام والارروام السافلون منهم مشهورون بكل قبيح ونقيصة فما عتم ان ناداني احدهم باسمي وبين لي محل خدامتي فعرفت انهم يعرفونني وانهم ربما كانوا من مستخدمي مصلحتي الافرنج . ثم بعد قليل دخلوا المنتدى ونادوا صاحبهُ وامروهُ بان يحضرني اليهم لخضرت قاصداً الوقوف على حقيقتهم فاذا احدهم نجل افاضل .... والثاني نجل لآخر من الذوات . اما الثالث فهو رجل صاحب جريدة عربيَّة اسلاميَّة تظهر شهراً وتموت دهراً وعادتهُ يتزيى بزي الطيلسان والعمامة ولكن شهدت فعالهُ بفقدان كمالهِ وعدم استقامة حالهِ

تلك بدعة غير بديعة او عادة مستحدثة ظهرت في الاسلام بفضل اولاد الاغنياء وقد رأيتها مرأى العين من هؤلاء فاذا لم يتدارك امرها شملت الامة باسرها واذا سرت ومرت عليها السنون فمن يدري حينئذٍ انها ليست من عوائد الاسلام واخلاقهِ وقد بلغني ان بعضهم سأل الشيخ الذي تزيى مع هؤلاء في اليوم الثاني من عملهِ هذا . فقال ان هذا العمل غير مكروه في الاسلام وكان يعملهُ عمر ابن الخطاب عند تجسسهِ لحالات المسلمين في خلافته . فيا للعار والفضيحة ويا للافتراء والبهتان علينا من انفسنا . فتأمل حاضرنا وانظر كيف يكون المستقبل

ومن عوائدهم القبيحة المستحدثة ايضاً انهُ اذا ولد لاحدهم مولود سموهُ باسماء الافرنج او باسماء أُخرى لا تفهم الاَّ بعد التفكر الكثير فقد وقفت على ان بعضهم ولد لهُ ولد يوم فتح ام درمان فدعاهُ "كتشنر احمد" كما اني اعرف غنياً آخر

متفرنجاً للغاية ولدت له ابنة فسماها " فكتوريا محمد " بدلاً من اسم فاطمة او عائشة او خديجة . وعلمت ان آخر ولد له ولدان سمي احدهما " رداميس " والثاني " رمسيس " وبالاجمال قد خالفوا قول الرسول صلى الله عليهِ وسلم — ان من حق الولد على الوالد ان يحسن اسمهُ وادبهُ — تلك امور تربك الفكر وتوجب الحيرة والدهشة . تلك دلالة صريحة على عظم تمسكهم باصطلاحات الافرنج كأن الاسماء المألوفة من عرفهم والمعروفة فيما بينهم ليست أهلاً ولا تليق بان يسموا بها اولادهم او بناتهم لئلاَّ يتشبهوا بالفلاحين الفقراء فيالله من سقوط الامة في التأخر بعد تلك المحافظة على العوائد والتقاليد والتمسك بالمبادىء الملية التي اكسبت الاسلام العظمة والصولة . ومن عوائدهم المستحدثة ايضا — ضرب الارض او الناس من العامة او خدامهم بالرجل حال الغضب وهذه العادة لم تكن تعرف عنهم قبلا بل كانت معروفة عن بهائمهم فاخذوها عنها لولعهم الآن بها بدلا من اخذهم عن اديب مرشد او نصوح عاقل

يحكى ان ابا حنيفة مرَّ ببعض الطرقات فاصاب بقدمه صبيا فقال يا ابا حنيفة اما تخشى القصاص يوم القيامة فوقع مغشياً عليه وقال رضي الله عنهُ يؤدي الظلم الى سوء الخاتمة . والعياذ بالله ان يصيبهم ما قالهُ ابو حنيفة

ومن العادات التي احضروها معهم من اوربا ويستعملونها الآن هي انهم ان تلاقوا السلام على بعض سلموا برفع الكوع حتى يتساوى برأس المسلم عليه وسبب هذه التحية (١) ان اميرة وباس الحالية " من بلاد الانكليز " اصيبت منذ بضع سنوات بدمل في ابطها الايمن فلم تستطع ضم ذراعها الى جنبها ولهذا التزمت ان ترفع يدها في السلام كي لا تحتك الذراع بالابط . هذا هو السبب في السلام

(١) انظر مقتطف شهر اكتوبر سنه ١٨٩٩

برفع الكوع ولا ندري كيف نطلب العذر لشباننا الاغنياء في مثل ذلك التقليد الاعمى . ولكن نقول ان هذه التقاليد هي ناشئة عن تقليد الغير البعيد عنا ديناً وعادة والاَّ متى كان شباننا مصابين بدمامل تحت آباطهم حتى انهم صاروا يقلدون النساء بدل الرجال ولا عجب بعد ذلك لو صدقت علينا جملة الفيلسوف العربي الحكيم . من ان المغلوب يتتبع الغالب في زيهِ ولباسهِ وعوائدهِ واخلاقهِ لاعتقادهِ في نفس الغالب تمام الكمال الذي لولاهُ لما غلبهُ واستولى عليهِ

اوهام الاغنياء

للاغنياء اوهام وسخافة فكر لا يقدر القلم على وصف بعضها . ومنشأ كل ذلك قلة المامهم بالعلم وجهلهم للحقائق . حتى انهم اذا اختلج حاجبا احدهم واشتكى ذلك لاحد اصحابهِ يقول لهُ ان اختلاج الحاجبين يدل على اصابة خير كثير على رأي بعضهم وعلى شرف عال عند البعض الآخر فيصادف هذا الكلام اذناً صاغية وشكرًا يذكر . وفات هؤلاء ان اختلاج الاعضاء بحركة الجسم يتأتى من تغير الدم . وبعضهم يتوهم شرًّا لو رأى جنازة في طريقه او رأى شخصاً احولَ في صباحهِ ويتحاشى البعض منهم السفر في بعض الايام زعماً منهم انهُ مكروه فيها . كما انهم لا يأكلون السمك واللبن او لا يأكلون الالبان في يوم الاربعاء قط ولو اعترض عليهم معترض لقالوا ان آباءنا بهذا يأمرون

بل رأيناهم يتطيرون لاقل حادث من مثل هذا حتى ولو نحلت أكفهم فانهم يتعشمون انهم في يومهم سيقبضون . والفضل في تلقيح الابناء هذا التشاؤم والتفاؤل راجع للآباء فان من الاغنياء في هذا القطر قسماً كبيرًا يقضون جل

العمر وراء تحويل النحاس الى ذهب . ولهم ولع كبير في البحث عن كتب الكيميا وغيرها لأمل كاذب في نفوسهم على نيل ما ربهم حتى ان بعضهم ليضيع ماله وعمره ولكن لا يضيع امله في صحة معتقده في تحويل النحاس الى الذهب والسبب في ذلك غشاوة الجهل والغرور المنتشرة على ابصارهم و بصيرتهم ولو انقلب فكرهم هذا الى عمل نافع مثل تحويل الجهالة المظلمة من بين الامة الى النور والعلم لم نصل الى ما نحن عليهِ من التأخر عن الطوائف الاخرى في التعليم . والظاهر ان هذا الداءِ متأصل في الاغنياء ولا يزال باقيًا ما زالت الجهالة والغشاوة على اعينهم لا تمكنهم من رؤية النافع لهم

وهذه الصناعة اي صناعة تحويل النحاس الى ذهب جاءت للمصريين واغنيائهم من المغاربة الذين وفدوا و يفدون في كل وقت لبث خزعبلاتهم بين المصريين وسلب اموالهم وابتزاز ثروتهم

ويكفيك ايها القارئ ان تتأمل قليلاً فترى من اغنيائنا قومًا احنى عليهم الدهر بكلكلهِ فاصبحوا فقراء بعد ان كانوا سراة اغنياء والمغربي الدجال يأتي مصر فيدخل دار المسلم المتمول زائرًا وبعد مدة قليلة يقص على مسامع من في بيته ما اتاهُ زيد وعمرو اللذان بفضل صناعته قد اصبحا من اعظم الموسرين ثم يريه مقادير طائلة من المال فيغتر صاحب المال ويندهش ويتمنى ان يعطى لهُ ما اعطي لغيرهِ . ثم يتفقون على الشروط اللازمة ويبتدئ المغربي في اتمام الحيلة الى ان تتبدَّد اموال الغني الذي كد في جمعها وجدَّ او ورثها من ابائه واجدادهِ

وممن افقرهم هذا العمل جماعة كثيرة يعلمهم المطلعون ويدركهم الاذكياء .

وهذا العمل اغتاب «» بعمله المتقدمون سنًا

ولكن الشبان منهم الآن قد رزئوا باشتغال البورصة التي من فعلها تحويل الغني

والسعادة مرة واحدة وفي اقرب وقت الى فقر مدقع واحتياج عظيم – ولا غرو فالاول شغل المغاربة والثاني شغل ابناء الغرب وبين هذا وذاك اتصال وتقارب — واسبابهُ ايضاً الوهم المتسلط على افكارهم من ان نصيحة السمسار تغنيهم في نهار واحد. حتى خربت اخيراً بيوت عظيمة سيأتي معنا بعض الاشارة اليها في باب (التبذير)

اما النساء فامورهنَّ في الوهم مضحكة مبكية دالة دلالة صريحة على انهنَّ دون الحيوانات فهماً وادراكاً . فلا تزال الكثيرات منهنَّ يعتقدنَ في المرض المعروف عند الاطباء بمرض الاعصاب وعند العوام بالارياح المتسببة من مس الشياطين وان لا دواء لهُ غير (تبييت) الاثر وعمل الزار الذي عمَّ ضررهُ وانتشرت مفاسدهُ حتى ولو لحقتهنَّ التخمة من الراحة لظننَّ انهُ من تحرك يد الشيطان في اجسامهنَّ واين لهنَّ المعرفة بان ذلك ناتج من سوء الهضم وتلبك المعدة من كثرة الطعام

يضيعنَ حاجاتهنَّ في منازلهنَّ لعدم الترتيب ثم يتهمنَ الخدم ويسألنَ فلا يهتدينَ لمعرفة ما فقدنهُ فيذهبنَ الى دكاكين المدعين معرفة الغيب وعواقب الامور فيعرضنَ حالتهنَّ وينقدنهم كميَّةً من المال فيكشفهُ الخادع المنافق كذباً بخطٍ على الرمل ويسمونهُ المنجم وطرقٍ بالحصى ويسمونهُ الحاسب ونظر في المياه ويسمونهُ المندل ويا للاسف ان هذه المنكرات فاشية اكثر ما تكون في الامصار والقرى بمعرفة المسلمين والمروّج لها بالاكثر هم المسلمون فيا سبحان الله اين من يعلمهم ما تقررهُ الشريعة من ذم ذلك وان البشر محجبون عن الغيب الاَّ من اطلعهُ الله على شيء من عندهِ

واليك شيئاً حصل لي عند ما كنت دون سن الحلم في مكتب لوالدة جنتمكان المرحوم محمد علي باشا الصغير . دعاني يوماً استاذ القرآن ودعا آخرين من امثالي سنًّا حتى بلغنا العشرة عدًّا فاخذنا ذاهباً بنا الى قنطرة الدكة [1] ولما دخلنا

(١) حارة في قسم الازبكية بمصر

باب السراي واستأذنوا لنا في الدخول جميعاً فدخلنا بهواً ذا نمارق مصفوفة واستار حريرية مدلات دونهُ قول بن عباد

وبهو تباهى الارض منهُ سماءها   باوسع منهـا آخراً واوائلا

وبعد ان جلسنا جيء بشيخ يبلغ سنهُ سبعين سنةً فاحضر اليهِ مجمرةً بها فحم متقد وسلة بها بخور من جميع الاصناف . ولما جلس قرأ فاتحة الكتاب كما قرأها الحضور من نساء وجوار واخذ يضع البخور على النار فشممنا رائحة مقبضة للنفس مديمعة للعين . وجيء بواحد منا بعد واحد وبعد ان يعصب لهُ جبهتهُ بمنديل ابيض يأمرهُ الشيخ بالنظر الى طبق بهِ نقطة من حبر واخرى من زيت ولا يزال يتقدم واحد منا بعد آخر حتى جاء دوري فتقدَّمتُ ولما نظرت قليلاً أُغمي عليَّ وأُغشي على بصري ودهشت كثيراً فكنت ارى نفسي كأن هو في حلم او كمن هو ممتلئ من بنت الحان . فكنت اهذي بكلامٍ لا افقههُ واقول عن شيء نظرتهُ والحال اني ما نظرتهُ . ولما انتهى ما يريدون كوفئت من دولة البرنسيس بقليل من المال وخرجنا بعد ان اطمأنَّ بال الجميع على مريضهم " رحمهُ الله "

ومكثت بعدها اربعة ايامٍ لا اتحقق شيئاً بنظري تماماً

هذه حكاية جرت معي من فضل مروّجي المنكر والاوهام المدَّعين معرفة الغيب ومعرفة الاسرار . ولا يعلم غيب ربك الاَّ هو . أليس بعد ذلك نقول

الفال والزجر والكهَّان كلهمُ   مضللونَ ودون الغيب اقفالُ

ولكن لا يدري هؤلاء ذلك وقد تكذب الواحدة على الاخرى وقد تحلف اغلظ الايمان واوثق الاقسام ان كل ذلك مفيد وقد وجدت بفضلهِ ما افتقدتهُ وعثرت على ما ضيعتهُ او شفي ما كان بها من المرض . وكل ذلك تغرير وإفساد لغيرها حتى تقع فيما وقعت فيهِ . وهؤلاء مروجو الاوهام والسخافة كثيرون منتشرون في

الطرق والدكاكين . واكثر ما يوجدون في الدرب الاحمر وشارع الساحل بقرب الدائرة السنيَّة وفي جهة باب الشعريَّة والجماليَّة وبولاق . اي انهم منتشرون في كل ناحية اكثر من انتشار المدارس التي تحيي الحق وتبطل الوهم وتربي عقل الانسان . وكل هؤلاء قد نسوا قول الرسول الكريم "لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء" أفبعد ذلك عبرة واستدلال باننا على غير ما كنا عليهِ والله يزيد في الخلق ما يشاء وهو اله السموات والارض

كرم الاغنياء الماضي وبخلهم الحاضر

يجدر بنا قبل ذكر بخل اغنيائنا ان نذكر طرفاً مما كان عليهِ السلف منهم حتى نقيس عليهِ الحاضر ونتأملهُ فنقول

ان من راجع كرم السالفين من اغنيائنا يقف حائرًا مبهوتاً من جراء كرمهم للاعمال الخيريَّة فقد جاء في كتب الاخبار والسير عن كرمهم شيءٌ كثير مثل انشاء المستشفيات والملاجيء الخيريَّة وبناء الاسبلة وتعمير دور العجزة والعميان والمستضعفين من بني الانسان . ولم يقتصر الحال فقط على ما ذكر بل قد وصل كرمهم الى الحيوانات العجم ايضاً ولكي يطلع القارئ على بعض هذا الكرم ويعلم بهِ حقيقة العلم نأتي هنا على ذكر خلاصة بعضهِ

جاء في خطط المرحوم علي باشا مبارك ان اول خانقاه (تكيَّة) بديار مصر أُنشئت في زمن صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة ٦٥٩ هجريَّة برسم الفقراء الواردين من البلاد الشاسعة

ولما انقضت دولة الايوبيين حذا حذوهم السلاطين الجراكسة وبعض الامراء .

واول من بنى المارستان في مصر احمد بن طولون وكان رحمهُ الله يركب بنفسهِ كل يوم جمعة ويتفقد خزائن المارستان وما فيها من الاطباء . وينظر الى المرضى وسائر ارباب العاهات والمحبوسين من المجانين

ولما كانت الدولة الاخشيدية في مصر بنى كافور الاخشيدي مارستاناً . ولما استولى الفاطميون بنوا في القاهرة مارستاناً ايضاً

وفي زمن صلاح الدين يوسف بن ايوب امر بفتح مارستان للمرضى والضعفاء واستخدم لهُ اطباء وجراحين وعمالاً وخداما وامر بفتح المارستان القديم

وفي زمن السلاطين الجراكسة بنى المارستان المنصوري واوقف عليهِ من الاملاك في مصر وغيرها ما يقارب ريعهُ في كل سنة الف الف درهم . وهذا القدر يعادل الآن اربعة وعشرين الف بنتو ذهباً . وجعلهُ وقفاً على كافة طبقات الناس ورتب فيهِ العقاقير والاطباء وقرر لهم ما يلزم من الفرش ونصب الاسرة وافرد لكل طائفة من المرضى موضعاً فجعل مواضع للمرضى بالحميات ونحوها . وافرد قاعة للرمد . وقاعة للجرحى . وقاعة لمن بهِ اسهال . واخرى للمبرودين . وافرد للنساء قسما مخصوصا . وجعل الماء يجري في جميع هذه الاماكن وافرد مكانا لطبخ الاطعمة والادوية والاشربة وغير ذلك

الاَّ انهُ في زمن الفرنسويين تخرب المارستان المنصوري وتغيرت معالمهُ . وكان الموجود بهِ من المرضى ستين مريضًا

وفي خطط الفرنسوية ان عبد الرحمن كتخدا انشأ اسبتالية للنساء وكانت تحت الربع وكان بها حين ذاك ستة وعشرين من المرضى

وكان يطلق عليها اسم تكية " وهي الآن تكية الجلشانية الموجودة للآن والتي يأوي اليها السليم الكسول بدل المريض والمكسور

واما الرباطات فكانت من المحلات الخيرية ايضاً وبعضها كان لاقامة الصوفية وبعضها كان للنساء المنقطعات او المهجورات او المطلقات او العجايز الارامل العابدات وكان لها الجرايات والمقامات المشهورة من مجالس الوعظ . وقد انقطع ذلك كله الآن

واما الاسبلة فقد جاء عنها ايضاً في الخطط انها كانت كثيرة العدد وكان السبيل يتألّف من ثلاث طبقات الاولى تحت الارض وهي الصهريج والثانية في مستوى الارض او فوقهُ بقايل وفيهِ المزملة لتفريق الماء بكيزان من النحاس مربوطة بسلاسل .

والثالثة مكتب لتعليم الاطفال . وكان المنشئون لها يعتنون ببنائها ويوقفون عليها الاوقاف الدارّة بالريع الكثير والاغلب الآن قد اندثر بسبب نسيان فعل الخير وبسبب الاهمال والترك الذي استولى علينا وفقد الاحساس والشعور بالمنفعة العامة التي عليها مدار بقاء هذا النوع الانساني من جهة وحياتهِ وسعادتهِ من جهة أخرى واما دور العميان فكانت كثيرة . ولم يبقَ منها الآن سوى زاوية العميان في الازهر المعمور وقد جاء في تاريخ الجبرتي انها من انشاء المرحوم عثمان كتخدا القازدغلي تابع حسن جاويش القازدغلي والد عبد الرحمن كتخدا القازدغلي صاحب العمائر الكثيرة والانشاءات الخيرية بناها في سنة ١١٤٠ هجرية

ولم يقتصر احسانهم على بني الانسان فقط بل شمل الحيوانات ايضاً . اذ كان لها احواض بالقاهرة (شبه احواض جمعية الرفق بالحيوان) لسقي الدواب وكانت العناية بها شديدة وكان اغلبها بقرب من الاسبلة وهي احواض من الحجر تسقى منها الدواب على اختلاف اجناسها . وكان لها اوقاف يصرف عليها من ريعها (ولكن لم يبقَ منها لنا الآن شيء بل الذي نراهُ في باب الحديد وامام سراي

المحافظة انما اسسهُ جماعة الافرنج بيننا وهو مأخوذ منا كما مر عليك) ذلك فضلاً عن انشاء الحمامات للفقراء والمساكين والتي كان اغلبها موقوف على هذا الغرض غير المقابر والمدافن للفقراء والمساكين المنقطعين . هذا ما كان السلف الصالح من الاغنياء يتنافسون ويتفاخرون بهِ ويتزاحمون عليهِ

اما الآن فقد فشا في الاغنياء منا ضياع عمل الخير والنافع وتمكن منهم عمل السوء والضار واشتهروا ببخلهم في عمل الخير وهذا لم يكن معروفاً في الاسلام قبلهم اذ تراهم يسخون في الاعمال المجلبة للتلف فانهم فيها اكبر كرم واطول ساعد ممدود . كيف لا وقد يبذر الواحد منهم على الملاهي مااستطاع وعلى الملاجيء يحرص ما وصل اليهِ جهدهُ وفي الفجور لهم عمل مشهور . من ذلك ان احدهم كان اغنى انسان يشار اليه بالبنان فلما قربت ايامهُ واشرف على توديع اهلهِ وامواله قام لاحياء ذكرهِ وبدلاً من انشاء مستشفى او ملجا للعجزة والمعوزين شيد نادٍ مشهوراً وظن انهُ بعملهِ هذا قد اتى شريف الاعمال . واحسن للمحتاجين والمحتاجات . وهو لو انشأ مستشفى لداء الكلب لكان فضلهُ اوفى واتم . افلا يعجب القارئ من هذه الامور المشينة وهل لا يستغرب اذا رأى جماعة الايطاليين في مصروهم على ما تعلم من قلتهم اول من انشأ هذا المستشفى يعالجون فيها من مرضانا بهذا الداء العدد العديد .

او لو كان لهؤلاء الاغنياء منا محبة لامتهم وابلادهم لما بخلوا بشيء فيهِ نفع للامة وكان الاحرى بهم عند ما يقلدون الافرنج في ازيائهم وعوائدهم ان يقلدوهم ايضاً في الاعمال الخيرية التي لا يبخل الواحد منهم ببذل النفيس لعملها لكانوا يحيون ذكرهم بالاعمال الخيرية النافعة والقارئ لا بد ان يعلم مآثر ذاك الرجل العظيم (افيروف) الذي لم ينسَ بلادهُ وما لها عليهِ من الحقوق والواجبات فوهبها المبالغ الآتية

جنيه

٢٠ الف لبناء مدرسة زراعيَّة

١٠٠ " لانشاء طراد حربي يسمى باسمهِ

٢٠ " لترقية العلوم والمعارف والصنائع

١٠ " لمدرسة الفنون

٢٠ " للمتحف الاثري ببلادهِ

٣٠ " لاعمال نافعة ببلدتهِ

هذا ما فعلهُ ذلك الرجل لامتهِ افلا يعتبر اغنياؤنا بعملهِ وفيهم من لا يزال تقدر ثروتهُ بمئات الالوف

ام لا يزالون مصرون على استخلاف اولادهم على اموالهم كي يستنزفها النزلاء في البلاد ليحيوا بها موات بلادهم وتخرب بلادنا

او لا يخجل الاغنياء عند ما يذهبون الى ملجإ العجزة بشبرا التي فيهِ كل يوم يرون الموائد ممدودة وعليها الاطعمة الشهيَّة لمن في ذلك الملجإ من العاجزين والفقراء والبائسين من كل الطوائف والملل. او لا يخجل امرؤ منهم لو زار ذلك الملجا ووجد ابن ملته وجنسهِ هو الذي يطعم اكثر من غيرهِ في هذا الملجإ . مع ان منشئهُ من غير ملتهِ. ام لا يدركون نقص مروءتهم لو رأوا نساء قناصل الدول الجنرالية وعقيلات النزلاء واقفات حول اولئك العجزة يخدمنهم بانفسهنَّ ويناولنهم الطعام بايديهنَّ ولا يستنكفنَ

وهذه هي ضروب الصدقة التي كانت تجريها الامة قديماً . وهذه هي الصدقة التي كانت تعطى من امثالهم لفقير عاجز لا سند لهُ ولا قوة عندهُ

نسينا ما كان لنا وتركناهُ فاخذهُ عنَّا الاجانب وفعلوهُ ونسبوهُ اليهم

تلك كانت مروؤتنا التي كنّا نساعد بها الكسيح الاعمى ونتشل بها المقعد في الارض والذي ليس لهُ نصير ولا ناصر. ضيعناها فاخذها غيرنا وعقدوا النيّة على فعل الخير بها

اما اغنياؤنا فينفقون كما قدمنا نفقات طائلة على الملاهي والملذات وانواع الترف ويبخلون اذا فتح باب لمساعدة الفقراء ويجتهدون لجلب الوسائط اللازمة للتباعد عن سماع انين الفقراء . خوفاً من تأثير اذهانهم عند سماعهم كلامهم . حتى تزايدت حالة الفقراء سوءًا على سوء واشتد بهم الضنك ولا ندري اين الضمائر الحرة التي كانت فيهم قبلاً والرحمة التي عليها مدار العمران وهي منشأ الخير والاحسان . ومن علامات المسلمين التصدق على المرضى والبائسين . وما احلى قول الرسول صلى الله عليهِ وسلم عن الصدقة انها "تطفي الخطيئة كما يطفي الماء النار"

لا جدال ان اغنياءنا ينحطون في ادراك الخير كل يوم عن يوم حتى تأخذهم السنة والنوم وشواهد الحال ظاهرة ودلائلهُ واضحة باهرة فقل الله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

الآباء الاغنياء في نظر الابناء

قلنا في فصل تربية الاولاد ان مضار تمييز الرجل بعض اولادهِ عن بعض مفسد لنظام العائلة موقع للعداوة والبغضاء بين الاسرة وبالاخص بين الاخوة . اذ يتولد من هذا التفضيل نفور تستحكم حلقاتهُ ما دام الاخوان في قيد الحياة والسبب في ذلك انهُ لو غضب احدهم على ولدهِ او ابنتهِ واراد ان يتشفى منهما يُفضّل أَحدهما على الآخر وهذه دون ريب جناية من الوالد يأتيها للتشفي والانتقام ولا

يدري عواقبها الوخيمة فتربو نفس المفضّل على حب الخيلاء والكبرياء على اخوته واخوانهِ فيتيهُ في دنيا الغرور والخسران

ثم يتطرق في نفسهِ الميل الى السيئات معرضاً عما سوى ذلك نابذاً اياه ُظهرياً قال احد الفلاسفة " ان فطرة الولد مركبة من متضادات لا تفترعن اثارة معترك بين نفسهِ وجسدهِ وان احدى جهتيهِ لا تزال راجحة تارة ومرجوحة اخرى حتى اذا تغلبت احداها على الاخرى رسخ اما في الصلاح واما في الطلاح وانبتت سائر افعالهِ بعد ذلك على الركن الذي نشأ عليهِ وان غاية التربية ان نستظهر جهة الصلاح حتى يكون لها الغلب على جهة الطلاح "

وذلك القول لا يدرك لهُ الاغنياء منا معنى ولذا تراهم عاملين على ضدهِ في ابعاد اولادهم عن التربية وتفضيل الصلاح على الطلاح . فكان نصيبهم غير ما تقدَّم انهم اصبحوا وهم متأثرون من اولادهم متأففون من سوء سلوكهم شاكون دواماً من عدم احترامهم لشخصهم وهم الكبار حتى انك لترى عدداً منهم ليس بالقليل يميل في حياتهِ وقبل مماتهِ الى ايقاف املاكهِ او تقسيمها امام عينيهِ على الورثة والمستحقين خوفاً من ان اولادهُ يبددون ويبذرون ثروتهم فتخرب بيوتهم العامرة وفقاً لما شاهدوهُ من اولاد اصحابهم الذين توفوا في زمنهم او شفقة منهم لئلا يموتوا والابن يقوم من بعدهم معارضاً لزوجة ابيهِ قائلاً انها ليست بزوجة شرعية كما جرى كثيراً من اولاد الاغنياء الذين ادعوا ذلك ووافقهم البعض من رجال النفاق شاهدين بذلك

والخلاصة انهُ بفقد التربية والتعليم اصبح الوالد الغني يخشى سطوة الولد حتى انهُ يخافهُ اذا وقف امامهُ واراد نصحهُ واستلفات نظرهِ لحالتهِ . ولقد وصلت الحالة مع البعض ان يكتب لابنهِ ما يريد ويجعل الواسطة الخدم في توصيل المكاتيب . وهذا شيءٌ جديد لازمَ اكثرهم وعن قريب يصبح شاملاً للكل وعلتهُ خوف الوالد

شر الولد عند مواجهتهِ فيهان على كبرهِ ويسمع اقوالاً والفاظاً ما سمعها قط في صغرهِ. والاّ لو كان الابناء عارفين فضل الآباء واقفين على نصوص الدين واوامرهِ كقولهِ تعالى (ولا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً) الآية . لكانوا في سعادة حقيقيةٍ وحياة فضلى . عوضاً عن مقابلة الابن اباهُ ولسان حالها يقول — يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين — ومما يثبت هذا القول وهو مما علق بخاطري واثبتهُ النظر في مطالعتي لجريدة مصباح الشرق الاغر في احد اعدادها

مِن ان اولاد الاغنياء والامراء يتمنون الموت لابائهم . حدث ان احدهم استطال عمر ابيه وملَّ الانتظار ليوم الفرج . فاقترض من احد الصيارفة اربعة آلاف جنيهاً ليقوم بسدادها لهُ اضعافاً مضاعفة مما سيرثهُ بعد وفاة ابيهِ . ثم اشترى من هذا المبلغ عربة عالية من آخر طراز وداوم التنزه عليها في شوارع العاصمة وكان يذهب بها ايضا الى الاسكندرية كذلك . ولكن لسوءِ طالعهِ لم يمت ابوهُ وكان المبلغ قد نفد منهُ فاخذ الولد والصيرفي يعللان النفس بقرب الامل وحلول الاجل ليدفن الابن اباهُ ويعاود تبديد ما سيرثهُ منهُ . هذا هو حال الآباء الاغنياء مع الابناء في هذه الايام

اما الامهات فهنَّ مع اولادهنَّ في تعاسة وشقاءٍ هنَّ امام اولادهنَّ ضعيفات الحيل والحيلة تراهنَّ مرذولات محتقرات عرضة للسب واللعن كل يوم حتى انهنَّ كثيراً ما يضربنَ حدثني صديق عن ولد وامهِ قال :

كان الابن مرة في حاجة كبيرةٍ الى المال فذهب الى امهِ وبيدهِ الفرد المسدس يصوبهُ الى فمه مهدداً اياها بقولهِ ان لم تعطني على الفور مبلغ . . . . لأصرف واتنزه به والاّ فانا قاتلتكِ وقاتل نفسي دون ريب

وما ذهب من لدنها الاّ وهو مستحصل على ما طلب . فضلاً عن اخذهِ حلاها

حلية بعد اخرى حتى اصبحت وهي لا تملك شيئاً . اللهمَّ الاَّ صيغة الاستعاذة منهُ والاستنجاد بالله من شرهِ . هذا حال الآباء امام الابناء فليتدبر المؤْمن او يقول

لكَ الحمد اما ما نحب فلا نرى ٭ ونبصر ما لا نشتهي فلك الحمدُ

الاغنياء والموت

كل امرىءٍ مصبح في اهلهِ ٭ والموت ادنى من شراك نعلهِ

قد حدد الله لنا الاعمار كما حدد لنا الارزاق . والدين بيَّن ذلك في كتبهِ اذ مهما طال عمر امرىء فلا بد وان يموت ولو تحصَّن منهُ في امنع المعاقل . والموت لا بدَّ ان يشربهُ كلٌّ منا . فيوماً يقصف هذا الغصن غضاً رطيباً . ويوماً يودي بذلك الكهل وهو في ارذل العمر . سنة الله في خلقهِ ولن تجد لسنة الله تبديلاً . والحزن على الميت فطري في النفس . خصوصاً لموت حديثي السن . فانهُ مرّ المذاق على الاحباب والاصحاب . ولكن الله قد علمنا باسان رسولهِ الصادق الامين ان لكل اجل كتاباً وان الروح لا بد وان تفارق الجسد مهما طال الامد . وامرنا الله في الكتاب ان نعمل صالحاً لناقي في الدار الآخرة مثلهُ ولنعيش مع السعداء والصالحين . والعاقل من عرف ان هذه الكوارث وتلك الحوادث لا ريب في انها من قضائه جل وعلا والاولى بمن يصاب بالنوازل ان يصبر لها ويتوكل على الله وان يستسلم لارادته سبحانهُ وتعالى . " ان الارض لله يورثها من يشاء من عبادهِ "

نعم يحيى المرءُ بين اهلهِ واقربائه فلا يكون لهُ تأْثير ادبيٌّ بينهم (الاَّ عند القليل منهم وهم المدركون غاية حياتهِ العالمون حقيقة وجدانهِ اما في الرجال فالاب الاول والاخ الثاني وفي النساء فالزوجة الثالثة وتتبعانها الام والاخت ومن

بقي من الاهل والقرابة) فتأثير وجوده بينهم يكون بحسب القرب منهم اليهِ . والاَّ فتأمل ذلك في نفسك — اذ الانسان احسن درس للانسان — تجد صحة ما نشير اليهِ

انظر يوم تأخرك عن وقت حضورك الى البيت تعلم انهُ قد تململ والدك واخوك وكلٌّ منهما يبحث عنك وزوجتك وامك حزينتان لبعدك فاذا كان ذلك كما تقول فكم يكون مقدار تأثير غيابك الذي لا رجوع لهُ حين لا ينفع فيك الحزن ولا يغني عنك البكاء والعجيب حقاً ان التأثير والحزن يكونان شاملين الكل بلا امتراءٍ

ولكن للحزن مخرجاً يعرف بالصبر بلسمهُ العلم والمعرفة وقد كان هذا البلسم معروفاً عندنا قديماً وشواهدهُ في صدر الاسلام كثيرة لا تقع تحت حصر ولا يأخذها عد

وكفانا بذلك شاهداً موت الرسول صلى الله عليهِ وسلم فان الحزن عليهِ كان غير ما نعرفهُ الآن من اللطم والنواح وشق الجيوب . وقد كان حق الامة حينئذٍ ان تشبع الوجوه لطماً وتستنفد ما في الآماق من الدموع . لو كان في ذلك شيء من الدين . والاَّ فمن كرسول الله حتى لا تشق عليه الجيوب ولا تسيل لموته الدموع . لو كان في ذلك شيء مما يوجبهُ العلم والمعرفة او يرضى بهِ الدين

ولنا بموت ابي بكر الصديق رضي الله عنهُ اعظم دليل واصدق برهان على ذلك وما اصدق ما قالتهُ السيدة عائشة ابنتهُ على قبرهِ مما يبين لنا تمسك المسلمات وقتئذٍ بالصبر واليك قولها رضي الله عنها[1] " نضر الله يا ابتِ وجهك وشكر لك صالح سعيك . فلقد كنت للدنيا مذلاً بادبارك عنها وللآخرة معزاً باقبالك عليها ولئن كان اعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك واكبر الاحداث

(1) كتاب مفتاح الافكار وجه ٨١

بعدهُ فقدك . ان كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض منك وانا منتجزة من الله موعدهُ فيك بالصبر عنك ومستعينة بكثرة الاستغفار لك فسلم الله عليك توديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك " ثم ما قرأناهُ عن مقتل عمر بن الخطاب فاتح البلدان ومشيد اركان الدين اذ لم يحصل شيء من مثل ذلك على الاطلاق فضلاً عن ان ابنتهُ كانت تحض على ما فيهِ راحة المسلمين ويتلو ذلك مقتل عثمان ذي النورين وجامع القرآن الكريم والامام علي كرم الله وجههُ ناشر لواء الدين والذائد عن بيضة الاسلام بسيفهِ وشجاعتهِ . ثم الخلفاء من بني امية والعباس وغيرهم كلهم تُوفوا ولم يجرِ شيء من امثال ما نراهُ الآن من اعمال الاغنياء في المآتم والاحزان نعم لا ننكر ان الاب والاخ لاختبارهما وواسع اطلاعهما ورجاحة عقلهما يخففان عما المَّ بهما من الاحزان بخلاف الزوجة والام والاخت فانهنَّ يكنَّ على الغم والحزن قائمات وللمحاسن فقيدهنَّ معددات طول عمرهنَّ والادلة كثيرة تقوم على صحة دعوانا والسبب الاكبر في ذلك ان لم يكن لاختلاطهنَّ بالنساء فلقلة فهمهنَّ بحقيقة العلة الوجدانيَّة . تراهنَّ حينما يموت الميت لا يبتدئنَ بالبكاء حتَّى تتوافد اليهنَّ الجيران وبالاخص النساء من كل حدب وصوب ناشرات الشعور خالعات رداء الصون صارخات بصوت منكر دونهُ صوت الحمير ثم يأخذنَ بالصراخ وتصعيد الزفرات والتظاهر بالندب وسوء المنقلب بما يفتت منهُ القلب وينفطر منهُ الفؤاد

يعملنَ كل ذلك وهنَّ لا يدركنَ معنى ما حلَّ باهل الميت من الحيرة والارتباك وان الاولى بهنَّ التعزية بكلام يخفف شيئاً من احزانهم ويكفكف دمعة من دموعهم . بل تأتي كل واحدة منهنَّ فتجلس في ركن من اركان الدار هذه تندب وهذه تنوح وتلك تفوه بالفاظ تعديد لم يبق منها الشيطان بعد طردهِ من

الجنة ما يندب بهِ نفسهُ . وبينا الرجال يهتمون باحضار ما يلزم لتجهيز الميت ودفنهِ لا ترى للنساء اهتماماً بغير التهيوء للخروج وراءه بهيئة يتبرأ منها الدين والشرع والعقل يخرجنَ وهنَّ حاسرات الرؤوس مشوَّهات الوجوه في حال لم يأمر بها الدين القويم . وبعد ان كانت هذه العوائد القبيحة متبعة في الجاهليَّة الاولى . مرعيَّة الجانب عند المصريين[1] اكتسبها الاسلام منهم وممن عاصرهم وجاورهم من باقي الامم فتمكنت في النفوس الجموحة التي استلبت عنانها من يد العلم والتهذيب تمكن الرذائل واستحكامها في الصدور

ومما يأسف لهُ المسلمون ويغبطون عليه نساء اغنياء القبط الآن هو ان الاقباط ابطلوا كل هذه العوائد المأخوذة عنهم ولم يبطلها الاسلام حتى الآن . بل بسطن ايديهم في اجرة النادبات[2] ولا غرو اذا ظلوا متمسكين بها طول عمرهم وحاضرهم متأخر عن الاقباط وعن باقي الطوائف في التعليم والتربية

وليس لنا طريقة لمقاومة هذه الآفة سوى طرق المنع دينيًا ام مدنيًا ونشر العلوم فيما بيننا

وما على اذكيائنا وعلمائنا ووجهائنا الاَّ التحريض على تركها وقد كان فضيلة العلامة الشيخ محمد عبده قدوة لنا في ذلك عند وفاة والدتهِ وكذلك ما فعلهُ نابغتا الاسلام في هذا العصر الفاضلان سعد بك زغلول واحمد فتحي بك زغلول وغيرهما من الاقتصار على تشييع الجنازة حسب السنة واقامة المأتم ثلاثة ايام فقط فان ما

(١) الندب وتسويد الوجه بالسواد وشق الجيوب من عوائد المصريين القدماء كان هذا الامر مشهوراً عنهم من عهد قديم تفننوا فيه من عهد الكهنة وغيرهم على طرق شتى وانتقل منهم للرومان واليونان و خذ ذلك عنهم المسلمون عند فتحهم الاقطار المصرية

(٢) للنادبات اجرة عن كل يوم يتناولنها من اهل الميت "غير النقطة" حتى ان بعضهنَّ احرزنَ ثروة ليست بقليلة ومن لا سمـ ن اكثرهنَّ واشهرهنَّ مسمات

نراهُ الآن عند موت طفل صغير وما يعمل لهُ من كبير المآتم دليل على ضعفنا عن احتمال الحوادث التي يقضي بها علينا الله جل وعلا ومخالفتنا لسنتهِ واحكامهِ ولقول الرسول في احدى تعازيهِ لمعاذ بن جبل في قولهِ " اما بعد فعظم الله لك الاجر والهمك الصبر ورزقنا واياك الشكر . ثم ان انفسنا واهلينا وموالينا من مواهب الله السنيَّة وعوارفهِ المستودعة نمتع بها الى اجل معدود ونقبض لوقت معلوم . ثم افترض علينا الشكر اذا اعطى والصبر اذا ابتلى وكان ابنك من مواهب الله الهنيَّة وعوارفهُ المستودعة متعك بهِ في غبطة وسرور وقبضهُ منك باجر كثير الصلاة والرحمة والهدى ان صبرت واحتسبت فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين ان يحبط جزعك صبرك فتندم على ما فاتك فلو قدمت على ثواب مصيبتك فقد اطعت ربك ونجزت موعوده عرفت ان المصيبة قد قصرت عنهُ واعلم ان الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع احزاناً فاحسن الجزاء وتنجز الموعود وليذهب اسفك ما هو نازل بهِ "(1)

اولا يرضى المسلمون ان يؤَدوا بعض ما يجب تالله لو لم تكن الاَّ افعال المحازن والندب لكفى بهـا موجبة ان نعذب عن آخرنا ونكب في النار على مناخرنا والله يحكم لا معقب لحكمهِ

سلوك الابناء بعد موت الآباء

وليخشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً (قرآن شريف)

اذا قبض الله اليهِ احد الاغنياء وترك اولاداً لهُ . يرث الاولاد مال ابيهم وفقاً لما قررتهُ شريعتنا الغراء اي يعطى الولد ضعف ما يعطى للبنت والغاية منهُ كما

(1) مفتاح الافكار صحيفة ٧٥

هو معلوم حفظ الثروة في العائلة بالعصبيةّ

وكل ذلك نافع مفيد لمن يتدبر غاية الشريعة السمحاء ولكني اقول آسفاً ان حاضر كل غاية شريفة قد انعكست فينا لسبب الجهل المستولي على النفوس لفقد العلم والتهذيب الذي كنا نتلقاهُ على الخطة التي كنا سائرين عليها قبلاً حتى انا لا نغالي لو قلنا ان المتأمل البصير قد يتأكد لديهِ قرب انحلال فئة الاغنياء . اذ يرى الاخوة منهم لا يكادون ينتهون من مأتم والديهم الاّ وقد اخذ كلٌّ منهم في تبديد ما آل اليهِ من ثروة ابيهِ وعكف على مصاحبة كثيرٍ من المتملقين الذين هم اكبر الآفات المسببة لابتزاز الثروة وذهابها ادراج الرياح . مما لا يخلو شاب غني من جماعة منهم . فيلتفون حولهُ لسلب مالهِ بطرائق الغش والتمليق الكاذب . مثل جماعة الاجانب وبعض الوطنيين من المنحطين في مهاوي الضعة والابتذال المنغمسين في حمأة الرذائل والقبائح . وهؤلاء يتلقون اولاد الاغنياء بوجوه هاشة باشة حتى انهُ ليصدق فيهم القول

تقلب في الآفاق صلاً كأنما يقلب في فكيهِ شفة مبردِ

يشيرون عليهم بما فيهِ ضياع مالهم وترفهم . وانتهاك حرمة آدابهم ومبادئهم . ان كان لهم آداب ومبادئ . وان اراد القارئ ان يعلم حال الشبان الاغنياء فليرسل رائد بصيرته الى ما نقصهُ عليهِ وليعمل مطايا رويته وقوة فكرهِ وادراكهِ فيه يعلم ما لم يكن يفطن اليه وهو يراهُ كل يوم امام عينيه

قد كان الزائر او الضيف الذي يدخل بيوت الاغنياء ينشرح صدراً ويقر عيناً بما يرهُ من رب الدار من الانس والحفاوة والدعة ولين الجانب . فضلاً عما ينشأ في نفسه من حب الخير والفضيلة وعمل الاحسان . اذ كان القوم اسمى فضلاً واوفى كمالاً . ذوو اخلاق مرضية محمودة ومكارم الهيةّ موهوبة . قد تردى جمهورهم

بالآداب وبعدوا عن الرذائل . شأن كل من اعترك مع الدهر وزادته التجارب علماً وخبرةً فسمت معرفتهُ باكتساب ما يحمد والابتعاد عما يذم . نعم لا تنكر ان كل هذا الفضل لم يكن منهم لمجرد انهم كانوا لا يميلون الى عمل ما نراهُ ونشاهدهُ الآن من النشأة الجديدة . فان التمدن الاوربي لم تكن حلقاتهُ مستحكمة في ذلك الحين استحكامها في وقتنا الحاضر . ولكننا نرجع الى القول عنهم ان وسائل تربيتهم كانت اقوى منها الآن . وهذا هو السبب في اخراج النتائج الحسنة زمناً طويلاً الى عالم الفضل والنبل . اما الآن فقد تغير كل ذلك وعلى الاخص في المشاهد من اولادهم . اذ هم يتنافسون عند مقابلتهم بعضهم بعضاً خارج منازلهم بانهم يضعون التماثيل المجسمة داخل بيوتهم . وهي على الاغلب مطروح عنها رداء الحياء ظاهرة بمظهر قبيح . يرتعد منهُ جسم الاديب ويقشعر جسم المخدرة حياء وخجلاً . حتى اننا اصبحنا ونحن شديدو القنوط من تحسن امرهم وانقلاب احوالهم وابتعادها بعداً شاسعاً عن مواطن الذوق والمروءة واصبح الزائر وهو يرى تعليق الصور القبيحة المنافية للآداب في غرف الاستقبال وقاعات الاستراحة فتنقطع بهِ حبال الآمال في امكان اصلاحهم وردعهم عن غواياتهم اذ يرى الغني يعتني بها كثيراً فيضعها في الالواح والأطر الثمينة ليتباهى بها على اهلهِ واخوته ومعارفهِ وينافس بها اقرانهُ . اما ازياؤها القبيحة المختلفة فما لا يقع تحت حصر ولا يأخذهُ عد لكثرتهِ . منهُ العاري والمحجوب . والراقص والمعانق . وكل ذلك يراهُ الامهات والبنات وغيرهنَّ كلما حانت منهم التفاتة . ولا يخفى ان هذا الامر مكروه في الدين . تمجهُ الانسانيَّة والآداب . لانهُ مفسد للعفاف مضر بالتقوى والاعراض . ناطق بافصح لسان ان اولئك القوم منطرحين في حمأة الرذيلة . والاَّ فارني الفرق بين وضع صورة قبيحة ووضع كلمة فصيحة ككلمة " الحلم سيد الاخلاق " او اين الفرق بين نصب تمثال بدلاً من آية

كآية "قل لن يصيبنا الاّ ما كتب الله لنا" بل اين عمل الاغنياء قبلاً وانت ترى حاضرهم من الذين شاركوا الغواني في لباسهنّ وتطبّعوا باخلاقهنّ ودأبوا على رص خزائنهم بقناني المسكر وشغلوا زوايا بيوتهم برصف دنان الخمر . وهم يقضون نهارهم في شرائهِ بدلاً عن شراء الكتب المفيدة المثقفة للعقول المحسنة للاخلاق . حتى انك لو دخلت بيت احدهم لاخذتك الدهشة مما تراهُ . بل اين مساكنهم السالفة التي كانت تضم قبلاً اشباح تلك الشهامة المشتهرة عنهم والامانة المتوارثة عن آبائهم واجدادهم والتي يعجب بها من عرف بعضها . حقّاً انا لو اردنا ان نتفقدها الآن لما وجدنا لها أثراً . الاّ في القليل منهم وما بقي منها فقد عدمت فيهم الاّ في مظاهر النقائص فانا نجدها بينهم تُجلى بانواع شتى وغايتها ضياع المال والوقت

اما ضياع المال فيكفيك ما في بيوتهم من لعب الميسر. واما الوقت فكثيراً ما يكون احدهم مراهناً للآخر ينتظر منها المغنم الصغير. مقابل ضياع وقت ثمين لو صرفوهُ في اصلاح احوالهم لكان لهم خيراً وابقى . واصناف مقامرتهم كثيرة منها ان يقامروا على مضاربة ديك . او مناطحة كبش . مقابل مبلغ طفيف . ولذا ترى دورهم لا تخلو من هذه الحيوانات وبجانبها قهاوي الحشيش

أذكر اني مررت عرضاً على ساحة رهان معقودة لهذا الغرض . فوجدت جماعة من ابناء ذواتنا ينظرون الى ديكين يتنافران . احدهما لحفيد قائد كان في حملة المرحوم ابرهيم باشا ولهُ في حرب المورة همة مشكورة . والآخر لحشاش من جيرانهِ فوقفت أجيل النظر والديكان بين هجوم ودفاع والجمع في سكون تام كأن على رؤوسهم الطير وما زلت واقفاً انظر اليهم حتى كلّ ديك الحشاش وفر. فتهلل وجه الغني وطاب قيمة الرهان من مغلوبهِ وجوانحهُ ممتلئة فرحاً وقد كان آخذاً في معانقة ديكه الظافر والحشاش غائب العقل حاضر الشخص ساخط على الزمن

والساعة واليوم وقد اوسع الغني من القول الهراء مما يأباهُ من كان حفيد قائد عظيم شريف المحتد لو كان باقياً في عروقهِ قليل من دم جدهِ الباسل

اما مناطحة الكبوش فانهم يربونها و يزيدون لها الملف حتى يكون الكبش ذا قوة و بطش ملفوف القرون معوجها حتى اذا ازف وقت المناطحة وعقد الرهان يأتون بكبشيهم وهما اشبه منهما بضبعين فيتصادمان مبتعدين ومتقاربين حتَّى يخرج من قرونهما الشرر وتنجلي الحال عن فرار احدهما وفوز الآخر الكاسب للرهان واشهر ميادين المضاربة جهة عابدين والمناطحة جهة الحلميَّة(١) وكل ذلك يدل على كيفيَّة حفظ الوقت عند ابناء اغنيائنا الآن وفهمهم طرق المعيشة وكيف تحولت من هدوءٍ واستقرار كانا ملازمين للاغنياء الى حركة و كدح في امثال هذه المضاربات المعيبة . ولا يخفى ما لذلك من التأثير اذ يتبع الفقراء الاغنياء فيقلدونهم فيها لما علم من ان الضعيف يتبع القوي في احوالهِ وعوائدهِ لاعتقادهِ في نفس القوي الكمال والرجحان

ولاولاد اغنيائنا تفاخر بالقبيح مشاهد بينهم حتى عند جلوسهم في الانديَّة فانك تراهم يقصون على بعضهم الرذائل والموبقات التي ارتكبوها ويفاخرون بها امثالهم . فترى هذا يقص على الآخر سوء سلوكهِ و كثرة تبذيرهِ في اماكن المقامرة واللهو ومقدار ما يجود بهِ على الادنياء والقوَّادين وذلك يشرح (والفرح ملء فؤادهِ وحواسهِ) اساليب الخداع التي استخدمها و يستخدمها في الاحتيال على سلب الاموال

(١) اصل "مضاربة" الديوك ومناطحة الكبوش مأخوذ عن الارنؤوط الذين كانوا بمصر بكثرة من امد ليس ببعيد وفي بلادهم ساحات معدة لهذا الغرض . اذكر مرة اني قرأت حكاية قيام قرية على أخرى وانتشاب القتال بينهما وكان السبب في ذلك "مضاربة" الديوك انظر مجلة اللطائف الغراء السنة الرابعة الصفحة ١٦٠

واهتضام الحقوق — ولو كانت اموال زوجة وحق والدة او اخوة — وآخر يفتخر في سب آخر وشتمهِ وضربهِ فضلاً عن استحلالهم تمزيق اعراض المخدرات وقد يكنَّ زوجات رجال افاضل من ذوي الوجاهة والفضل مما يدل على سقوطهم الادبي وانحطاطهم الانساني ويثبت صراحة بعدهم عن الكمالات الادبيَّة والمبادىء الصحيحة التي كانت في آبائهم قبلاً وكانوا يوصون بها بعضهم بعضاً (١)

اما عيشتهم مع اقرانهم فعيشة منحطة جدًّا حشوها اغتياب البعيد وتملق الموجود وكلهم حسادٌ لبعضهم نمامون يتلقطون دائمًا بما يعاف سماعهُ الكرام

(١) نذكر هنا شيئًا من بعض ما كتبهُ البديع الى احد اصدقائهِ وهو

وصلت رقعتك يا سيدي والمصاب لعمر الله كبير. وانت بالجزع جدير. ولكنك بالصبر اجدر. والعزاء عن الاعزة رشد. كأن الغي وقد مات الميت فيحيى الحي. فاشدد على مالك بالخمس. فانت اليوم غيرك بالامس. قد كان ذلك الشيخ رحمهُ الله وكيلك تضحك ويبكي لك. وقد مولك ما الف بين سراهُ وسيرهُ. وخلفك فقيرًا الى الله غنيًا الى غيرهِ. وسيجم الشيطان عودك فان استلانهُ رماك بقوم يقولون خير المال ما اتلف بين الشرب والشباب. وانفق بين الحباب والاحباب. والعيش بين الاقداح والقداح. ولولا الاستعمال لما اريد المال. فان اطعتهم فاليوم في الشراب وغدًا في الخراب. واليوم واطربا للكأس وغدًا واحربا من الافلاس

يا مولاي ذلك الخارج من العود يسميهِ العاقل فقرًا. والجاهل نقرًا. وذلك المسموع من الناي هو اليوم في الآذان زمر وغدًا في الابواب سمر. والعمر مع هذه الآلات ساعة. والقنطار في هذا العمل بضاعة. وان لم يجد الشيطان مغمزًا في عودك من هذا الوجه. رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك وتناقش عينك وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك. وتراد في الآخرة في ميزان غيرك. لا. ولكن قصدًا بين الطريقين. وميلاً عن الفريقين. لا منع ولا سرف. والبخل فقر حاضر وضير عاجل. وانما يبخل المرء خيفة ما هو فيهِ. فليكن لك في مالك قسط. وللمروءة قسط. فصل الرحم ما استطعت. وقدر اذا قطعت. فلأن تكون في جانب التقدير. خير من ان تكون في جانب التبذير. انظر مفتاح الافكار لنثر المختار وجه ٢٦٦

والمزاح بينهم ليس كما قال سعيد بن العاص — اقتصد في مزاحك فان الافراط فيهِ يذهب البهاء وتركهُ يقبض المؤانسين و يوحش المخالطين — بل هو مزاح في القبح والسفاهة وقلة الادب و كذلك ضحكهم فانهُ يدل على وجود الرعونة فيهم . اذ ايراد مضحكاتهم هي على سبيل التعريض ببعض سواء كان كذباً او حقاً. ولا ينتهي مزاحهم او ضحكهم بدون سباب بعضهم البعض والسباب عندهم على ثلاثة انواع . قدح في النسب . وقدح في النفس او البدن . لعاهة بلي بها المسبوب او لآفة لحقت بهِ . والثالث في امر فعلهُ او وقع عليهِ . ولا ينتهي مزاحهم الّا بمشاجرتهم على الاغلب وان لم تكن المشاجرة فالخصام . وهم في ذلك دون تلامذة المكاتب والسوقة . وفي بيوت الاغنياء قديماً كانت تهدى الى الخدم والحواشي الهدايا المختلفة والقصد من ذلك اظهار العواطف وتمكين المحبة القوميّة او المليّة . حتى كان لا فرق بين الخدم والاولاد واستمر السلف الصالح على ذلك وهم عليهِ محافظون وبهذا الاحساس متمسكون . لعلمهم ما لهذه العوائد من المزايا والفوائد حتى اثمرت هذه الامور ثمرًا طيباً في الخدم وكانت سبباً لتدرجهم الى السير في الطريق المؤدي للادب والامانة . ولا غرو فهم كانوا المدركين لمعنى " قول معروف ومغفرة خيرٌ من صدقة يتبعها اذى" اما الآن وقد ترك خلفهم الحاضر هذه العوائد الحسنة وابتعد عنها وانقبضت يدهُ دونها فقد سقطت منزلتهُ في اعين خدمهِ لاهتمامهِ بما يأول لنفعهِ دون غيرهِ اكثر مما هو واجب عليهِ اداؤهُ لذلك الغير — ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضلهِ هوّ خير لهم بل هو شر لهم — فاصبحنا ونحن نرى ذلك الخادم الحقير يقاضي ذلك الامير الكبير لاقل هفوة تصدر منهُ اليهِ وتسبب عن ذلك ان اصبح الخدم فوضى لا وازع لهم وضاع الادب منهم وقلّت الامانة فيهم. ثم انخفضت شوكة الاعيان والوجهاء وصولتهم والسبب في كل ذلك

الخدم لا غير . ونحن نذكر القارئ بياناً لما نقوله بمسألة الامير .... ومقاضاة خادمه له بالاسكندرية وذلك الامير ومقاضاة خادمه له بمصر. فلو كان للاغنياء والعظماء منا شفقة ومرحمة على الخدم والحواشي لما كنا سمعنا شيئاً من هذا . والسبب في ذلك كله معاملة العنف بدل اللين والاساءة عوض الاحسان . وقد يكفيك برهاناً ما تراه مجسماً امام نظرك في شهر الصوم والاحسان والزكاة (رمضان) اذ يأمر السيد خدمه بعمل اعمال شاقة واشغال متعبة قل ان يأمر بها في غير الصوم وامر العداثين"التمشجية" ظاهر لكل ذي عينين وهو يدل على سوء معاملتهم . فان مع معرفة احدهم بصوم " السائس " طول نهاره يأتيه عصراً ويأمره باعداد العربة فيذهب مثلاً من الناصرية للعباسية او من الجمالية للجزيرة ولا تأخذهم الشفقة " ما داموا من الذين يحبون العاجلة " و" السائس " يعدو وهو يخط من التعب امام العربة كأن هذه لا تمشي ولا يكون جريها حثيثاً ما لم يعدُ هذا " السائس " امامها (١) فاين اخذنا بعد هذا كله واين الشفقة والشهامة التي كانت تعرف فيهم قبلاً . قل لي بعيشك هل هؤلاء القوم ممن قيل عنهم "الهينون اللينون" بعد ما ذكر او هم من الذين يزينون اعمالهم بزينة الرفق التي كانوا يوصفون بها قبلا ؟؟

هذا ودلائل الكسل ظاهرة ظهوراً واضحاً عليهم فهم النائمون نهاراً القائمون ليلاً اي عكس ما اعتادت عليه النفوس منذ خلقتها حتى ان الفقير ليأبى ان يكون غنياً كسولاً مثل هؤلاء ولا يرضى بالغنى مع ما في النفس من الطمع . ومن لم يعلم شيئاً من كسلهم وانواعه فلينظرهم في منتزهاتهم يرهم كسالى على ظهور الخيل يتباهون

(١) ومن العجيب انهم ينعلون ارجل افراسهم ويتركون العداثين يمشون حفاة فوق الرمضاء وحصى الغبراء في قيظ البلاد الشديد . وقد تسبب من هؤلاء العداثين مشاكل كثيرة بين الامراء والاجانب

بركوبها وهم اجبن من النساء على متونها

وقد فشت عدوى الكسل بخيلهم فهي ناعسة لا همة لها في المسير كأنها ان سبقتهم حماسة خافت ان يصيبها من قلة العلف ما يكون عقاباً لها على عدم مجاراتهم والتشبه بهم . وهذا مشاهد فيهم ومخالف لما كان عليهِ اباؤهم فكيف يرجى منهم بعد هذا للوطن خير ومنفعة وانت لو تأملت فيهم لوجدتهم يهتمون بالاقطار النائية ويحلمون دائماً بالسفر اليها حيث ينفقون القناطير من الذهب في طرق الفساد فعدمت بذلك منفعتهم المرجوة للبلاد وعدمت فيهم الحماسة القومية. وانعكس الحال الى ضدهِ

وكل هذا ما لحقهم وحقك الاَّ من جراء اضمحلال التربية الحقة وفعل الآثام واتيان المنكرات حتى اعترى بعضهم امراض مزمنة عز شفاؤها وذلك لجهلهم كنه العافية فاوقعوا فيها انفسهم ثم ارادوا التنصل منها فما اغناهم دواء بعد ذلك . نعم ان كثيراً من الامراض مما هو تحت طاقة الانسان الحكيم يمكن ازالتها لو وفق لذلك وكان ذا حوطةٍ على نفسهِ بصيرًا . ولكن اين لهؤلاء الشفاء وهم خوفاً من المرض يوقعون انفسهم في المرض ويكونون السبب في جلبهِ . حتى انك لو عرفت احدهم وهو صحيح البدن قوي العضل وعرفتهُ بعد تملك المرض منهُ لانكرتهُ ولكذبت نفسك فيهِ . وكأن امراضهم تأتي اليهم غنيةً بألمها وشدتها حتى انهم لا يبرأُون منها الاَّ بازهاق الانفس وخروج الروح وهو داءٌ دويٌ على اية حال ذهب بهم . ودليلنا ما نسمع يومياً من موتهم وهم في غضارة الشباب وعنفوان الصبا

هذا ما ذكرناهُ عن تضييع اوقاتهم الثمينة اما عما يبددون من المال الذي ورثوهُ عن آبائهم دون تعب ونصب فهو على كل حال دون حد او حساب وهم بعد ان يتسلطوا على تلك الاموال الموروثة يفتحون الخزائن ويملأُون حفنة يدهم منها ثم

يعطونها للزنادقة من الاجانب وغيرهم وكلما فرغت من التبذير ملأوها من ريع اراضيهم الموروثة عفواً ثم يأخذون في صرفها في سبيل العار والفضيحة وهم لو تعلموا الاخذ والعطاء لحفظوا ثروة والديهم او زادوا عليها ولكفونا تبذيرهم اموالهم على جماعة يكونون بالامس يمدون ايديهم اليهم للتسول وطلب الرفد . وبعد مدة يغنون ويثرون وعلى من احسن اليهم يتكبرون وهم لو نشأوا على القول المأثور — اصلحوا اموالكم التي رزقكم الله فان اقلالاً في رفق خير من اكثار في خرق —[1] لما وصلت حالهم الى ما ترى من انهم يزرعون ويحصدون والاجانب يجبون ويقبضون وهم ينظرون نظر الخامل الابله الذي لا حول له ولا قوة عنده . حتى انهم وصلوا الى درجة هي الجبن او دونه لناقد البصير . والاَّ كيف نرى ثروتهم في القطر الآن قد تحولت بعد ان كانت لهم ولوالديهم من قبلهم لجماعة الافرنج وهم قد اصبحوا اصحاب الاباعد والمزارع اسماً واصبح غيرهم اصحابها فعلاً[2]

وناهيك بما اقدموا عليه اخيراً في لعب البورصة وخسروه فيها "بالكنترانات" واقل خسارة الفرد الواحد منهم قد تجاوزت الاثني عشر الف جنيها ولا يبعد ان نرى جميع ما لاولاد الاغنياء في قطرنا العزيز قد خرج من ايديهم الى يد الاجنبي . وهم نيام يبذرون اموالهم في الازبكية يتنقلون من محل خمر الى منزل عهر . ومنها الى دوائر الميسر والخسر . يدوسون الشرف باقدامهم ناسين مجد آبائهم لاهين عن حقوق بلادهم غافلين عما يستقبلهم من الاضرار في حياتهم بمر عمرهم ضياعاً بين

(١) قول لامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(٢) اطلعني صديق في البنك العقاري على كشف جمالي فيه بيان لرهونات المرهونة من اولاد الذوات فعلمت منه ان جميع الاولاد لاعتيادهم على شفا جرف هار . وبعضهم حسابه لا يأتي عليه آخر هذه السنة الا وينكشف امره وتنقلب حالته من نعيم الى شقا مقيم

اقداح الراح ومداعبة الخود الملاح . وكفى ان نسمع عنهم ما ذكر والمال الذي يبددونهُ اسبوعاً يكفي لانشاء شركة وطنيّة تضارع احدى شركات الاجانب الذين هم بين ظهرانينا

اما حالة بعض الذين نفدت اموالهم من جراء سلوكهم هذا الرديء فحالة مضحكة مبكية . اذ ترى بعضهم يلتمس الخدمة في المصالح الاميريّة ضارعاً الى زيد من الناس متشفعاً بعمرٍو ليلحق بوظيفة لا يزيد راتبها عن راتب احد خدمهِ قبلاً. واصبح يرضى بذل الخدمة وهو لو عقل لدخل ابواب الرزق الواسعة ولارتفع شأنهُ وعلا قدرهُ ونما فضلهُ . الاّ ان حالتهم ووصولهم الى تعاستهم وإهمالهم لانفسهم تدفع بهم الى ما ذكر وترمي بهم الى ما وراءهُ

فتراهم يجلسون على القهاوي والمنتديات الحقيرة التي لم يكن احد منهم يتنازل من علياء مجدهِ الى النظر اليها او الجلوس فيها فيتخذونها لهم مأوى نهاراً وليلاً بعد ان كانوا يظهرون على الناس بمظهر الابهة والجلال وكنت ترى احدهم راكباً عربة يستحث الخيل ضرباً بالسياط ويلهبها سيراً حثيثاً حتى تشخص اليهِ الابصار وتمتد اليهِ الاعناق او ممتطياً جواداً من الصافنات الجياد . وكل هؤلاء قد اصبحوا عالة على اقاربهم من الرجال والنساء يلتمسون الاحسان والاسعاف كل شهر ويوم . وهو درس عظيم لمن يتأملهُ ممن بقي منهم ليقف على كيفيّة اخفاق الجاهل ونجاح العاقل وناهيك بالدرس الذي يكتسب بالممارسة والتجارب فانهُ اوقع في النفس من درس يكتسب بالمطالعة . ومن شاء ان يعتبر فليشاهد من ذكرناهم وهم بلباس بالٍ ورداء ممزق حتى انك لو نظرت الى احدهم لتذكرت قول القائل

اصبحت كالثوب اللبيس قد اخلقت جدَّاتهُ منهُ فعاد مذالا

وعلى وجوههم ملامح الفقر والمسكنة بعد ذلك العز وتلك الصولة . تالله ان النظر اليهم لحقيقة نبين لنا ما لحق بنا من الخزي بعد السرور والعار بعد الافتخار .

حقاً انا نراهم كل يوم منحدرين الى منحدر سهل بدلاً من مرتقى صعب حتى اصابهم ما يصيب الارض المزروعة اذا استولى عليها الشوك والتي لا مناص لها من اضرام النار فيها حتى تصلح ثانيةً بعد ان ترتدي زمناً رداء السواد عوضاً عن لونها الطبيعي الجميل والله القاهر فوق عباده

مقاضاة اولاد الاغنياء

متى وقف القارئ على سير وسلوك اولاد الاغنياء السابق بيانهُ لا بدَّ ان يتساءل عن كيفية مقاضاتهم بعضهم البعض اذ لا يعقل ان يكون سيرهم على نحو ما قدمنا ويخلو من المقاضاة امام المحاكم . اما نحن فنقول ان قضاياهم تنقسم الى ثلاثة اقسام قضايا مدنية على حقوق لهم يقيمها بعضهم على بعض وهذه لا تعد ولا تحصى ولا غرض لنا فيها وان كانت اسبابها دنيئة في الغالب

وقضايا شرعية لاثبات الوراثة او قدح في الوصايا او في الوقفية او لطلاق زوج من زوجته وهذه ايضاً لا يأخذها العد لكثرتها غير انا نأسف لما ينجم عن هذه القضايا من التلاعب والبلايا التي تجر الويل والخراب وتبدد الاموال في غير ابوابها وسببها سوء الظن بين الاهل والاخوة او ربما كانت لغرض ما

الَّا ان براعتهم في القضايا الآنفة الذكر وكثرة مصاحبتهم لرجال المحاماة جرأتهم على ولوج ابواب المقاضاة مع اختلاف انواعها حتى لا يقال انهم الاغنياء ولكنهم المقصرون عن الوقوف لدى جميع درجات المحاكم فلذا تراهم وقد جد فيهم من امد ليس ببعيد خلق الترفع الى المحاكم الجنائية التي كان لا يدخلها غير القتلة واللصوص من قطاع الطرق والنشالات كما هان عليهم ايضاً المثول لدى محاكم المخالفات بجانب فاسدي الاخلاق وارباب السرور والفجور من خمار وحوذي وحمال

والاسباب الداعية لهم الى ذلك هي سيرتهم غير المحمودة وعدم مراعاتهم ما يقتضيهِ شرفهم من حسن السير والمعاملة كما مرَّ عليك ومن الغريب ان علة كل ذلك النساء من مصونات وفاجرات ودليلنا على ذلك مسألة ذلك الامير وتلك الحادثة التي كادت تهدم ركناً من اركان العائلة الخديويَّة الكريمة وتؤلم فؤاد كل محب لتلك الاسرة . ومن يتأملها يجد ان سببها النساء ذوات القلوب القاسية والدهاء والتأثير وتنبيه الخواطر التي يهيجها القول ويثيرها الكلام الجارح

واما عن النساء العموميات فشواهدهُ عديدة تقع كل يوم منها ما حصل بين اولاد الذوات في محل "بوديجا" بسبب مشاحنة على امرأة عموميَّة اوربيَّة وقفوا بسببها امام المحاكم المذكورة بجلالهم الحاضر وعزمهم المشاهد فما اغنى ما ذكر امام الحق والقانون شيئاً بل حوكموا على ما فرط منهم ولا تقتصر حالهم على ما ذكر بل ان منهم من يعتدي ويتطاول على رجال الضبط وقد كان لبعضهم اعتداء فحوكموا عليهِ

ومنهم من يحاكم لتعديهِ على المارة لمصادمتهم اياهم بخيولهم وعرباتهم في روحاتهم وغدواتهم كما انهم يسبون بعضهم بعضاً ثم يذهبون لمحاكم المخالفات لتفصل بينهم كما حدث ذلك بين خال وابن اختهِ فاذا حوكم الخال وحكم عليهِ تفاقم الخطب بينهم وازداد النفور استحكاماً فيتسع الخرق ويشيع بعضهم عن بعض امور الخلل في ادارة الاموال وضبط الاشغال ويؤدي بهم ذلك الى طلب الحجر من كلٍّ منهم على صاحبهِ . وما جرَّ هذه الامور الّا عدم وجود المبادىء الصحيحة في السواد الاعظم منهم ولو شئنا الاتيان على ذكر كل قضاياهم لطال بنا المقام فاجتزأنا بما تقدم وحسبنا ذلك دليلاً كافياً على فساد احوالهم وهل بعدهُ دليل على سر انحطاطهم وخراب انفسهم بانفسهم وسقوطهم من عالي المجد الى هاوية الخراب وشواهد الحال ظاهرة للمتأمل

بيوت الاغنياء الخربة اخيراً

واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا
— قرآن شريف —

تعفو الرسوم والاطلال . فلا يبقى لها اثر ولا عين . وتشاد الدور الشاهقة والصروح الباذخة فلا يمضي عليها حين من الزمن حتى تصبح معالم دارسة . وكأني بابناء الاغنياء ما قد ادركوا هذه الحقيقة فوطنوا النفس على بذل كل نفيس ورخيص لديهم في طرق حرمها الله فاعطوا النفس مداها ونفس المرء امارة" بالسوء" وباتوا يكيلون الاموال جزافا انفاقا على الملذات والشهوات وكان من امرهم انهم حرموا لذة الراحة والوسن ومن امر صروحهم الباذخة انها لعبت بها ايدي الدمار والخراب فأوي اليها البوم ونعق فيها الغراب فصدقت فيهم كلمة الله (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض) درست تلك الدور في سنوات عددها اقل من عدد الاصابع ففقدت البلاد والامة بخرابها ما فقدت . اقول هذا وانا اقصد امتي التي فقدت ابناءها الذين كانت تعلق الآمال بهم . ابناء حالتهم بررة صالحين فكانوا لها من العاقين الضارين المفسدين . ولدوا في سعادة ونعمة ورخاء . واذا لم يكن لهم من المنح الجزيلة سوى انهم قادرون على ان يحصلوا على مرغوبهم متى راموا لتثقيف عقولهم لكفى بها نعمة يحسدهم عليها الملايين من ابناء الفقراء المساكين . بل يحسدهم عليها من هم اقل منهم غنى وثروة لكنهم تاهوا في بيداء الملاذ فنكبوا عن الصراط المستقيم وتورطوا في الانكباب على البدع واقل ما يقال في هذه البدع انها تستنزف الدراهم من ايديهم بدع جاءتنا بها الفرنجة كم من ات ابها القارئ واهم ما يكلم العواد خسرا والمفا عليهم ن بعضهم منذ خمسة سنوات كانوا يملكون

دوراً تطاول السماك ارتفاعاً فباتوا الآن يفتشون عن بيوت من كانوا مماليك لابائهم لكي يشتروها ويسكنوا فيها او انهم يسكنون في الفنادق بدلاً من تلك السرايات الباذخات واذا لم يكن للمرء زاجرٌ من نفسهِ فلا يردعهُ رادع ورحم الله القائل " لا ترجع الانفس عن غيها . ما لم يكن منها لها زاجر " ساروا على هوى ارادتهم وكلما مرَّ بهم يوم زاد بهم الميل الى اجترام المنكرات والتورط في الموبقات الى ان ذهبت ثروتهم كذهاب امس الدابر ولم يبقَ لهم في الحياة مطمع الاَّ الرمس وعين تبصر الاعداء وقلب ممتلئ اسى وتحسراً . اقول هذا واعني بهؤلاء الشبان ابناء الاغنياء المسلمين خصوصاً والمصريين عموماً واني اخاف على شبان الاغنياء ان يكون مصيرهم مثل مصير من تقدمهم من جماعة الجركس والارنؤود(١) ما دمنا وقد اصبحنا ان افتقدنا اولاد اصحاب هاتيك الدور وهم سادة الامة وسراتها قلَّ ان نستدل عليهم بعد خراب بيوتهم . اللهمَّ ان غاية ما يعرف عنهم بعد طول البحث والاستقراء انهم بله إنزووا في خفايا الازقة والحواري . وليس تبديد الثروة وخراب البيوت مقتصراً على ابناء اعيان القاهرة بل هو عام في كافة مدن القطر وسائر بنادرهِ. ولو شئنا تعداد البيوت التي حاق بها الخراب والتلاشي فكان دمارها عظيماً . او التي تغيرت معالمها من جراء فعل ابناء سراتنا لطال بنا الكلام دون ان نسهب في المقال . الاَّ اننا نرجو القارئ انعام النظر في الجدول الآتي الذي جمعناهُ بعد كثرة التعب(٢)

(١) اخبرني فاضل وجيه ممن لهُ في الوجاهة اثر يذكر ان الباقي من جماعة الجركس والارنؤود الذين كان لهم الصول والطول بمصر ١٥ من الاولين و٣ من الآخرين

(٢) اعتمدت في جمع هذا الجدول على اصدقائي في جهات القطر سواء كانوا في الوجه البحري او القبلي وقد طرحت منهُ جزءا عظيماً تخفيفاً للبلوى

جدول

بيان عدد البيوت التي خربت في اثناء السنوات الخمس الماضية

	وجه قبلي	وجه بحري	الاسكندرية	مصر
بيوت امراء وعظماء	١	٢	٦	٢١
وزراء	..	..	..	٣
وجهاء	٦	٧	٩	١٩
تجار	١٩	٢١	٢٠	٤١
عمد ومشايخ	٣٤	٩٢	..	..
كبار مزارعين	١٥	١٩	٢	٧
علماء	١	٤	٥	٩
	٧٦	١٤٥	٤٢	١٠٠

٣٦٣ المجموع العمومي

هذا والمجموع العمومي ٣٦٣ بيتاً خربت كلها في الخمس سنوات الاخيرة . والناظر بعين البصيرة الى هذا الجدول تتجلى له هذه الحقيقة وهي انه في كل خمسة ايام تمر علينا خرب بيت من بيوت الاغنياء . فهل نحتاج الى دليل اعظم من هذا على انحطاط ابناء الاغنياء عن الآباء والحفدة عن الاجداد حتى صح فيهم قول الشاعر

"نعم الجدود ولكن بئس من ولدوا"

المجالس الحسبية واولاد الاغنياء

انشئت المجالس الحسبية لغرضٍ سامٍ وفائدة جليلة فاقل ما فيها انها شكيمة الجهال ووازع المبذرين لانها تحجر على من لا يحسن التصرف في مالهِ اما لعاهة فيهِ او لعادة ذميمة اعتادها وتغل يديهِ عن التبذير رحمة بهِ وشفقة على عائلتهِ وحفظاً لما بقي من مالهِ وتدربهُ على الاقتصاد في المعيشة حتَّى يقوّم اعوجاجهُ والاَّ بقي تحت سيطرتها الى ما شاءَ الله . وقد جاءَت المجالس الحسبية عندنا بفائدة لا تنكر الاَّ انها لم تؤَدِّ تمام المطلوب منها . نعم انها حجرت على سيئي التصرف والمسرفين ولكنها لم تأْتِ ذلك الاَّ بعد ان كادت الاموال تنفد واستفحل الامر الى حد يوشك ان لا يرجى معهُ تدارك ولا اصلاح . وما ذلك الاَّ لعدم الاهتداء الى طريقة كافلة لاتم النجاح

ومن حقوق هذه المجالس تنصيب الاوصياء وتعيين القوّام وتقدير المال اللازم لاحتياجات المحجور عليهم . ويشترط على من ولي رئاسة مجلس منها ألاَّ يألو جهداً في اتخاذ الذرائع الفعالة لنجاح سير المجلس واصلاح حال المحجور عليهم لانهُ اختُصَّ بثقة عظيمة واستودع امانة كبيرة . ولا يقوم باعباء هذه المهمة الاَّ كل خادم امين صادق في خدمتهِ لان لكل محجور عليهِ مسائل متعددة وقصصاً متفرقة ففيهم ابناء امراء وعلماء وفيهم فقراء وابرياء ولكل من هؤُلاءِ طرق ومعاملات تختلف باختلاف اصلهِ وحالتهِ وعيشتهِ في الحياة . فالمسأُوليَّة على المجالس الحسبيَّة عظيمة ان لم تقم بواجباتها حق القيام ولم تدقق البحث في كل امر يعرض عليها اذ لا يخفى ان المطامع والاغراض تبعث قوماً على جر غيرهم الى المجالس حسداً وبغضاً او تشفياً وانتقاماً وكثيراً ما يكون ذلك بين الاقرباء والانسباء كما يظهر لمن يتأمل

امر المجالس الحسبيّة في هذه الايام . وهذه الاغراض وتلك المطامع زادت في تشويش اعمال المجالس وافسدت عملها مع حسن قصدها حتّى اصبحت عرضة لسوء الظن وهدفاً للقيل والقال . وللناس ان يتقوّلوا ما شاؤوا و يظنوا ما ارادوا ما داموا يسمعون عن دخل بعض اولاد الامراء السنوي ولا يعلمون الحقيقة . و يبلغهم ان اولئك الامراء تركوا لاولادهم المحجور عليهم ثروة لا تنفد والمجالس الحسبيّة تكتم خبرهم بعد فحص امورهم ولا تشهر اسباب اسرافهم ولا تبين سوء سلوكهم وطرق استنزاف ثروتهم ليعلم الناس ما جرى لاولاد الاغنياء ويعرفوا الاسباب التي طوحت بهم في مهاوي الديون ولا حرج على المجالس الحسبيّة اذا افشت اسرارهم تبصرة وذكرى لمن بقي منهم والاّ تحكّم الداء العياء فيهم كلهم قبل ان يبادر حكماء الامة الى تلافيهِ ومنعهِ عن ان ينخر عظامهم و يوردهم حتفهم . ثم ان اعلان هذه المجالس الحسبيّة لاعمالها يعد خدمة للجمهور عموماً والتجار خصوصاً لانهُ يحذرهم من الوقوع في اشراكهم

ولقد قلنا ان للمجالس حق تعيين القوّام والاوصياء على من يطلب الحجر عليهم الاّ اننا لو تأملنا لرأينا اولئك الذين يعينون لمثل هذه الامور يحتاجون هم انفسهم الى اوصياء . ولا يعدم المحجور عليهِ فرصة من الزمان ينتهزها وان طال توقع سنوحها ما دام لهُ جماعة يشهدون امام المجلس بحسن سلوكهِ وقدرتهِ على ادارة اعمالهِ بنفسهِ تذرّعاً الى رفع الحجر عنهُ . وكم من مرة قبلت تلك المجالس امثال هذه الشهادات واطلقت سراح المحجور عليهم ثم حجرت عليهم ثانية وعينت القوّام والاوصياء . ولقد قابلتُ اخيراً سعادة الهمام الفاضل محمد ماهر باشا محافظ مصر ورئيس المجلس الحسبي لمعرفة عدد اولاد الاغنياء المحجور عليهم فاطلعني حفظهُ الله على دفتر للمجلس الحسبي فيهِ اسماء من ينيفون على المئتين من اولاد الامراء

والباشوات والتجار والوجهاء والاغنياء المحجور عليهم . بعضهم حجر عليهم لانهم اضاعوا اموالهم في المقامرة ومغازلة الحسان . وبعضهم على زمرة من المتشردين الافرنج وبعضهم لادمان المسكر والعربدة في المراقص والمفاجر وبعضهم لغير ذلك من المبررات . وكنت اود نشر اسمائهم لولا خوف الاطالة وتكدير المطالع واطاعة امر من اشارتهُ واجبة الاطاعة

فاذا فرضنا ان كلاً من هؤلاء المئتي شاب ترك لهُ ابوهُ عشرة آلاف جنيه لا غير — مع ان منهم من ترك لهُ والدهُ المائة والمائتي الف من الجنيهات — بلغ مجموع ذلك مبلغاً كبيراً اي مليون جنيه او عشرة اضعاف ثمن شركة البواخر التي بكتها الجرائد . او ثمن سدس اطيان الدائرة السنيَّة او نصف ما أُنفق على فتح السودان وانقاذ اهلهِ من اسر المهدي بعد ما قضوا فيهِ ١٥ عاماً . او تسعة اضعاف راسمال شركة بسنديلة او الترامواي في القاهرة

ويا ليت ذلك كان قاصرًا على الذكور من ابناء الاغنياء . بل قد عم ايضاً الاناث منهم . فاني اطلعت على تقريرٍ فيهِ ما يقرب من اسماء الستين امرأة وكلهنَّ محجور عليهنَّ لما اتينهُ من طرق الاسراف والتبذير او لما اصبنَ بهِ من العاهات والامراض

وهؤلاء المحجور عليهم قد خربت بيوتهم وكانت قبلاً عامرة والعلة في جميع ما ذكر نخر الجهل لعظامهم باهمال تربيتهم التربية الحقة المفيدة التي تجعل الانسان انساناً وتخلد لهُ احسن الذكر واجمل الاثر في حياتهِ وبعد مماتهِ . وعلم الله ان حالة اغنيائنا جديرة ان تسحَّ العين الدمع مدراراً فحسبنا الله ونعم الوكيل . هذا ولقد سعيت جهدي لمعرفة عدد اولاد الاغنياء المحجور عليهم في المحافظات والمديريات فما امكنني الوقوف على غير ما يأتي بيانهُ ادناهُ

عدد	
١٩	محافظة الاسكندرية
٢	« القنال
٩	مديرية البحيرة
١٨	« الغربية
١٢	« الشرقية
١١	« المنوفية
٣	« القليوبية
٦	« الدقهلية
٢	« الجيزة
٢	« الفيوم
٣	« بني سويف
٤	« المنيا
٣	« اسيوط "من عائلة واحدة"
٣	« جرجا

فتأمل ايها القارئ واحكم بما شئت تجد كيف تقرض اولاد الاغنياء الاعمار وتهدم العمارة والاعمار . وقل معي يا لها محنة ما اضرها وفتنة ما اعظم شرها وقانا الله ذلك وارشد من بقي منهم لاصلاح حالهِ وصيانة مالهِ والحرص على تدبير شؤونهِ وانتظام معيشتهِ والسعي وراء ما يخلد مجداً باقياً وعزاً دائماً

ولله عاقبة الامور



القسم الثاني

في الوسط

وسط الامة

قد تقدم لنا اننا ذكرنا الطبقة العليا من الامة المصرية . وهم الذين يأتي لهم رزقهم عفواً من اطيانهم او من مرتباتهم او من اوقاف ابائهم ومتروكات مورثيهم . وبقي علينا ان نذكر اواسط الامة المصرية وهم الذين يشتغلون لنفع الامة بالاعمال كالتجارة والزراعة والصناعة . كما ان منهم من يشتغل بالعلم والتأليف والاستخدام وغير ذلك . وهؤلاء في الحقيقة زهرة الامة وزينتها وانما توزن بهم لانهم اذا حدث في الامة نجاح فانما يكون منهم . وهم المعول عليهم في الحقيقة لارتقاء الامة وتهذيبها وتعليمها . اذ هم كالاعضاء العاملة في الجسم . وهم الذين يسعون لاكتساب الفضائل فان ظهر نجاح في الطبقة السفلى فبإنهاضهم . وان ظهر تهذيب في الاخلاق من الطبقة المثرية فباجتذابهم لانهم هم الوسط بين الطبقتين تستفيد كل طبقة منهم وفي الحديث الشريف "خير الامور اوساطها" لانهم خلصوا من الافراط والتفريط . فليس فيهم خمول الطبقة العليا . ولا جهل الطبقة السفلى . فان حل في هذه الطبقة تقصير فقد خسرت الامة واصبحت لا نجاح لها . وليس في قوة الطبقة العليا ان تخطو خطو الطبقة الوسطى فتهذب الطبقة الدنيا . ومنزلة الوسط

في الامة منزلة المهيمن على الطبقتين . ولذلك كثيرًا ما ارسل الله الرسل الذين جعلهم اعلام الهدى للخلق من الطبقة الوسطى . ففيهم يمكن عقد الاخاء وهو اصل التعاون في جميع الاعمال الدنيويّة والاخرويّة . لان الحسد فيهم اقل منهُ في الطبقة العليا . وكفى انهُ لم يقم عالم متشرع ولا قاضٍ قانوني ولا محامٍ بارع ولا مهندس رياضي ولا فقيه دينيّ ولا ولا . إلاَّ كان من اواسط الامة الذين جمعتهم روابط العصبيّة . والخلاصة ان جماعة الوسط يمتازون بالقوة عقلاً وبدناً وعاطفة ويتبين لك كل ما ذكر مما سنذكرهُ في الابواب الآتية

الجامع الازهر والازهريون

الجامع الازهر وضع اساسهُ مملوك رومي من اهالي صقلية . وهو جوهر بن عبد الله الرومي المغربي مولى المعز لدين الله العبيدي وآخر من شاد بنيانهُ عبد الرحمن كتخدا ابن حسن جاويش القازدغلي وذلك قبل الرواق العباسي الجديد . اما جوهر الرومي فقصد مصر بعد موت حاكمها كافور الاخشيدي سنة ٣٥٨ للهجرة واستلمها بعد قتال قليل وخطط القاهرة وبنى الجامع الازهر على ما قالهُ جمهور المؤرخين . شرع في بنائهِ لست بقين من جماد الاولى سنة ٣٥٩ وكمل بناءهُ لتسع خلون من رمضان سنة ٣٦١ وترتب المتصدرون لقراءة العلم فيهِ سنة ٣٨٠ في عهد العزيز بالله المعز . وعليهِ فقد جعل هذا الجامع مدرسة للعلم سنة ٩٩٠ للميلاد . وهو اقدم المدارس المشهورة في العالم ولا يوجد في اوربا اقدم منهُ واكبر في وقتنا الحاضر سوى بضع مدارس . لكن التدريس لم يتصل فيهِ من ذلك العهد الى عهدنا الحاضر . فان الحاكم بن العزيز بنى جامعاً كبيرًا سنة ٤٠٤ للهجرة ونقل المدرسين من الازهر اليهِ ولم يبقَ في الازهر الاَّ صلاة الجمعة . ثم

اقفلهُ صلاح الدين الايوبي وبقي مقفلاً الى ايام الملك الظاهر بيبرس الذي وُلّيَ سنة ٦٦٥ للهجرة . اي بقي معطلاً من التدريس نحو مائتين وستين سنة . لكن الخلفاء الفاطميين استمروا على الاعتناء بهِ وان كان قد نقلوا التدريس منهُ الى جامع الحاكم . فان الحاكم نفسهُ وقف عليهِ الفاً وسبعة وستين ديناراً ونصف دينار تدفع لهُ كل سنة من الذهب العين المعزي . وجعل فيهِ تنوراً من فضة وسبعة عشر قنديلاً من الفضة . وذكر يوسف افندي احمد رسام لجنة الآثار العربيَّة ان في متحف الآثار العربيَّة بجامع الحاكم "الآن" محراباً من الخشب عليهِ كتابة بالخط الكوفي يقال فيها ما نصهُ

بسم الله الرحمن الرحيم . حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً . مما امر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الازهر الشريف بالقاهرة المعزية مولانا وسيدنا المنصور ابو علي الامام الآمر باحكام الله امير المؤمنين صلوات الله عليهِ وعلى ابائهِ الطاهرين وابناءهُ الاكرمين ابن الامام المستعلي بالله امير المؤمنين صلوات الله عليهم اجمعين وعلى ابائهم الائمة الطاهرين الهداة الراشدين وسلم تسليماً كثيراً الى يوم الدين في شهور سنة ٥١٩ والحمد لله وحدهُ

وفصل يوسف افندي احمد كيفيَّة تجديدهِ في عهد الملك الظاهر بيبرس . قال . ان الامير عز الدين ايدمر جدد بناءهُ ورد لهُ ما كان مغتصباً من الحقوق وتبرع لهُ بشيء جزيل من المال واطلق لهُ مالاً طائلاً من السلطان وشيد الواهي من اركانهِ واعلى سقفهُ ذراعاً بعد ان كان قليل الارتفاع ثم رمم وجدد بناءهُ في ازمنة مختلفة واضيفت اليهِ اروقة جديدة . ومن الذين اهتموا بتوسيعهِ وترميمهِ الملك الاشرف ابو النصر قايتباي والملك الاشرف قانصوه الغوري الذي بنى فيهِ

المنارة المنسوبة اليهِ وقد كتب عليها ما نصهُ

" امر بانشاء هذه المأذنة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الاشرف قانصوه الغوري عز نصرهُ بمحمد وآلهِ وكان الفراغ من عمل هذا المكان المبارك في شهر شوال المبارك سنة ٩٢٠ من تاريخ النبي " صلى الله عليهِ وسلم "

وآخر من جدد بنيانهُ واضاف اليهِ اضافات كثيرة قبل العائلة العلويَّة عبد الرحمن كتخدا بن حسن جاويش القازدغلي وذلك سنة ١١٦٧ للهجرة فانهُ انشأ فيهِ الليوان الشرقي المعروف باسمهِ والمدفون بهِ . وبنى رواقاً للصعايدة وجدد المدرسة الطبرسيَّة وانشأ الباب الكبير المشهور بباب المزينين وانشأ رواقاً للمكاويين والتكروريين . وللعائلة الخديويَّة الايادي البيضاء في توسيعهِ وتجديدهِ ولا سيما للجناب الخديوي " عباس حلمي الثاني " ففي عهدهِ بني الرواق العباسي وانشئت فيهِ المكتبة الازهريَّة العموميَّة . وبلغ ما جمع فيها حتى الآن نحو العشرين الف مجلد تقريباً قال " المقتطف " الاغر بعد ذكرهِ ما تقدم ولو كتب تاريخ الازهر من حيث بنائهِ واختلاف الاساليب التي جرى عليها بناؤُهُ ومزخرفوهُ لملأ كتاباً كبيراً

وفي الازهر الآن ٢٦ رواقاً و١٥ حارة ويدرس فيهِ ٢٣٦ مدرساً ويدرس ٨٨٠٩ طالباً . عددهم بالنسبة الى المذاهب هكذا

الجملة	مالكيَّة	شافعيَّة	حنفيَّة	حنابله	
٢٣٦	٧١	٩٦	٦٦	٣	علماء
	٢٠٣٠	٣٨٧٦	٢٦٣٢	٣٥	طلبة علم
٨٨٠٩	٢١٠١	٣٩٧٢	٢٦٩٨	٣٨	

واما مقدار ما ينفق على الازهر من خبز ونقود فبيانهُ هكذا

الجرايات يوميًا

رغيف	
٤٠٥١	وارد من ديوان الاوقاف
٧٦٢٣	" " اوقاف اهليّة
١١٦٧٤	الجملة يوميًا [1] « اما سنويًا فيكون عدد ما يأكلونهُ من الارغفة ٤٢٦١٠١٠ »

النقود سنويًا وارد من الماليّة

مليم	جنيه	مليم	جنيه	
		٥٢٨	٥٨٨٣	لحضرات العلماء واولاد المتوفين منهم باعتبار كل شهر ٤٩٠ جنيه و٢٩٤ مليمًا
		٧٣٧	٠٧٢٢	لحضرات العلماء بدل كسوة سنوية يصرف في شهر رمضان
٢٦٥	٦٦١١			

وارد من ديوان الاوقاف

مليم	جنيه		مليم	جنيه
	٧٠٠	لحضرات العلماء باعتبار كل شهر	٣٣٣	٥٨
	٦٤٨	" مدرسي العلوم الرياضية باعتبار كل شهر		٥٤
	٦٣٠	" معلمي الخط باعتبار كل شهر		٣٠
	٤٦٨	" مشايخ الاروقة . " " "		٣٩
	١٨٠	" العلماء على الوقف الحيري" " "		١٥
	٠٨٤	" " " وقف والدة حسين بك باعتبار كل شهر		٧
١٤٥	٠٣٥	" " من ثمن غلال سنوي		
	٦٠٠	مكافئات للممتازين بجودة التحصيل من طلبة الازهر		

(1) قال المستر بنفيلد قنصل اميركا الجنرال السابق بمصر في كتابهِ تاريخ مصر الحالي — ان العيش الذي يعطى للازهريين لا يأكلونهُ كلهُ بل يتصرفون في بعضهِ بالبيع بواسطة متعهدين يشترونهُ منهم —

البيان	جنيه	مليم	جنيه	مليم
للكتبخانة الازهرية	٢٠٠			
ماهيات لخدمة الجامع والكتبخانة باعتبار كل شهر ١٤٩ جنيه و٨٥٠ مليم	١٧٩٨	٢٠٠		
مصروفات ادارة الجامع	١٥٠			
للمجاورين على الوقف الخيري باعتبار كل شهر ٣٣ جنيه و٣٥٠ مليم	٤٠٠	٢٠٠		
لزاوية العميان	٠٤٨			
لاحياء ليلتي ١٣ و١٤ رمضان	٠١٤		١٢٢٩٦	٨٠٦

وارد من اوقاف الاروقة

البيان	جنيه	مليم	جنيه	مليم
رواق المغاربة	٣٦٤	٤٨٠		
« الصعايدة	٥٠	٠٠٠		
« ابن معمر	٠٤٢	٦٨٨		
« الشراقوه	٠٢٧	٠٠٠		
« الحنفية	١٢٠	٤٨٠		
« الشوام	٠٩٤	١٠٥		
« الاكراد	٠٦٨	٩١٠		
« الاتراك	٥١٦	٨٥٥		
« الحرمين	٠١١	٠٠٠		
« السليمانية	٠١٣	٣٦٠		
« السنارية	٠٠٦	٦٠٠		
زاوية العميان	١٩٦	٩٢٠		
	١٥١٢	٢٠٤	١٥١٢	٣٩٨
			١٣٨٠٩	٢٠٤

هذا هو تاريخ الازهر الشريف عن اصدق المصادر بسطناهُ بايجاز . اما ميزانيتهُ فقد اخذناها من مولانا العلامة الفاضل الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية . اما شيخهُ الآن فهو الاستاذ الاكبر شيخ الاسلام مولانا الشيخ سليم البشري . والغرض من الازهر الشريف انما هو تخريج اهل العلم في الدين والشرع من علماء وفقهاء ليتفقهوا في الدين ويفقهوا اهلهُ فيهِ مستمدين ذلك من الكتاب والسنة على مذاهب الائمة الاربعة [1]

وحيث ان الغرض من تعليم الازهر هو اخراج علماء الباء ذوي بصيرة نيّرة وفهم قويم . فالواجب على المتخرجين منهُ تهذيب اخلاق الامة بمعرفتهم التربية الدينيّة الصحيحة وبما منحوا من العلم النافع واستخراج الفائدة بعد طول بحثهم . والمدارس التي من هذا القبيل نحن احوج الامم اليها وهي بالنسبة الى المدارس الاخرى يجب ان تكون ارقاها درجة واعظمها نفعاً . لان المتخرجين منها هم قادة الشعب ورؤساؤهُ ووكلاؤهُ . ولا يحسن حال المتخرج إلاّ اذا كان المتخرج منهُ حسناً. ولكن من الاسف ان المدارس التي من هذا القبيل فضلاً عن قلتها لحاضرها مما يؤسف لهُ ولو كان الازهر الشريف مقر الرئاسة الدينيّة ومستودع احكام الشريعة الغراء . والواجب ان تكون حالتهُ الظاهرة والباطنة معادلة لاهميّة هذه الدرجة حتى يتجدد فيهِ ما اندثر من المجد في الازمنة الماضية . اما وقد اصبح اهلهُ يعدون

	ولادتهُ هجرية	وفاتهُ هجرية
	سنة	سنة
(١) وهم الامام ابي حنيفة النعمان	٠٨٠	١٥٠
" مالك ابن انس	٠٩٥	١٧٩
" محمد بن ادريس الشافعي	١٥٠	٢٠٤
" احمد بن حنبل	١٦٤	٢٤١

الفلسفة كفراً والمنطق زندقة والرياضيات ضلالة والطبيعيات بدعة والكيمياء فرية . ثم يفاخرون بابن رشد وابن سينا وغيرهم مع انهم هم الذين كانوا يشتغلون بتلك العلوم في عصرهم وهم الذين سطعوا بانوارها مشارق الارض ومغاربها فهذا دليل منهم على سوء حاضرهم ان لم يتداركوهُ بالاصلاح والتحسين . والازهريون في تعلمهم المسائل العقليَّة في دائرة ضيقة لا يتزحزحون منها . اذ طرق التعليم في الازهر الآن مما يعدم اظهار المواهب العقليَّة في الانسان لانعدام الوسائل التي تفتح للمتعلمين المجال الى ارتقاء الانسان في عقلهِ واعلاء همتهِ في شؤُون حياتهِ وسعادتهِ وذلك لانصراف الاعتناء من المعلمين الى حفظ القواعد المدونة في الكتب لا الى التمرين والعمل في الفنون التي يتلقونها . فانهم يقابلون كل شيء يلزمهُ الاشتغال بالعقل باوهام سخيفة نشأُوا عليها والظُّوا بها ولو لم يكن سلفهم الاول مثلهم قبلُ . وهم في علوم الدين والشريعة اشبه ببغاء يؤَدي الاشارة ولا ينفذ الى ما فيها من الاسرار وما انطوت عليهِ من مناهج الحكمة والقسطاس المستقيم . وكم اعترض عليهم معترض في امرهم وصاح بهم ان انظروا في تمحيص الحق من الباطل ولا تنظروا في تلك المشاغبات التي لا تجدي نفعاً ولا تدفع ضرًّا فلا يسمع منهم الاَّ قولهم " اعتقد ولا تجادل " ولو كانت احكام ديننا القويم تأْمرهم بالنظر في العلم والتبصر في كل شيء . ولا ندري كيف يكون لنا قوام منهم للنهضة الحقيقيَّة والعلم الصحيح وهم محسوبون على الامة انهم اهل العلم والفهم فيها . وتراهم يحضرون دروسهم على امل انها صناعات يجب عليهم ان ينظروها لا ان يتعلموها لينفعوا بها انفسهم واخوانهم كما هو الغرض من العلم والتعليم وقلما يزجر المعلم منهم تلميذهُ اذا تطاول عليهِ او بنصحهُ اذا اخلَّ بالآداب التي ينبغي ان يكون عليها . وكثيرًا ما يقع بينهم النزاع بما لا طائل تحتهُ ويفضي الى الشتم بدلاً عن التي هي احسن كما

هو اللازم بشأن امثالهم . وحبذا لو تعتني المشيخة بايجاد مراقبين على من يخل بآداب العلم او الدرس والمذاكرة . او تلزم المدرسين ان يكونوا هم انفسهم مراقبين على التلامذة وان يهتموا بنصحهم وتقويم عوجهم حتى يخلص لنا منهم علماء مرشدون وادباء مهذبون . لا يظنون ان قراءة الاوراد والاحزاب تبعد الجهل من بيننا (١) بل يعلمون ان من الواجب ان يرشدوا الامة في وقتها الحاضر الى ما فيهِ النفع لها بواسطة نشر العلم في الرسائل والمجلات . مع ان كل طائفة في مصر لها نشرة من سادة علمائها للتعليم وبث الفائدة بما يحسن الاعتقاد في الدين . ويبين حقيقتهُ التي غمضت . وهذا لعمري منتهى الجبن منهم والاغفال لواجبهم . وما عهدنا في من يعلم العلم ان يجبن عن اظهارهِ او يضن بهِ على اخوانهِ ومن يروم الانتفاع منهُ . هذا ولا يظنن القارئ ان علوم النحو والصرف وما بقي من مشتملات اللغة العربيةِ متقدمة عندهم او انهم مجيدون فيها . كلاً بل الحقيقة انهم مقصرون في الانشاء والكتابة فيها ولا يحسنونها وذلك لحفظهم القواعد وحدها دون التمرن على ما وضعت لهُ القواعد عملاً . فهم يجهدون القوى في البحث في القواعد دون تحصيل ملكة العلم التي بها يكون الانسان عالمًا حقيقيًا وبها يستغني عن النظر في القواعد واضاعة الزمن في صحتها وفسادها . فلذا ترى الاكثر منهم ليس لاحدهم مقدرة على التعبير عن فكرهِ . وهم ان كتبوا ظنّ القارئ لكتابتهم انها تعاليق او شرح على متن او تفسير لشيء مبهم . وكفى دليلاً على انحطاط طرق تعليمهم انهُ لا ينجح في امتحان العالميّة بين هذا الجم الغفير في كل سنة الاّ ثلاثة او اربعة اشخاص فقط . ومثل تفريطهم في الانشاء تفريطهم في ضياع اوقاتهم فيما لا يجديهم نفعًا ولا يغني عنهم شيئًا . فلقد اختلفوا مرة في مسألة صرف "عمر" وقضوا فيها

(١) ولا يقولون . ان شمهورش كان صحابيًا . وكان يحضر على المرحوم الشيخ السقاء

زمناً طويلاً بين اخذ ورد في القول بحرف " عمر " وعدمهِ حتى ضاع على بعضهم وقتهُ في البحث عن هذه الكلمة وسخر منهم كثير من معاصريهم وما انتج البحث في الصرف اضافة حرف او اهمال حرف . وبقيت كلمة عمر هي هي على ما هي عليهِ كما تركها سيبويه بعد دقة تصريفهِ وغرابة ترصيفهِ . ومثل تفريطهم في اوقاتهم تفريطهم في ضياع امتعتهم وكتبهم وملابسهم ودراهمهم . فان الزائر للازهر المعمور لا يمر بين عمود وآخر او خزانة واخرى الاّ يجد الاعلانات عن فقدان امتيائهم ملصوقة على الجدران . ولقد ذهبت اخيراً فعددت عشرة اعلانات احدهم معلناً فيهِ ضياع كيس نقود فيهِ سبعة عشر غرشاً ومليماً وآخر معلناً فيهِ ضياع كتاب " الكفراوي " وآخر ضياع شهادتهِ المدرسية (١) وآخر ضياع دواية نحاس وآخر معلناً بقولهِ " يا من لقي منكم جزمة على درس الشيخ رزق صبح فليسأل علي حسن ابراهيم " . وليس للازهريين عناية تذكر بالنظافة وكثيراً ما يراهم الانسان في صحن الجامع يحلقون ويتركون شعر الحلاقة يتطاير في الجامع وهم ينشرون الخبز في الشمس . وقلّ ان تعرف اجسامهم الماء صيفاً او شتاء . مع

(١) اليك صورة الاعلان المعلن بهِ صاحب الشهادة المدرسية نأتي عليهِ بالحرف الواحد ليتبين للقارىء تقصير الازهريين في الانشاء والكتابة

اعلان

حضرات المجاورين الفخام

اعلن حضرات المجاورين الفخام . بان الشهادة الدراسية الابتدائية تعلقي نحن حافظ امين ابن امين اسماعيل المولود في قلا "قليوبية" بتاريخ ١٨٨٣ فقد فقدت مني ما بين بيت الشيخ البجاري والبوستة والازهر فمن لقاها منكم فليكتب اسمهُ على الاعلان ويعرفنا عن مكانهِ في اي جهة ولهُ من الله الاجر ومن صاحبها المحترم الدعاء اناء الليل واطراف النهار . ومن قطع هذه الورقة قطعهُ الله من هذا المكان

ان النظافة اجدر بهم واليق ما داموا يقرأون قولهُ تعالى — وثيابك فطهر والرجز فاهجر — كما ان التربية والآداب فيما بين الكثير مفقودة مع انهما اهم شيء ينبغي ان يكون بينهم حتى يمكنهم ان يعظوا غيرهم ويرشدوهُ . ومن المعلوم ان فاقد الشيء لا يعطيهُ . ولكن اللعب مع بعضهم بعضاً موجود " ومن نقص في تربية نفسهِ كيف يتعرض لتربية الخلق " فانك لا تمر بينهم الاّ وتسمع سب الام والاب من شخص لآخر . نعم ان الآداب السامية بينهم ولكن في بطون الكتب التي يقرأونها ولا يعونها . والخلاصة ان حاضر الازهر محتاج لزيادة الاهتمام بهِ من جميع الامة صغيرها وكبيرها . وهو في حاجة لاستبدال الحصر بالمقاعد والكراسي فان الطلبة قلَّ ان تجد منهم من لم يكن مصاباً بالروماتزم والبواسير وسببهُ جلوسهم على البلاط شتاء وصيفاً . وحبذا لو تبارى الاغنياء في اهداء ذلك اليهِ واهداء الكتب التي تلزمهُ كما اهدى ورثة المرحوم سليمان باشا اباظه مكتبتهُ الى الجامع الازهر وهي على ما يقال نحو الفي مجلد اكثرها من الكتب الخطيةّ النادرة الوجود العزيزة المثال . وغير دلك من الوسائل التي لا بد للتعليم منها مثل الكرات الارضيةّ والفلكيةّ والخرايط والاطالس والمجسمات وغير دلك مما يوجد عند بعض الاغنياء مهملاً ويباع في المزاد بعد وفاتهم بابخس الاثمان حتى يسهل بذلك على اللجنة المنوط بها اصلاح التعليم في الجامع الازهر ويقوى فيهم حب ما نتمناهُ ويتمناهُ كل مسلم غيور على الاسلام راغب في ارتقاء العلم بين اهلهِ وامتهِ والاّ فقد تداوت للكل عللهم الاّ نحن فعللنا باقية في اندمال

الهمنا الله روح الحكمة والسداد حتى نفقهَ قول المرشد الاعظم — افضل من يمشي على الارض المعلمون والمتعلمون —

العلماء

" قال عليهِ الصلاة والسلام " من اراد الدنيا فعليهِ بالعلم ومن اراد الآخرة فعليهِ بالعلم ومن ارادهما معاً فعليهِ بالعلم

ماضي العلماء في الاسلام يظهر منهُ انهم كانوا مصابيح للدين يستضاء بنبراس هدايتهم للحق اليقين نجوماً للارشاد حلفاء للصدق . هداة للمارق والضال تقام بهم احكام السنة وتهدم بهم اركان البدعة . تشرق بهم انوار العدالة وتحلى بهم وتزهو بآدابهم اندية الفضل مصادر للعفة والنزاهة ويغنينا عن ذكر ذلك ان نتأمل في سير الماضين منهم رحمهم الله . اما خلفهم الآن فقد اهملوا كل ما تقدم وانقطعوا عن العمل بالنصح والارشاد للحق اليقين واصبح ضنهم بعلمهم على الامة غنيها وفقيرها مشهوراً . ولم يقتصر الامر على ذلك بل تناول اولادهم واحفادهم . فلذا ترى اولادهم يشار اليهم بالبنان في الجهل وسقم الفهم . ولو سألت عن ابن ذاك الشيخ الثاقب البصر والبصيرة الخادم للدين والشرع لساءك ما تعلمهُ عنهُ . ولتبين لديك العار والفضيحة من جراء عمل علمائنا الحاضرين لاشتغالهم فيما ليس فيهِ نفع الامة والدين بل وتضييعهم لما هو الصق بهم من تهذيب اولادهم وتربيتهم تربية حسنة مع انهم يعكفون على تضييع اوقاتهم بما لا يجدي نفعاً ولا يذهب ضرّاً ولو كانت الامة غنيها وفقيرها احوج اليهم كي يهدوها الى الشفاء مما الم بها مما لم يكن فيها قبلاً . في حين ان اكثر اهل الاسلام لا يعرفون من امور دينهم الاَّ ما ينكرهُ الدين عليهم وفي وقت اصبح الفكر فيهِ غير سليم من الاضطراب عند البحث في مسألة دينيَّة . وفي وقت تقلص ذلك العلم اليقيني والمعرفة الصحيحة وانبسط ظلال الجهالة والخرافة حتى تغيرت معالم كل شيء . ودخل في الدين ما الدين بعيدٌ عنهُ وبريءٌ منهُ . والاَّ فارني عالمًا منهم قام وحض الامة على نفع يذكر من مثل حض

الناس على المحبة وترك الشقاق المستولي على الكل والتفرق الذي اوصلنا الى أسوإ الاحوال — ولا ترني تداخل بعضهم لاستفحال الشر وجلب الضر بين الاخ واخيهِ ومسائل المواريث فانها معلومة امرها — بل أرني اعتراض البعض منهم على عدم مبيع الاوقاف للاجانب وغيرهم او أرني حض الناس على دفع مال الزكاة والزكاة واجب اداءها وهي احد الاركان الخمس الذي بني عليها الاسلام وما حضّ القرآن على شيء من الاركان حضهُ عليها . وزكاة المال فرض عين عند حولان الحول على كل مسلم بالغ عاقل مالك للنصاب . او ارني من قام ودل الامة على الاحاديث الموضوعة ليجتنبوها وهي عندنا تعد بالآلاف وذكر بعضها فاضل اديب[1] وان شئت فقل لا تجد بين العامة والجمهور منتشرًا وشائعًا الا الحديث الموضوع . تا لله لو كان علماء الاسلام يهتمون بحض الناس على التمسك بالفضيلة والبعد عن الرذيلة والسير بمخافة الله لما قامت للشرور بين الامة قائمة ولا انتشر فيها ما نشاهدهُ الآن وتجرع غصصهُ وآلامهُ

اما واكثرهم ضان بمعارفهِ باخل بعلومهِ وافراد الشعب خاصتهُ وعامتهُ في الرذائل قائمون منهمكون فلا عجب اذا دخل في الدين ما ليس منهُ ولا استغراب ان زادت الآثام الى الحد الذي يستوجب كدر العقلاء وكل ذي احساس . نعم اسف العقلاء من ذلك كثير ولكن اسفهم من عدم دعوتهم للدين اكثر اذ — الدعوة الى الدين وبعث البعوث لها من اطراف الارض الى اطرافها امر واجب في الدين الاسلامي فانهُ لم ينتشر من بطاح مكة الى حيطان الصين الى اقصى

---

(١) ذكر بعض تلك الاحاديث الموضوعة محمد البشير ظافر الشاذلي في مجلة الموسوعات عدد ٢٣ جزء ٢ وذكر بعض اسماء الكذابين والمتروكين عند ائمة الحديث والكتب المشحونة بها ولكن يوجد غيرها كثير لم يذكرهُ حضرتهُ

الغرب الى مجاهل الجنوب الى جزائر المحيط الا بهذه الدعوة محمولة في صدور رجال تجشموا متاعب الاسفار في زمن كان فيهِ السفر قطعة من العذاب فلم يمنعهم هذا العذاب من الوصول الى حدود الهند وغيرها خطوة خطوة يصيبهم الظمأ وينهكهم التعب وتنبري تحتهم ابدان الابل وتغور اعين المطايا [1] قاموا بهذا امتثالاً لامر الله بالجهاد في سبيل الله والجهاد ليس السيف وحده والسيف القاضب مخراق لاعب اذا لم تمضِ الدعوة حقهُ وجهاد الغي والغواية والجهل والجهالة والهوى والضلالة بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الاكبر وهذا هو الجهاد في الله قال تعالى – وجاهدوا في الله حق جهادهِ – قال المحققون من المفسرين في تفسير هذه الآية — هو امر بالغزو ومجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الاكبر — وعن النبي صلى الله عليهِ وسلم انهُ رجع من بعض غزواتهِ فقال " رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر "

هذه كانت سير السلف رضي الله عنهم وهذا كان ديدنهم وهذا كان عملهم في نشر الدين الاسلامي وانارة القلوب بنورهِ وهداية النفوس بهديهِ وتطهير الصدور من ادران الضلالة واوضار الخرافة بالادلة الساطعة والبراهين القاطعة . ولكن من نكد الدنيا ان خلف من بعدهم خلف انقطعوا عن العمل وقعدوا عن الواجب وركنوا الى الراحة ووقفوا عند التفاخر والتشامخ باعمال غيرهم حتى اضمحل ذلك التفاخر على طول الزمن بانقطاع العمل والعمل بنيان اذا لم يسندهُ عمل آخر تهدم وانتقض وما زلنا على هذا التقاعد والتقاعس والتخاذل حتى ضاعت الفرص

(١) رحم الله عقبة بن نافع القائل عند وصولهِ بجنودهِ شمال افريقا حتى بلغ المحيط الاطلنطيقي — اللهمَّ رب محمد لولا ان امواج هذا البحر تعوقني لذهبت لانشر مجد اسمك العظيم في اقصى حدود الدنيا —

وانسدت وجوه المساعي وأنست النفوس بهذا الخمول والفت القلوب هذا القعود[1] واصبح احدهم لا يهتز لمصيبة تقع على اخوانهِ و بني ملتهِ ولكنهُ يرتعد ويهتز اذا أُصيب بادنى شيء يقطع عنهُ معيشتهُ او يؤخر عنهُ منفعتهُ وهذا من الذين ذكرهم الله في قولهِ عن امثالهم من الذين لا يهتمون الاَّ لمنفعتهم (جعل فتنة الناس كعذاب الله) والمتأمل لرجال العلم والدين عند السوى يأخذهُ العجب لاقدامهم واحجامنا مما يجعلهُ ان يغبطهم ويتمنى لنا ما لهم فانا نسمع كل بضعة ايام بارساليَّة للتبشير تذهب الى الاقطار السودانيَّة من بروتستنت وكاثوليك بغية بثّ تعاليمهم وارشاداتهم وديانتهم حتى لقد بلغ منهم السعي انهم ترجموا الانجيل الشريف بلغة سكان النوبة (البرابرة) وطبعوهُ على ورق نباتي حتى يظنهُ ابناء تلك الجهات جزءًا من اجزاء القرآن الشريف ثم هم يوزعونهُ عليهم بدون مقابل وهو اول كتاب كُتِبَ على ما نعلم بلغة (البرابرة) ولا يحق لنا لومهم وتعنيفهم ما داموا يقدمون على كل عمل يعود على دينهم بالفائدة .[2] ولا يقتصرون على البعثات الدينيَّة

(١) عن مصباح الشرق عدد ٣٠

(٢) الفضل في ذلك للجمعية البريطانية والاجنبية لنشر التوراة والانجيل . وهذه الجمعية تأسست في سنة ١٨٠٤ بقصد نشر كلمة الله في العالم باسرهِ وقد صرفت هذه الجمعية اكثر من ٦ ملايين جنيه انكليزي في طبع وترجمة مائة وعشرين نسخة من الكتب المقدسة الى مائتين وثمانين لغة من اللغات التي لم يوجد لاكثرها حروف كتابية وكانت العلماء والمرسلون في كل الانحاء هم العاملين المجدين من طبيعتهم على اتمام هذا المشروع . ولم تخلُ بلدة من البلاد من نصيب من نفحات هذه الجمعية ولها في اوربا وكلاء ومكاتبين وعمال ومكاتب يشتغلون بكل وفاق واتحاد مع جمعيات المرسلين الاخر في اقصى البلاد . فالسوريون والعجم والهنديون والصينيون والحبش والكفرة وسكان مداغشقر وزيلانده الجديدة وبولينزيا والمكسيك والاسكيمو وامم أُخرى قد استمالوا بواسطة هذه الجمعية لسماع كلمة الله تتلى بلغتهم

بل يرسلون ايضاً البعثات الطبيّة وقد عزمت الجمعيّة المسماة " بتشرتش ميشونري سوسايتي " على بناء مستشفى تذكاراً لاسم غردون ولهذه الجمعيّة طبيب يدعى هاربر ورجل آخر من اشراف الانكليز الذين لا يستنكفون من خدمة الانسانيّة مع علو منزلتهم وقد سافرت جماعتهم في الشتاء الماضي للاقطار السودانيّة وشاهدنا سفرهم على محطة مصر في ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٩ وهم على اشدّ ما يمكن ان يكونوا عليهِ من الفرح والسرور العظيم . وودعهم جماعة من كبار الانكليز وسائر مستخدمي الجمعيات الانكليزيّة في القاهرة ومصر القديمة والدكاترة وطسن وهارفي من المرسلين الاميركان

والجمعية ترجو المسيحيين على اختلاف مذاهبهم ان يتكرموا ليس فقط بمساعدة الجمعية بعطاياهم بل للاستقاء من كنز المعارف والآداب التي تفتحهُ لهم . فالمدارس والمستشفيات والسجون والمحلات المخصصة للتربية والجيش البري والبحري يشهدون بما أتتهُ هذه الجمعية من الخيرات والمساعدة . وهي تعتبر ان الانقلابات السياسية والاشتراكية والمهاجرة والمعارض العمومية والحروب والمصايب التي تصيب عموم الجنس البشري كانها تطالبها بمضاعفة همتها لادخال كلمة الله في كل مكان

والجمعية يخدمها اكثر من الف مترجم ومصحح وكلهم يشتغلون بترجمة الكتب المقدسة الى لغات الارض ويصلحون الترجمات القديمة وقد ترجم الانجيل في سنة ١٨٩٩ فقط الى ١٣ لغة منها لغة قبائل الهنود وجنوبي اوستريا ومتوسط ما يصرف من الكتب بقصد توزيعهِ من مكتبة لندن وحدها يزيد على سبعة آلاف نسخة سنويًّا وما يخرج من المخازن الاخرى في الجهات الاخرى يزيد على ذلك . والجمعية المذكورة تطبع كتبها في لندن وباريس ونانسي وبروكسل وامستردام وبرلين وكولوني وفينا وروما ومدريد ولسبون وكوبنهاج واستوكهولم وبطرس برج والقسطنطينية وبيروت وبمباي وكلكوتا ومدراس وشنغهاي والكاب وسدني وفي باقي البلاد الاخرى الكبرى واخيرًا طبع الانجيل بلغة "البرابرة" في الاسكندرية

ترجمنا ما ذكر من مقدمة عينة ترجمة الانجيل الى لغات ورطان جميع الامم تقريباً المطبوع بمعرفة جمعية نشر التوراة والانجيل بشارع كوين ڤيكتوريا استريت نمرة ١٤٨ المطبوع سنة ١٨٩٠

وسائر سيدات المستشفيات ورئيسات المدارس الانكليزية وموظفو الجمعيات ولما تحرك القطار للسفر هتف لهم الحضور بصوت واحد داعين لهم بالتوفيق . ولقد اثر هذا المنظر في نفسي فدعوت لهم ايضاً شكرًا على همتهم . كما اني تألمت من ضعف همتنا وتقاعدنا عن اقرب الاشياء الينا وبعدنا عن المساعي المحمودة بهمة علمائنا العاكفين نهارًا على التفتيش في الكتب والتفاسير التي عليها (١) . حتى اذا وقف احدهم على بيت من النظم قديم قلّبهُ ذات اليمين وذات الشمال واكثر عنهُ البحث والتنقيب كالبيت الآتي

ويسقط بينها المرئي لغو كماء العنب في الدبة الحواء

ثم يتناظر مع رفقائهِ وكلٌّ منهما يجتهد في اظهار غلطة فيهِ . وقد يعكف اذكاهم على اظهار خطائهِ . ثم يقول ان فيهِ خمس عشرة غلطة بعدد اوتادهِ واسبابهِ ثلاثًا منهنّ من خطإِ الاشموني والرابعة من خطإِ الحفني وعشرًا من خطإِ الصبان والاخرى لغيرهِ وتشتغل الجرائد بكتابة الفصول الطويلة والجمل العريضة عن ذلك وباقي الامة يقرأُون وهم عن خيرهم لاهون . ولا يقتصر الحال على ذلك فقط بل إن مسألة منع "عمر" وصرفهِ شغلتهم ايضاً زمناً ليس بالقليل ولا تنسَ بحثهم عن نملة سليمان أَهي ذكر ام انثى فان هذا مما يضحك الثكلى . فهذه السفاسف وامثالها تثبت عدم اعتنائهم بوقتهم من جهة وغفلتهم عما هم فيهِ من الاحوال وما ينبغي ان

(١) وحبذا لو كان هذا البحث دأب الكثير ولكن منهم من لا يهتم بشيء من البحث ما دام يجد تعظيمًا من العوام وتفخيمًا من الجهلاء فتراهُ يلهو ويزهو وسواء عليهِ أَكان الاسلام والمسلمون في عز ورفعة او انحطاط وذلة . اولم يعلم ان اهم شيء يجب عليهِ هو السعي في ان يكون دينهُ عزيزًا وامتهُ مرتقية وهذا شيء ارشد اليهِ القرآن الكريم بقولهِ "ولله العزة ولرسولهِ وللمؤمنين" وفق الله علماءنا لان يكونوا عاملين بمقتضى هذه الآية الجليلة آمين

يكونوا عليهِ امام الله والناس . وهذه مسألة اصلاح المحاكم الشرعيَّة اقامتهم واقعدتهم ولا يزال تأثيرها في الاذهان لانهم حيروا الامة بمخالفتهم بعضهم لبعض في ما هو الصواب من ذلك كلهِ . ففريق كان يقول بان الاصلاح المنوي ادخالهُ على المحاكم الشرعيَّة مخالف للشرع . وفريق يخالف هذا القول ويكتب في الجرائد ضدهُ . حتى ان الامة للآن لا تدري بعد طول هذا الشقاق اي الفريقين مصيب في دعواهُ

ويغلب على الظن انهُ الفريق المجوز ادخال الاصلاح . والاَّ لما قبل بهِ العلامة الفاضل الشيخ محمد عبده ووضع لهُ ذلك التقرير المشهور (ولو كان للآن لم يعمل بهِ تماماً) والمنتظر تنفيذ ما فيهِ لانهُ هو الذي ينتظم بهِ امر هذه المحاكم وبهِ يعود اليها العدل والانصاف ويرتفع النزاع والخلاف ومن هنا يمكننا الاستنتاج ان زمن علمائنا في مصر ينقضي في ما لا نفع لهم وللامة منهُ وهذا شيءٌ يسوءنا ذكرهُ ويدل على ان اوقات العلماء تمر بلا فائدة سوى اظهار التقصير في العلم . والاقتصار على الدعوى عوضاً عن الاجتهاد في التحصيل . ولا شك ان الامة التي يسوسها في دينها ودنياها امثال هؤلاء الرجال تتأخر وتعفو آثارها ولست في حاجة الى تكرار الاسباب التي اوجبت جهالة هؤلاء ما داموا هم العاكفين على درس ما تقدم من كل شيء لا ينفع الاَّ في ازمانهِ الماضية

ذلك عملهم في النهار يعملونهُ حال اشتغالهم بعلمهم اما عملهم وقت فراغهم فيما بقي من النهار وبعض الليل فعمل وسعي حثيث في زيارة هذا العظيم والتزلف لذاك الغني او في بث الشكوى لولاة الامور من قلة المرتب والجراية والرجاء والواسطة في ميراث مورث او غيرهِ حتى اصبح امر تزلفهم مشهوراً عنهم بعد ان كان سلفهم اذا دعي احدهم لمجالسة امير او عظيم لا يلبي دعوتهُ وكما هو معروف في سير السلف

الصالح منهم (١) وقد حدث عند هؤلاء العلماء شيء لم يكن معروفاً لدى العلماء من قبل وهو سهرهم في الافراح والمحافل . فان العلماء قديماً كانوا لا يسهرون الى ما بعد العشاء الاّ قليلاً للمذاكرة وتحصيل العلم . اما الآن فترى بعض العلماء هذا ساهراً في فرح وذاك في وليمة او ليلة طرب يراهم الرائي وهم مختلطون بين القوم فيعجب ويأسف لزي عربي جميل كان اولى ان يصان من ان يكون بين السكّيرين ليلاً اذ يشاهدهم الناظر بقرب قاعات المشروب فيظن بهم ما هم براء منهُ . ومن الذي يبرئهم وهم مختلطون باولئك اختلاط الحابل بالنابل . تالله انهم يجرون عليهم بوجودهم في تلك المحافل اثم الظن وظن الاثم مع ما في ذلك من اقرارهم المنكر وعدم انكارهم اياهُ وكأن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس من شأنهم مع انهم المخاطبون بهِ والمأمورون بامتثالهِ . والاَّ فاين هم الآن والدين يحرم عليهم ذلك . ان الديانة الاسلاميَّة روح العمران وسعادة الانسان . وهي التي لا تجعل في الاذهان نقيصة او شبه نقيصة لمن وهب العلم بها واطلع على ما في كتابها الحكيم من مناهج الحق والكمال . الاَّ ان من العلماء الحاضرين من هم من أفسد الناس اخلاقاً وادابا . ولكن حاشا الدين ان يكون قد افسد اخلاقهم وآدابهم . ولكن المرجح ان لذلك

(١) في السير ان بعض الخلفاء ارسل يطلب احد العلماء فلما جاءهُ الخادم وجدهُ جالساً وحولهُ الكتب وهو يطالع فيها . فقال لهُ ان امير المؤمنين يدعوك . فقال قل لهُ عندي قوم من الحكماء احادثهم فاذا فرغت منهم حضرت . فلما عاد الخادم الى الخليفة واخبرهُ بذلك قال ويحك من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندهُ قال والله يا امير المؤمنين ما كان عندهُ احد قال فاحضرهُ الساعة كيف كانْ . فلما حضر قال لهُ الخليفة من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك فقال

لنا جلساء ما نمل حديثهم ... الباء مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فان قلت اموات فلم تعد امرهم ... وان قلت احياء فلست مفندا

اسباباً أُخرى هي على ما نعلم اشتغالهم بالدنيا وانكبابهم على التزلف للاغنياء وقلّة الثقة بالله وعدم المبالاة بالاوامر والنواهي حتى التحقوا بالعامة . ويكاد بعضهم يكون ذا خلقين خلق حال اجتماعهم مع الناس . وخلق حال وجودهم في بيوتهم مع نسائهم وخدمهم . يسلكون في كل حالةٍ مسلكاً يخالف الآخر . ففي الاولى اظهار اخلاص وولاء وطاعة وسعيٌ في انجاح حقوق الله . وفي الثانية سوء معاملة وكدر واحتقار بعكس حالهم في اجتماعهم مع الناس حتى انهُ ليصدق عليهم مثل العرب قديماً عنهم — ان اشد الناس بغضاً للعالم امرأتهُ وخادمهُ — وحتى ان زوجة الواحد منهم لا تتكلم عنهُ بين معارفها الاّ بذكر معايبهِ وقلّ من لا عيب فيهِ منهم

ولكن الذنب في ذلك على الازواج الذين لم يهدوا نساءهم الى العلم والتربية الصحيحة حتى لا يستوي لدى احداهنّ العالم والجاهل . ذلك حاضر العلماء عندنا فتأَملهُ وقل اللهمّ الممهم من لدن جلالك الاسمى مواهب الاتحاد المقرون بالثبات حتى يعوضوا مما فقدوهُ وفقدناهُ بسبب توغلهم في الاهمال . وحتى يمكننا ان نرفع رؤوسنا بهم بين الامم المحدقة بنا ونفاخرهم بعلمهم ونعلمهم اننا حقيقة كثيرون اقوياء

الوعظ والوعاظ

" لا خير في كثير من نجواهم الاّ من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيهِ اجراً عظيماً " (قرآن شريف)

الوعظ هو الحث على اداء عمل او اجتنابه سواءٌ كان بالترغيب او الارهاب او التذكير . فالترغيب انما يكون في عمل نتيجتهُ حسنة وعقباهُ حميدة . والارهاب لمن حاد عن جادة الصواب والصراط المستقيم . والتذكير لقوم نسوا واجباتهم او

تناسوها . فالوعظ اذاً نتيجتهُ ردّ النفوس الزائغة عن سواء السبيل وكبح جماح التائهين في بيداء الغي والضلالة وواجب اداؤهُ ممن وفق لمعرفة الحق ليردع الذين خدعوا بظواهر الاشياء وراجت عندهم الخزعبلات التي نخرت عظامهم وهم لا يشعرون . وتدثروا بالباطل وهم لا يعلمون . وهو دواء الهيّ وشفاء سماوي نافع لان القائم بهِ حق القيام يستمدّهُ من قول من وسعت رحمتهُ كل شيء . فالمحتاجون اليهِ هم اهل الغفلة في دينهم ودنياهم . الذين استولى عليهم القنوط في معيشتهم والحمق في اعمالهم . والذين تكاثرت على نفوسهم ارزاء الخطايا والاوزار . لان الوعظ للموعوظ بهِ اشبه شيء بالدواء للمريض . وكم من موعظة حسنة ضرب بها وجه السكير فاقلع عن سكرهِ . وصفع بها السفيه فغشيهُ الحياء . وسمعها التعيس فشملهُ التوفيق بفضل الوعظ والواعظين الذين وفقوا لتشخيص الداء ووصف الدواء . هذا هو الوعظ كما ذكرنا . وليس كما نسمع بهِ اذ ليست نتيجة وعظ اليوم سوى وضع التضليل على التضليل . ونحن ايها القارئ نقصّ عليك بعض ما يجري في الوعظ من الواعظين . ونسألك وأَبيك أَهذا هو المقصود منهُ ام لا . الوعاظ بيننا الآن اكثرهم ممن تلقوا العلم في الازهر الشريف وحفظوا القرآن والحديث كلمة كلمة ولكنهم لم يتفقهوا فيهما كمن يجب عليهِ حفظ ذلك ومعرفتهُ معرفة حقيقيةً . فتراهم في المساجد يجلسون للوعظ وارشاد الناس . واكثر ما يكون جلوسهم في ايام الصوم من رمضان وايام الجمع بعد تأدية الصلاة

يبينون على زعمهم ما اغمض على الناس فهمهُ . وهم احوج الناس لمن يبين لهم ذلك الذي يبينونهُ. فيذكرون للناس السنن ويتركون الفروض . كما انهم يشرحون الحرام ولا يذكرون الحلال . ويحببون الى الناس الجدال في الدين . ولو كان الجدال مكروهاً عند العلماء . فيجري هؤلاء العامة في الجدال جري العلماء فيهِ

حتى لقد يخرج الصاحبان متخاصمين بفضل هذا الجدال الامر الذي يوقع النفور بين الافراد ويصبح عثرة في سبيل توحيد الامة وضمها على قلب رجل واحد

نعم ان الجدال مع ما فيهِ قد يوقظ الفهم ويثير الانفة لاقتباس العلم . ولكن ذلك لا يجدي نفعاً ما دمنا نعرف حال العامة منا ممن حقت كلمة الله عليهم "ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير" وناهيك عما يعلمهُ هؤلاء الوعاظ وما يذكرونهُ من الاحاديث الموضوعة كذباً على النبي صلى الله عليهِ وسلم كالذي قيل عن الارز نذكرهُ[1] والاسف ملء الضلوع — الارز مني وانا من الارز — او (خُلِقَ الارز من بقيَّة نفسي) او (لوكان الارز حيواناً لكان آدمياً ولو كان آدمياً لكان رجلاً صالحاً ولو كان رجلاً صالحاً لكان نبياً ولو كان نبياً لكان مرسلاً ولو كان مرسلاً لكنت انا) او (من أكل الارز اربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبهِ) يقول الوعاظ هذا القول ولا يخشون الله وعذابهُ . وهؤلاء الوعاظ لا يقتصر وجودهم على مصر بل هم مبثوثون في كافة مدن القطر ونواحيهِ ولا يقتصر الامر على جماعة الوعاظ بل يشاركهم فيهِ ايضاً خطباء المساجد الذين فقدوا الرشد كما فقدت الامة الرشاد فضاعت بسببهم حكمة الخطابة وما وضعت لاجلهِ ولقد سمع احدهم خطيباً في الريف ذا جهل وتخريف صعد المنبر وحمد وكبر ثم انثنى في تفخيم وترقيق الى ذكر طول قصر ابي بكر الصديق . فقال . ان جبريل سار في طولهِ ثلاثة اشهر باجنحتهِ الاربعين ومن المعلوم انهُ كان ينزل على النبي صلى الله عليهِ وسلم بجناحين ويقطع الفي سنة وخمسمائة في دقيقتين[2] هذا بعض من كل مما يأتيهِ زمرة الوعاظ والخطباء

(١) نقلنا ذلك عن مجلة الارغول الاسلامية عدد ٣ سنة ٥ والعهدة عليها

(٢) انظر مجلة الارغول الاسلامية عدد ٣ سنة ٥

في المساجد لفساد الدين وتضليل المسلمين . الامر الذي نمسك القلم عن الخوض في عبابهِ لانهُ يفطر الاكباد ويفتت افئدة الذين يغارون على الدين . والله يعلم ما بنا من الاسف لقاء ذكر ما تقدم ولكنها الحقيقة نذكرها ولو جرحت . غير انا لا ننسى فضل بعضهم ولو كانوا قليلين جداً ولا ننسى فضل الفضلاء من كبار العلماء الذين علموا احتياج الامة للوعظ والارشاد واقدموا عليهِ بغية نيل الاجر والقيام بالواجب ومن هؤلاء العلامة الفاضل مولانا الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية حفظهُ الله . فانهُ يعظ بعض ليالٍ في درس التفسير الذي يقرأُهُ في الازهر المعمور . ولا يضن بالايضاح الوافي والشرح الشافي بما يقص على سامعيهِ من التفسير والتذكير . وبمقدار شكراننا لهُ نأسف كثيراً على بعض الازهريين الذين يحضرون حلقتهُ وجلهم وقت القاء تفسيرهِ يشغل نفسهُ بالمماحكات اللفظية ولا يعير سمعهُ للاستفادة والفهم كما ينبغي . وبعضهم لا يحضر الاَّ لتمضية الوقت بين المغرب والعشاء والتفرج لا غير . وكثيراً ما شاهدت الاستاذ الفاضل المنوه عنهُ يبرهن لهم على عدم صحة بعض التفاسير فلا يجد منهم الاَّ الخروج عن الطريق بالسؤال في مسألة منطقية او مسألة نحوية . وليس لهم غرض الاَّ اخراج الشيخ من دائرة البحث الى دائرة اخرى فيقابل ذلك حفظهُ الله بالصبر الجميل

تلك حال اهل الوعظ عندنا وهم المنتظر منهم استنارة العقل بالارشاد وصلاح القلوب بصالح التعليم والتهذيب

تالله لو داموا سائرين على خطتهم هذه ولم يحيدوا عنها ولم يجدوا من يردعهم عن غيهم ويوقفهم عن وعظهم حتى تستنير انفسهم ويفقهوا ما يقولون . قل على الاسلام الحق السلام وحسبنا الله ونعم الوكيل

القرآن والفقهاء

قد جاءكم من الله كتاب ونور مبين يهدي بهِ الله من اتبع رضوانهُ سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنهِ ويهديهم الى صراطٍ مستقيم (قرآن شريف)

القرآن كتاب مجيد . واجب التعظيم لا يمسهُ الاّ المطهرون . ابان ما لله على عبادهِ وما لهم عليهِ من الحقوق . ضرب فيهِ من كل مثل وما فرط فيهِ من شيء . جمع فاوعى كل ما فيهِ سعادة البشر في دنياهم واخراهم . وحقائق راهنة لا يزيدها كر الليالي وتعاقب الايام الاّ وضوحاً وسطوعاً . نزل على رسول الله " صلى الله عليهِ وسلم " وحياً حسب الوقائع . فكان رابطة للمسلمين وجامعة للوحدة الدينيّة . سورهُ اربع عشرة ومائة . تختلف طولاً وقصراً . ولا تتجاوز الاربعون الاخيرة خمسين آية . ولا تنقص عن ثلاث . وهو مكيٌّ الاّ ثماني عشرة سورة فمدنيّة

لهُ اسلوب شرعي في الترتيل يعرفهُ من عرف دينهُ وتفقه في شريعتهِ . وليست قراءتهُ الحقيقيّة كالقراءة الشائعة الذائعة الآن في اكثر البلاد الاسلاميّة . بل الحقيقة ان الصحابة والسلف الصالح كانوا يقرأونهُ من غير تلحين . ولقد انكر الامام مالك رضي الله عنهُ القراءة بالتلحين كما هو منصوص في مذهبهِ ومعروف واجازها الشافعي " رضي الله عنهُ " ولكن لا على الكيفيّة التي نسمعها من اكثر الفقهاء مما يجعل القراءة تغنياً . فقرئ القرآن على سبع طرق اختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها . وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها فمن اراد الوقوف عليها فليرجع اليها — وقرّاء القرآن فيما مضى من الزمن كانوا يتلونهُ بكل خشوع وادب وتدبر وتعقل . فاوجد فيهم كل الفضائل . كما ابعد عنهم كل الرذائل . ولا غرو فهو كلام المهيمن جل وعلا الذي لا يأتيهِ الباطل من بين يديهِ ولا من خلفهِ تنزيل من عزيز حميد

اما حاضر قرائنا الآن من الفقهاء فمما يؤسف له . فانه مع ما نراه من اكثرهم غير حافظين له تمام الحفظ لعدم فهمهم معنى الغرض من حفظه . تراهم يقرأونه في حالة التذاذ . بعذوبة اصوات وتوقيع نغم وهم لا يأتون على قراءة القليل منه حتى يختمونه بالغناء وانواع الخلاعة التي لا تناسب ذلك المقام العظيم . وهذا من الوقاحة التي كان الفقهاء امثالهم من قبل لا يعرفونها . وقد بعد الفقهاء الآن بعملهم هذا عما أمروا به واغفلوا عن واجبهم . فبعدت عن السامعين للقراءة موعظة القرآن الشريف وحكمته . وهبطت درجة تأثير النفوس من احكام هذا الكتاب السماوي الجليل . فهوى الارتباط الديني وضعف الاحساس الملي . وما منشأ ذلك غير الفقهاء الذين يتلون كلام الله بغير خشية منه تعالى

وما احسن واجمل ما كتبه الشيخ الفاضل صاحب المؤيد الاغر في مؤيده وفي المجلة المصرية العدد الثالث حيث قال . وفي اعتقادي ان تلحين الآيات القرآنية على الطريقة المألوفة الشائعة بين المسلمين كانت من اكبر دواعي انحطاطهم منذ قرون مضت الى الآن . لان هذا التلحين جعل القرآن من قبيل المغاني التي تؤثر على مشاعر النفس من السامع بتأثير الصوت وانغامه لا تأثير المعنى المقصود بالذات حتى ان السامع كثيراً ما ينتعش وجدانه سروراً او تنفعل نفسه انفعالاً يختلف آناً فآناً من مجرد سماع صوت القارىء تلحيناً من حيث لا يعرف الآية التي يلحنها لبعد ما بينه وبين القارىء بعداً لا يمكن معه تمييز الكلمات ما هي ومن اي سورة تتلى . وبطول العهد وزيادة إلف الناس لهذه الطريقة اتخذ تلحين القرآن ضرباً من الضروب المكملة لسرور الجماعات في الافراح او المسلية للنفوس في المآتم وشعائر الاحزان . وبذلك خرجت قراءة القرآن عندنا من الدائرة التي رسمها الوحي النازل بها من عند الله . الى دائرة صناعية يستوي الامر والنهي

والزجر الشديد . والقصص التاريخية والمواعظ الحسنة والدعاء . كلها تطبق على نقرات الجركا والسيكا والحجازي والعراقي وما اشبه فلا تقع الآية الصادعة بالحق في امري الدنيا والآخرة على سامع الاَّ كما تقع مقاطع التلحين عند سماع المغنين . تلك الآية التي كانت تلقى على سمع الاعرابي . وقد امتلأ قلبهُ كفراً وشرًّا . وآخر في كل جارحة من جوارحهِ غدراً للاسلام والمسلمين فكأنما هي الصاعقة نزلت من السماء باشد تأثيرها على جميع حواسهِ فيغشاهُ منها ما يغشاهُ . ثم لا يفيق الاَّ وهو صاغر امام هذه القوة الالهيَّة يبهت منها اولاً ويخضع لها ثانياً . اصبحت لا تؤثر على كل سامع لها بطريقة القراءة المألوفة الآن الاَّ كما تقع مقاطع التلحين عند سماع المغنين ان اجاد الملحن سمع من كل اطراف المجالس الله الله . احسنت . احسنت . كما يسمع المغني المطرب سواءً بسواء والاَّ فلا . ثم زاد الطين بلة ان ملحني القرآن انفسهم تفننوا في طريقة تلحينهِ بالتخنث بالصوت وابداء الحركات الغريبة المختلفة في الالقاء بما اخرجهُ عن كونهِ قرآناً الى الغناء المحض ففقد السامعون بذلك كل شيء يعزى الى قراءة القرآن وسماعهِ

واذا كان القرآن كتاب الله الذي انزلهُ على سيدنا "محمد" صلى الله عليهِ وسلم" لهداية البشر وتقويم اخلاقهم واصلاحهم في معاشهم ومعادهم ينقلب في كيفية ادائهِ والقائهِ الى هذا الحد وتنصرف مشاعر الوجدان عند سماعهِ عن معانيهِ الى محض مغانٍ هي لجوهرهِ الاسنى عرض عار مستعار . فليس بغريب ان تفسد الامة الاسلاميَّة بهذا الفساد كما كان صلاحها بذلك الصلاح . اه

المحاكم الشرعية وحاضرها

قال [1] العلامة الفاضل الشيخ محمد عبده في تقريرهِ المشهور . تدخل المحاكم الشرعيَّة بين الرجل وزوجتهِ والوالد وولدهِ . والاخ واخيهِ والوصي ومحجورهِ . وما من حق من حقوق القرابة القريبة او البعيدة الاَّ ولها سلطان السيطرة عليهِ والقضاء فيهِ . وانها تنظر من ذلك في ادق الشؤون واخفاها . ويسمع قاضيها ما لا يسمح لاحد سواهُ ان يسمعهُ سوى ما يكون من الزوج لزوجتهِ او الزوجة لزوجها . فكما انها هياكل عدل هي كذلك مستودع سر واي سر فمنزلتها من نظام الأَسر "العائلات" تلي منزلة المحبة وروابط القرابة . فاذا تراخت تلك الروابط ومرضت المروءات تعلق حفظ نظام البيوت بالمحاكم الشرعيَّة . وللشريعة الاسلاميَّة في ذلك دقائق لا يسهل الالتفات اليها الاَّ على من احاط علماً بكليات احكامها ووقف بالبحث الصحيح على مقاصدها . ووصل الى ادق معانيها وكان من العلم بلغتها في منزلة يعرفها لهُ اربابها . ولن يكون الرجل كذلك حتَّى يأْخذ الشرع عن اهلهِ وتكون تربيتهُ على السنة الدينيَّة الصحيحة . ثم لا يكون القاضي حافظاً لنظام الأُسر والبيوت بعد الاحاطة باحكام الشرع حتى يكون للشرع سلطان اي سلطان على نفسهِ

هذا هو التعريف الحق عن هذه المحاكم في تقرير وضع تتدفق منهُ الغيرة الدينيَّة رحمة بمعاهد الشرع الشريف . ونحن نقتطف من هذا التقرير ما يدل على الخلل في المحاكم الشرعيَّة . اذ بفضل الاستاذ قد اكتفينا مؤُونة البحث في هذه المحاكم من الوجه الذي وضعت لهُ

---

(1) انما آثرنا نقل ما كتبهُ حضرة الاستاذ لانهُ اوفى دلالة واوسع اطلاعاً وقولهُ الفصل في هذه المباحث الهامة والمقاصد العامة ولا زال يفيد الامة خيراً واصلاحاً

قال حفظهُ الله عن اماكن هذه المحاكم . اذا ذهبت الى ديوان مديرية واردت ان تعرف محل المحكمة الشرعيَّة في ذلك الديوان فابحث عن اردإ محل فيهِ تجدهُ مكان المحكمة الشرعيَّة . ثم قال عن فرش هذه المحاكم انهُ رثٌّ قذر وعن الكراسي التي توجد في هذه المحاكم انها من الصنف المعروف بالاخضر . وان وجد عشرة فستة كراسي لا تخلو من كسر . وقال عن حالة الكتبة انهم يشترون الحبر من مالهم . وانهُ حفظهُ الله نظر مضبطة في محكمة من المحاكم طمست سطورها من رداءة الحبر . وقال في ختام كلامهِ عن محال المحاكم الشرعيَّة انها سبب يجعل المتقاضين ينظرون الى القضاء الشرعي بما يحط من قدرهِ

وفي باب الكتبة ما مؤداهُ . ان اكثرهم لا يعرف كيف تعلم صناعة الكتابة . ولا اين كانت تربيتهُ فلذا تكون معرفتهم ناقصة وقليل بينهم الكفوءُ لعملهِ . وانهم يحفظون الفاظاً وعبارات رديئة التركيب مشوشة التأليف الى ان قال . ثم علمت من اختلاط ارباب الحاجات بالكتاب ما لا يمكن معهُ انقطاع الشكوى . ومهما وضع من القواعد لضبط الاعمال لا يمكن ان يقطع شأفة الفساد مع دوام هذا الاختلاط

وجاء عن القضاة . انهُ وجد كثيراً من قضاة المحاكم الشرعيَّة خصوصاً في المراكز لا تسر معارفهم الشرعيَّة والنظاميَّة . ولا يرضى العدل في اعمالهم وان الحاذق منهم يحوّل جميع القضايا تقريباً الى محاضر صلح تجنباً للحكم . ولا يلبث المتصالحان بين يديهِ ان يختلفا لان الصلح غير حقيقي : وان كثيراً من القضاة يتحاشى سؤال الخصم فيما يهم السؤال عنهُ خشية التهمة . ولكنهُ يستبيح لنفسهِ ان ينصح احد الخصوم بان يطلب شطب القضيَّة

وفي الاعمال الكتابيَّة . قال . حفظ كتاب هذه المحاكم الفاظاً معينة يضعونها

في اساليب معتلة مع تكرار بارد يعسر معهُ الفهم ويسأم منهُ الذهن . وان لهؤلاء الكتّاب جرأة في تعريف الاشخاص من متعاقدين وشهود وجيران في الحدود حتى يضطرونهم الى الكذب . اوالى اختراع اسماء يتخلصون بها من جهل الكاتب وحماقتهِ

وذكر الاستاذ حفظهُ الله . انهُ رأى اشهاداً باقامة الجناب الخديوي ناظراً على وقف في دمياط استغرق سبع صفحات بالخط الدقيق وهو لو كتب بالخطوط المعتادة لاستغرق عشرين صفحة اوما يزيد . ومعظمهُ من اللغو الذي لا فائدة فيهِ بل مما يضر بفهم الكلام . وانهُ اي الاستاذ جاءهُ رقيم بطريق البريد من احد الادباء يستغيث بهِ مرسلهُ من تكرار لفظ المذكور والمذكورة في عقود المحاكم ومرافعتها . وانهُ عرض لهُ ان عدّ هذين اللفظين في شهادتين صغيرتين فوجدهما تكرّرا سبعاً وعشرين مرة . ربما يحتاج الكلام الى اربع مرات منها فقط والباقي لغو لا معنى لهُ

وقال عما يتعلق بالعقود الواردة من المحاكم المختلطة الى المحاكم الشرعيّة ما نوجه اليهِ نظر القارىء ليقرأهُ من الصحيفة ٢٣ الى ٢٦ من التقرير المذكور

وجاء في الكلام على اختصاص المحاكم الشرعيّة ما يؤخذ منهُ ان بعض القضاة يلتبس عليهم الامر عند التخاصم فيحكمون بعدم الاختصاص فيما هو متعلق بالمواد الشرعيّة وفي باب المرافعات . والتوكيل في المخاصمات من صفحة ٣٥ الى ٤٤ ما يدل على مصاعب جمة تفضي بالحقوق الى الضياع كما قد يضيع الوقت على القاضي في سؤال المنادي وتعريف الزوج الغائب والزوجة الحاضرة مما يدل على ان الحقوق معطلة والمصاعب دون الوصول اليها غير مذللة مع ان دين الله يسر ولا عسر فيه[1]

(١) وقد قال تعالى ما جعل عليكم في الدين من حرج وقال عليهِ الصلاة والسلام بعثت بالحنيفية السمحاء ليلها كنهارها

وما ذلك الاّ لتمسكهم بالمذاهب والاخذ بظواهرها بدون انعام نظر في مقاصد قائلها . وفي الكلام عن الجلسات في هذه المحاكم انهُ لا نظام فيها . وان المتخاصمات من النساء يلعبنَ في اطراف المكان وليس في المجلس ما يمنع متكلمًا ان يتكلم ولا مشوشًا ان يشوش . واذا دخل على القضاة محترم قاموا لهُ وحيوهُ والمرافعة جارية . وقد قال الاستاذ انهُ رأى بنفسهِ الكاتب ذا سلطة اكثر من سلطة القاضي مما لا يليق بحرمة القضاء الاسلامي الذي كان يعد مجلسهُ اوقر المجالس واعظمها هيبة حيث كان يجلس الخليفة

وفي باب حضور الخصوم ما يشهد بعظم الخلل مما يجعل القضايا تشطب او تنظر بعد زمن طويل

وفي باب المرافعة ما نوجه اليهِ نظر القارىء ايضاً ليراهُ في التقرير المذكور من الامور المضحكة وكذا في باب الشهادات والادلة ما فيهِ من المماحكات وتضييع الحقوق على كثيرين وكذا في باب التنفيذ امور تجعل التنفيذ كعدمه لقلة اهتمام اولي الامر في المحافظات والمديريات

هذا مختصر مما بينهُ الاستاذ حفظهُ الله في تقريرهِ المذكور . ومن يعرف عطل الاشغال في هذه المحاكم الشرعيّة وما يجري فيها من شهادة الزور[1] وتلاعب المأذونين في عقود الزوج الذين اكثرت الناس الشكوى منهم . واتعب الحكومة امرهم وعم ضررهم الازواج والزوجات وادخل بسببهم في الانساب ما ليس منها . ومن يعرف

(١) حدث اخيرًا من بعض الشهاد امام محكمة مصر الشرعية الكبرى ان الشاهد يؤدي شهادتهُ من ورقة فيها صورة الشهادة . وقد نظرت محكمة الموسكي الاهلية الجزئية في هذه القضية يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٩٩ وبعد ان اعترف المتهمون بذلك ودافع عنهم المحامون دفاعًا طويلاً حكمت المحكمة عليهم بالبراءة . نظرًا لان القانون لا يعاقب شاهد الزور الاّ اذا حلف اليمين والاّ فلا تعتبر شهادتهم

ان المحاكم الشرعيّة فيها الآن من التلاعب بالحق والباطل ما فيها وعرف ان حجابها يستبدون ومحاميها قد نسخوا الشرع باقوالهم . علم ان الشرع اصبح منسوخاً بسببهم حتى كثرت المساوىء وذهبت الغاية المقصودة منها . وغير ذلك كثير يحصل في مسائل المواريث وغيرها ولذلك يطلب العالم بهذه المساوىء مع الطالبين الى ولاة الامور الاسراع بادخال الاصلاح الحقيقي الذي ذكرهُ فضيلة مولانا المفتي في تقريرهِ رأفة بالعجزة الذين لا قوة لهم وبالامهات والاطفال والضعفاء الذين لا سند لهم والذين جرهم نكد طالعهم المقاضاة امام هذه المحاكم . وليس بعزيز لو أُخلصت النيّة في اصلاح المحاكم الشرعيّة ان تهدى الامة الى شرعها الشريف الذي لا تأخذهُ في الحق لومة لائم وقد جعل الله فيهِ صلاح الدين والدنيا معاً فعسى قومنا يتأملون والى شرعهم القويم يرجعون ففيهِ كل الخير والصلاح والنجاح

المدارس والتعليم

المدارس الابتدائية

كان التعليم في مصر من عهد غير بعيد اجبارياً . ولاجل ان يعلم القارىء حقيقة احوال المعارف في الازمنة الغابرة وطرق التعليم فيها نذكرهُ بالحالة التي كان عليها قطرنا قبل وقتنا هذا بمئة عام ليقيس بمعيار ذكائهِ درجة العلم في الماضي بعلم وقتنا الحاضر فنقول

كانت بلادنا المصريّة منذ مئة عام او تزيد غارقة في بحار الجهل والخمول بسبب تملك دولة المماليك عليها . والولاة الذين كانوا يولون تباعاً بعد انقراض هذه الدولة من قبل دولتنا العليّة صاحبة الدولة وقتئذٍ ولا يمكثون الاّ قليلاً ريثما ينالون

غرضهم في زمن توليتهم . وهو جلب المنفعة والمغانم اليهم باية وسيلة كانت . ولذلك السبب لم يعبأوا بنشر التعليم ولم يهتموا بهِ وجاراهم في ذلك المسلمون منا اقتداء بهم فلم يهتموا ايضاً بتحصيل العلوم والمعارف في زمن هؤلاء الولاة الغاشمين الاَّ القليل منهم فانهم كانوا يقفون انفسهم على تعليم الدين في الجامع الازهر المعمور . اما غيرهم من الطوائف الاخرى فصرفوا جلّ اهتمامهم الى حفظ حياتهم وكيانهم بالعلم . ودليلنا على ذلك ما كان عليهِ الاقباط من المنزلة الكبرى في مناصب الدولة المصريَّة والمقام الاعلى فكانوا متقلدين وظائف حسابيَّة وكتابيَّة وادارية كلها على جانب عظيم من الاهميَّة والخطارة دون منازع او مزاحم لانغماس المسلمين في بحار الجهل واستصغارهم لامثال هذه المناصب التي لا تليق على زعمهم باصحاب البلاد نظيرهم

على انهُ ما مضى زمن كبير يذكر حتى منّ الله سبحانهُ وتعالى على بلادنا وعلينا بولاية المرحوم الحاج محمد علي باشا كبير الاسرة الخديويَّة الكريمة . الذي نظر لامر التعليم نظرة الحكيم العاقل فوجه انظارهُ الى المعارف وخطا فيها الخطوة الكبرى مما لا يزال أثرهُ باقياً بيننا للآن . وبين ظهرانينا الآن بضعة من اولئك التلامذة الذين درسوا في المدارس التي أسسها رحمهُ الله من ابتدائيَّة وتجهيزيَّة وعالية

وكانت العلوم التي يتلقاها الطلبة فيها من هندسيَّة فطبيَّة على نوعيها البشري والبيطري فعسكريَّة فلكيَّة . وكان اثابهُ الله وطيب ثراهُ يجبر اهالي التلامذة على ارسال اولادهم الى المدارس المجانيَّة التي كان يغدق عليها من فيوض مراحمهِ واحساناتهِ. وكان يبعث بالنابغ منهم الى اوربا لتعليم العلوم العالية حتى اذا عاد استعان بامثالهِ (١) في القيام باعباء الوظائف في خدمة الحكومة وتنظيم شؤونها (٢) ودام على

(١) ومع هذا فلا ننكر ان بعضاً من المتعلمين في البلاد الاوربية لم يجعلوا في المناصب التي يليق بهم ان يكونوا بها فضاع كثير مما كان يؤمل ان ينمو بيننا نموًّا حقيقيًّا فان كثيرًا

عملهِ هذا حتى توفاهُ الله وخلفهُ من بعدهِ ابناؤهُ الكرام الذين حذوا حذوهُ في عملهِ المشكور الى زمن الخديوي الاسبق "اسماعيل باشا" رحمهُ الله الذي تقدمت المعارف في اول عهدهِ ونمت واخرجت العلماء والفضلاء فكانوا منارة ساطعة في ظلام الجهل وائمة تحج اليهم ركاب الطلاب من كل صوب وناد. ولكن لم يكد التعليم يبلغ ذلك المبلغ الكبير حتى اخذ في اواخر ايامهِ بالتأخر والهبوط وابتدأت المعارف في هبوط مستمر وخصوصاً قبل ايام شبوب نيران الثورة العرابيَّة وما بعدها. التي اوجبت تشويش كل عمل نافع في ذلك الحين وبعدهُ. فاعترى ازهار المعارف اليانعة الذبول واقمار العلوم المشرقة الافول وعفت آثار العلم وعلت عناكب النسيان والاهمال جدرانها وكادت يد الاقدار تمحو ما خطتهُ يدُ التقدم من الفنون لولا ان قيض الله محيي مواتها ومجدد آثارها سليل المجد وربيب الكفاءة ساكن الجنان المرحوم "توفيق باشا" الخديوي السابق الذي في عهدهِ انتعشت روح العلوم وعادت الى سابق مجراها ولكنها لم تكن لتصل الى ما وصلت اليهِ من قبلُ. وسبب ذلك عدم الاهتمام الذي اظهرهُ المحتلون للبلاد وقلة ما هو مخصص لها في ميزانيَّة الحكومة

ويكاد المستفسر عن ذلك يعلم من متولي ادارة المعارف قولهم ان على الاغنياء والموسرين ان يتبرعوا بشيءٍ من اموالهم للاعمال اللازمة لنظارة المعارف. وان

من الذين اتقنوا الرياضيات والطبيعيات لم تستقر وظائفهم على ما علموهُ ليكونوا عاملين حقيقة بل جعلوا في وظائف وان تكن سامية ولكن بمزاولتهم لها أهملوا ما كان ساطعاً في نفوسهم ففقد القطر الانتفاع بما عندهم في الوقت الذي كان احوج ما يكون اليهم وعلى كلٍّ فان ما تحصلت عليهِ مصر في ذلك الحين لم يكن منتظرًا ان تحصل عليهِ ببضعة قرون ولله في خلقهِ شؤُون

(٢) نوجه التفات القارىء الكريم لقراءة ما كتبهُ المغفور لهُ علي مبارك باشا في كتابهِ "الخطط التوفيقية" المطبوع سنة ١٣٠٦ هجرية عن تاريخ حياتهِ

يتباروا في ميدان البذل والعطاء كما جرت عادتهم في بلادهم فاعلوا بهذه الواسطة منار العلم والادب بين ظهرانيهم سعياً وراء الارتقاء لان المرء عليهِ ان يتوخى في اعماله نفع وطنهِ وبلادهِ وهذا اعظم سر لارتقائهم في مضمار الحضارة والعمران في هذا الزمان . وانت لو اعترضت عليهم لحاجوك بقول آخر. وهو لماذا لم تساعد الاوقاف على انتشار المعارف وانتشار المعارف كما تعلم عمل يرضى بهِ الواقفون لكونهِ عملاً خيريًّا . فان اجبتهم ان بين المعارف اوقافاً يبلغ ريعها من ٣٠ الف جنيه الى ٣٥ الفاً كل سنة وقفها الكثيرون من اهل الخير كما اوقف ساكن الجنان اسماعيل باشا الخديوي الاسبق على الكتاتيب الاهلية تفتيش الوادي وزوائد المساحة في المديريات والحصص التي آلت الى بيت المال . أجابوا انهُ واجب على الامة انفاقها على المعارف لاحيائها وتعميمها ليعود عليها وعلى ابنائها بالربح فيرتفع شأن الوطن والوطنيين ويزيد العلم في مجدهم وفخارهم لان المرء يعتز بعز أُمتهِ ويذل بذلها وما مدارس الحكومة الاَّ مثالٌ للمدارس الخصوصيَّة ينسج على منوالهِ الناسجون . نعم لا مراء في ذلك كلهِ ولكن كيف تفهم الامة ذلك وهي في حالة ظاهرة من التأخر ولو انهُ قد ثبت بالاستقراء ان المصريين ليسوا اقل من الانكليز والفرنسيس سخاء وبذلاً للمال ولكن اكثرهم لا يضعون كرمهم في مواضعهِ ليجنوا منهُ الثمر المطلوب ويعود بذلهم بالنفع عليهم . وقد ادرك الكثيرون ذلك اخيراً فانشأُوا المدارس الخاصة بهم لتعليم ابنائهم وتنافسوا فيها ولكن لا يزال المسلمون وهم الاكثر عدداً اقل همة من الطوائف الاخرى المتألفة منها الامة المصريَّة لقلة المطلع على فائدة التعليم منهم . ولبيان ذلك نقول لما علم نبهاء الامة القبطيَّة ان لا وسيلة لبث العلم والمعارف الاَّ بالمدارس الاهليَّة الخاصَّة على التعليم لينشأ فيها رجال الغد مستكملين للفضائل عالمين بمعرفة ما ينفع وما يضر بلادهم وابناءهم . نهضوا نهضة

كبرى لانشاء المدارس الاهليّة ولم يدعوا فرصة تذهب سدًى لتشييد اركان المدارس وتوطيد دعائمها فاينعت عندهم رياض المعارف وسارت مدارسهم على منهج من التقدم قويم . إلاَّ نحن معاشر المسلمين فانا رغبنا عن السعي وجعلنا دأبنا وديدننا التنديد على الحكومة لانها على مذهبنا ملزومة بتعليم اولادنا مدفوعة بحق الحكم الى ترقيتهم في معارج التربية والتعليم وعكفنا على التنديد اعواماً كثيرة ولا نزال حتى الآن مع علمنا بانَّ باقي الطوائف قد اهتمت بتعليم اولادها باعتمادها في ذلك على نفسها وعلى غيرة افرادها حتى تقدموا وتأخرنا نحن لاصرارنا على مطالبة الحكومة بتعليم اولادنا وعدم اهتمامنا بان نعلمهم بانفسنا وقد تمر السنين ويشب الولد ويكبر ونحن نتناسى واجباتنا القوميَّة في هذا المطلب سائلين الحكومة المبادرة الى عمل ما نظنهُ من واجباتها دون ان نقتدي بالطوائف التي تسعى لازالة عوائق التقدم من سبيل غايتها المجيدة وازالة كل آفة تلحق بسير التعليم ضررًا حتى حصدوا اخيرًا نباتًا جيدًا ونحن حصدنا نتائج اهمالنا وعاقبة تقصيرنا [1] ثم هم يطلبون الاحسن فائدة لتقدمهم مشمرين عن ساعد الجد باذلين قصارى الجهد . وما حملهم وحقك على الجهاد في سبيل التعليم غير علمهم بان لا شيءَ يخوّل للسيد سيادتهُ وللخادم خدمتهُ الأَّ سبب معرفة الاول بما يوصلهُ للارتقاء وعدم معرفة الثاني ما يرقيهِ في مدارج العلاء . نعم لا ننكر فضل الهمة التي ظهرت اخيرًا ولكن ذلك قليل على امة تعدادها يقارب تسعة ملايين من النفوس . ولسنا في الحقيقة الاَّ متأخرين اذ لو قابلنا بين عدد المدارس الاهليَّة الاسلاميَّة والمدارس التي للطوائف الاخرى في

(١) ان نسبة المسيحيين الى المسلمين اقل من نسبة ٢ الى ١٠ ومع ذلك فعدد التلامذة المسيحيين الذين نالوا الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ ٢٥٠ اي اكثر من ثلث التلامذة الذين نالوا الشهادة كلهم

كل بلد لوجدنا ان نسبة ما للطوائف الاخرى يضاهي عشرة اضعاف ما لنا . خذ لذلك مثلاً اي بلد شئتهُ ترَ صدقَ ما نشير اليهِ . ونحن نقدم لذلك مثلاً مدينة سوهاج في الوجه القبلي فان فيها خمس مدارس وطنيَّة عدا مدرستها الاميريَّة منها واحدة للمسلمين واربع للاقباط وكذلك المنيا فيها سبع مدارس غير مدرستها الاميريَّة واحدة للمسلمين وست لاخواننا الاقباط ولا يعزب عن فكر القارىء ان مدارس الاسلام قاصرة على تعليم الذكور اما مدارس المسيحيين ففيها من الذكور والاناث على السواء والفضل كل الفضل في انتشار مدارس المسيحيين انما هو لجمعياتهم . التي اوجدت فيهم النهضة الحقيقيَّة في طلب المعارف . واذا دامت نهضتهم هذه وعمت جميعهم لم يمر عليهم زمان طويل حتى يصبحوا في المعارف من الذين يشار اليهم بالبنان ونحن يشار الينا بالغباوة والجهل . ولكنَّ نهضتهم وتأخرنا عائق مهم لتقدم مجموع الامة اذ هم بالنسبة الينا كنسبة ٦ الى المئة ونحن كنسبة اكثر من ٩٢ في المئة بحسب الاحصاء الاخير فكيف تعتز الامة المصريَّة والشطر الاكبر منها جاهلٌ واجبات الحياة والارتقاء . ان نهضة الاقباط حقيقيَّة شهد بها الكل واية شهادة اكبر من شهادة اللورد كرومر في تقريرهِ الاخير من ان المسلمين في مدارس الحكومة اقل من ٨ في المئة وعدد التلامذة من الاقباط في المدارس الاميريَّة ١٧ في المئة فلا بدَّ لذلك من سبب ؟؟ والسبب هو انا نرى منهم حباً للتعليم واقداماً شديداً عليهِ وولوعاً بالتقدم . غير انا نذكر علة هي السبب المهم لانحطاط التعليم عندنا معشر المسلمين وهي ناتجة من فكر متسلط على الاغلبيَّة منا وهو قولنا عن مدارس الاجانب انها تميل قلوب التلامذة نحوهم ونحو دينهم . ولذا نحجم عن ارسال ابنائنا الى مدارسهم ونحرمهم من التعليم فيها بيد ان الطوائف الاخرى المسيحية قد عكفت على ارسال ابنائها اليها فنجحوا وتقدموا ونحن لم ننتبه

لهذه الغلطة ونقدم على انشاء المدارس التي تغنينا عنهم والتي نحن احوج اليها منهم الاَّ في هذه السنين الاخيرة وما سبب ذلك الاَّ انقسامات الدين فان المسيحي يظن ان بواسطة ادخال ابنهِ لمدارس المسلمين يسلم والمسلم يظن ان بواسطة ادخال ابنهِ المسلم لمدارس المسيحيين يستنصر . وفي ذلك ما يدل على استحكام الجهل في عقول الآباء . "وقد كان الجهل هذه المرة مفيدًا في الاقدام على التنافس" وتملك ملكة الانقسام بين العنصرين الوطنيين لدرجة توءَدي بهم للهلاك وهم لا يدركون والاَّ لو علموا الواجب وتركوا الانقسامات من بينهم لانشأوا المكاتب لقبول الطلبة من المسلمين والنصارى معًا على نسق المكاتب الرشديَّة الموجودة في بلاد الدولة العلية التي يبلغ عددها المائة ما بين داخلية وخارجية ولامتنع ما نشاهدهُ الآن من احجام اب التلميذ عن ادخال ابنهِ للمدرسة التي تكون من غير مذهبهِ وملتهِ كما هو مشاهد في مدارس الجمعيات الاسلامية والجمعيات المسيحيَّة . فانهُ مع عدم وجود المدارس للمسلمين في بلد يمتنع الآباء عن تعليم ابنائهم وكذلك تفعل امة الاقباط وغيرهم لو لم يكن لهم مدرسة والسبب هو الانقسام المتقدم ذكرهُ . وجهل الاساتذة هو سبب آخر مهم — هذا ونبين للقارىء باجلى بيان عدد مدارسنا الاهليَّة الاسلاميَّة ومدارس الطوائف الاهليَّة المسيحيَّة ليتأكد لديهِ قلة مدارسنا وكثرة مدارسهم . نذكر ذلك على سبيل التنافس العصري الموءَدي بالعقلاء الى التمسك باهداب العلم والتربية والذي هو سبب يجعل القوة في جانب القلة كما يجعل الضعف في جانب الكثرة حتى لا يضيع الوقت بالمجادلة وتقريع الحكومة والطلب منها تعليم اولادنا . والله يعلم ما نرمي اليهِ . فنقول : اشتغلت الافكار من عهد قريب بنشر التعليم في البلاد حتى انتهت الحال الى تأسيس بضع مدارس اهليَّة في البلدان ففي الوجه القبلي تأسست مدرسة زعزوع بك ببني سويف ومدرسة علي

بك رفاعه في طهطا وبعض مدارس لافراد آخرين عددها قليل . وفي الوجه البحري وبالاخص المنوفية جمعية المساعي المشكورة التي لها ستة مدارس وفي الاسكندرية جمعيَّة العروة الوثقى التي انشأَت من المدارس ايضاً ما يقرب من هذا العدد . وفي القاهرة مدارس ايضاً اشهرها مدرسة القره جلي ومصطفى كامل وولي العهد والعثمانية والعزبة المتمدنة التي انشأها سمو مولانا الخديوي المعظم . وبعض مدارس ايضاً للافراد لا يتجاوز عددها الست

أُنشئت هذه المدارس وسببها التنافس العصري كما قدمنا فاذا اضفنا عدد هذه المدارس الى عدد مدارس الجمعيَّة الخيريَّة الاسلاميَّة الاربع التي سبقت الجميع في انشاء المدارس وجدناها لا تتجاوز الثلاثين عدًّا وكلها مدارس اسلامية . اما لو قابلنا عدد المدارس التي للطوائف الاخرى فاننا نجد ان عددها اضعاف ما لنا من المدارس بكثير فللاميريكان وحدهم على ما جاء في تقريرهم الصادر في سنة ١٨٩٨ ١٨٠ مدرسة وللفرير والجزويت ما يقرب من الستين مدرسة . ولاخواننا الاقباط الارثوذكس مدارس تابعة للبطركخانة عددها تسع وللجمعيات وللافراد مدارس عددها ٦٥ مدرسة وقد وقفنا على هذا العدد من تقرير المرسلين الاميريكان والفرير والجزويت ومن حضرة وهبي بك ناظر المدارس القبطيَّة ومن حضرة رئيس جمعيَّة التوفيق وقد اخذت من حضراتهم كشوفات موضحاً فيها عدد المدارس والتلامذة التي بها فسرني ما علمتهُ من النجاح الباهر . واني اقدر عدد تلامذة هذه المدارس باربعين الف تلميذ وكان بودي درج الكشوف لولا خوف الاطالة وسآمة القارئ وكفانا دليلاً على صدق ما تقدم عنَّا وكفاهم فخرًا على تقدمهم . انهم اول من فتح المدارس في ام درمان وباشر التعليم فيها بعد طول انقطاعهِ عن الامة السودانيَّة فان جماعة الاقباط الارثوذكس المستخدمين هناك اكتتبوا بواسطة

اسقفهم وجمعوا مقدارًا وافرًا من المال ثم ساعدتهم جمعية انتشار الدين المسيحي ايضاً بمبلغ ٢٥٠ جنيهاً مصريًّا فانشأُوا بالدراهم التي جمعوها على هذه الكيفية مدرسة فيها على ما جاء في الجرائد ٥٠ تليذًا مسلما و٢٧ مسيحيًّا و٣ اسرائيليين [١] فاذا عرفت هذا جميعهُ وعرفت الاسباب الناتجة من قلة التعليم فينا وأنَّا اقل همة في التجارة والصناعة كما سنبين ذلك فيما يلي . فلا نقع باللائمة على الحكومة ونحي عليها بالتقريع ونقول عن الغير انهم نائلون اكثر من استحقاقهم في الوظائف وغيرها . كما ذكرت ذلك احدى الجرائد في احد اعدادها . بل حبب الى قومك تعليم ابنائهم وبناتهم واستنفرهم لفتح المدارس وتهيئة الاسباب التي تعدهم للارتقاء والنجاح فقد سلك من تقدم هذا المسلك وفاز في ميدان الحضارة والعمران ونال قصب السبق على الاقران

المدارس التجهيزية

جميع ما تقدم ذكرهُ خاص بالمدارس الابتدائيّة الاهليّة . اما المدارس التجهيزيّة التي هي الواسطة بين العلوم الابتدائيّة والعالية . والتي هي من كماليات المدارس وضرورة وجودها لازمة في وقت تهيأت لقبولها النفوس لسطوع نور العلم والمعرفة سيما وقد كملت فيهِ الاستعدادات التي تؤهلها للظهور . وغير خافٍ ان النفوس راغبة في العلم ترجو ان تنفتح امامها وسائل الارتقاء والعمل لتربية الشبيبة على تنمية عقول افرادها وتثقيفهم ليعملوا على ارتقاء امتهم وحفظها بعوامل المعرفة والعلم . وحتى تكون حلقة العلوم متواصلة مرتبطة

(١) راجع عدد ١٣٧٣ من جريدة مصر والمقطم الصادر في ٢٣ اغسطس سنة ١٩٠٠

ان شئت البحث عن هذه المدارس التجهيزيَّة رجعتُ والنفس آسفة لعدم وجودها بين المدارس الاهليَّة . بل هنالك شبه مدرسة تجهيزيَّة لاخواتنا الاقباط الارثوذكس بالقاهرة وأُخرى مثلها للمرسلين الاميريكان باسيوط وثالثة هي عبارة عن قسم تجهيزيّ في مدرسة خليل اغا بالقاهرة توفق اخيرًا ديوان عموم الاوقاف الى انشائهِ . اما بين مدارس الحكومة فثلاث مدارس اثنتان بمصر والثالثة بالاسكندريَّة جميعها غير كافٍ لمن يتخرج من المدارس الابتدائيَّة المتقدم ذكرها . فضلاً عن مدارس الحكومة

فلذا شعرت النفوس الشريفة بهذا النقص من عهد ليس ببعيد . وكتبت الجرائد عن مسيس الحاجة اليهِ فصولاً ضافية . ولكن للآن لم يهتدِ الاغنياء في الامة الى السعي في انشاء مدرسة أهليَّة من هذا القبيل مسلمين كانوا او مسيحيين لانهُ لا يزال في نفوس هاتين الطائفتين الظن انهُ من الواجب على الحكومة ان تنشئ لهم من هذه المدارس ما يكفي عدد المتخرجين من مدارسها ومدارسهم الاهليَّة وفاتهم ان هذا عين الخطاء الذي كانوا يطالبون بهِ الحكومة قبل انشائهم المدارس الابتدائيَّة الاهليَّة

وليس من الصعب ان يتحد ارباب المدارس الاهليَّة على ايجاد كليَّة لهم او بالحري مدرسة تجهيزيَّة تسد عوزهم وتقوم بحاجتهم وهذا الواجب ملقى على عاتقهم وعاتق من يمكنهُ ان يجمعهم على هذا وهو اولى بهم من دائرة معارف اهليَّة فان هذا العمل الاوّليّ هو الباب الذي يُدخل منهُ الى تلك وما علينا الاَّ ان نستفزّ حميتهم وغيرتهم ونسألهُ تعالى ان يوفقهم لصالح الاعمال ويجمع قلوبهم على حب الخير العام والقيام بما يعلي شأن الامة ويصلحها آمين

المدارس العالية

المدارس العالية في القطر المصري عددها قليل واحتياج القطر اليها عظيم لمحبة اهلهِ العلم في الوقت الحاضر اكثر مما في الزمن الغابر

وليس في القطر كلهِ من المدارس العالية الاَّ بضع مدارس للحكومة فقط واغلبها يدل على اعتناء المرحوم الحاج محمد علي باشا بالتعليم كما تقدم بيانهُ فللطب مدرسة واحدة حاضرها متأخر عما كان عليهِ قبلاً في زمن مؤسسها رحمهُ الله . ينفر من دخولها التلامذة لقلة انصاف الحكومة للمتخرجين منها . فان التلميذ بعد ان يحوز الدبلوما يتقاضى راتباً قدرهُ ثمانية جنيهات في الشهر . وهو مبلغ حقير لقاء عمل كبير . وناهيك بدراسة فن الطب فان لهُ من الصعوبة في الوقوف على حقائقهِ ما ربما ينقضي العمر ولا تنقضي معرفتها ومن الغريب لدى الحكومة ان تعطي اقلَّ مستخدم من عمالها كالكتبة وخلافهم عشرة جنيهات في الشهر والطبيب ينقد من فيوض كرمها ثمانية جنيهات او اقل فلا بدع ان قلَّ الراغبون في دراسة هذا الفن الجليل . ولا غرابة ان نرى اغلب الاطباء الموظفين في الجيش المصري من السوريين المتخرجين من مدارس الاميريكان في بيروت

اما عن مدارس الصناعة فليس للحكومة منها الاَّ اثنتان احداها في القاهرة والثانية في المنصورة . اما المدارس الصناعية الاهليَّة فلا يوجد منها شيء(١) ومدارس الزراعة لا يوجد منها سوى واحدة وهي ايضاً للحكومة . ولا يخفى عليك احتياج القطر وهو زراعي محض لمدارس الزراعة . وافتقار اهلهِ اليها اشد مما يتصور

(١) وغاية ما يعرف عن مدارس الصناعة الاهلية ان في عزم جمعية العروة الوثقى الخيرية الاسلامية انشاء مدرسة بالاسكندرية بما جمعتهُ من الاكتتاب اخيرًا وبما فضل عن مال الجمعية البالغ قدرهُ ٤٣٥ جنيهاً الأكسر الجنيه

الذهن بكثير مما سيظهر معنا فيما يأتي . وهذه المدرسة تخرَّج منها في السنة الماضية تسعة تلامذة فقط اثنان منهم من الاجانب (اليونان) والسبعة الباقون من الوطنيين . فالاولان ابيا الاَّ الاستخدام في اطيانهما والقيام على غرسها وتنميتها . والآخرون استخدم بعضهم في بعض التفاتيش والبعض الآخر في مصلحة الدومين[1]

اما مدارس التجارة فلم يتح الله للقطر منها شيئاً كما لم يتح للشرق باسرهِ بذلك اذ لو فتشت عن مدارس التجارة في كل بلدان المشرق لا تجد سوى قسم صغير في المدرسة الكلية الاميركيَّة في بيروت "كان انشاؤهُ في اول هذا العام ولم يكن من قبل موجوداً " فلا عجب اذاً من تأخر التجارة على ما سيأتي القول عنها في موضعهِ[2]

غير انهُ يوجد مدرسة للحربيَّة واخرى للمهندسخانة ومدرسة واحدة للحقوق من انشاء الحكومة . ومن امثال هذه الاخيرة يوجد قسم ليلي لتعليم الحقوق تحت مباشرة جماعة النزلاء من الفرنسويين . وهذا القسم كان سبباً مهمًّا لمن تعلم فيهِ من جماعة المستخدمين للانفكاك من قيد الاستخدام في الحكومة ومباشرة حرفة المحاماة . اما مدارس التلامذة " المعلمين " فلا يوجد الاَّ مدرسة منها واحدة وقسم للعلمين بمدرسة التوفيقيَّة . ولا يوجد قسم ولا مدرسة لاخراج المعلمات ليباشرنَ تعليم البنات ولذا كانت معلمات البنات المصريات من متخرجات مدارس سوريا

(١) جاء في تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠١ ان في هذه المدرسة الآن ٥٤ تلميذاً ٣٤ منهم مصريون و٢٠ اوربيون . اي نسبة من فيها من الاجانب اكثر بكثير من الوطنيين

(٢) بينما نحن نكتب هذا علمنا ان جماعة من اليونانيين القاطنين بمصر قد رأوا ان ابناءهم في حاجة شديدة لتعليم اصول التجارة وقواعدها حتى ينبغ منهم التجار . فعقدوا النية على تأسيس مدرسة وجعلوا رأس مالها ٢٠٠٠ جنيه في بادىء الامر تجمع بطريق السهام وكل سهم قيمتهُ اربع جنيهات فتأمل

هذه هي حقيقة حال المدارس العالية في القطر المصري . ومنهُ يظهر عظم الحاجة وشدة الافتقار الى العلوم العالية . حتى يرجع للامة بعض المجد والسؤدد الذي نعلمهُ من مطالعة كتب التاريخ من انهُ كان منا الاساتذة في الطب والكيمياء والطبيعة والعلوم الرياضيَّة والصناعيَّة والتجاريَّة وعلوم الحقوق والفلسفة والجغرافية وعلم الاقتصاد وغيرها

مدارس تعليم البنات .

تعليم البنت فرض من فروض الانسانيَّة وركن من اركان المدنيَّة . لان الله اوجدها شريكة للرجل ومساعدة لهُ وعاضدةً اياهُ في شؤونهِ فهو بدونها ناقص تدفعهُ الطبيعة نحوها لسد الخلل الموجود فيهِ . هذه سنة الله في الخلق ولن تجد لسنة الله تبديلاً . فاذا كانت عاضدة الرجل ومكملتهُ مهذبة معلمة مدبرة ذات اخلاق راضية اثرت على الرجل بل كانت اكبر عامل على انحيازهِ اليها والتمسك بعادتها والتخلق باخلاقها وبهذا عمار الكون

ومن الغريب ان تعليم البنت المصريَّة منذ بضع عشرة سنة كان لا يعرف عند المصريين كافة لجهلهم فائدة تعليمها ولزعمهم ان البنت اذا تعلمت وتثقفت ترجع بالضرر على العائلة وتكون في عرفهم اهلاً للمغازلة والمكاتبة مما يفسد الاخلاق . عكفوا على هذا الزعم مسلمين واقباط . لان عوائدهم واحدة واختلاطهم واحد لا فرق بينهما . وظلت الحال على هذا حتى الهم الله ولاة الامور وانشأوا المدارس لتعليم البنات . قامت الحكومة اولاً بتأسيس مدرسة غير ان الامة كانت تنفر من هذه المدارس نفور السليم من الاجرب . حتى ان هذه المدارس كانت لا تحتوي

الاَّ على البنات اللقيطات فكان بعضهنَّ بعد ان يتعلمنَ القراءة والكتابة يتلقينَ دروس فن الولادة وتطبيب النساء في قسم خاصّ لهنَّ بمدرسة القصر العيني

اما الاجنبيات من جماعة النزلاء الافرنج في البلاد فكان لهنَّ مدارس اهليَّة مخصوصة يتعلمنَ فيها . الى ان وفدت بنات سوريا على مصر بعد ان تعلمنَ في مدارس الاميركان وغيرها في بلاد الشام . فاتحدنَ مع المدارس الاهليَّة للاميركان والفرير والجزويت وفتحنَ ابواب مدارسهنَّ للبنت المصريَّة . فكان الاقبال عليها من بنات سوريا لاغير . وظل المسلمون والاقباط على زعمهم بانهُ لا يجوز تعليم البنت لان التعليم مضرٌّ بها فلذا تقدمت البنت السوريَّة ايضاً تقدماً يسرُّ الخاطر على البنت المصريَّة مسلمة كانت او قبطيَّة

غير انهُ لما ظهر نفع التعليم والارشاد للبنت باجلى بيان ترك الاقباط المسلمين على زعمهم الذي كانوا متمسكين بهِ معاً . وتقدم قسمٌ من الاقباط لتعليم البنت فنجح وما زال الاقبال منهم يتلو الاقبال حتى ظهرت لهم منافع ذلك فاقبلوا عليهِ بعد ان كانوا مدبرين وادخلوا بناتهم في مدارس الحكومة ومدارس الاميركان والراهبات. الى ان ضاقت بهنَّ على سعتها فقاموا اخيرًا « والفضل لجمعياتهم » وانشأوا دور التعليم الخاصة لهنَّ واخذت البنت السوريَّة تدأب على تعليم اختها المصريَّة

ومن مطالعة تقرير المرسلين الاميركان يظهر ان عدد البنات عندهم بلغ في سنة ١٨٩٨ — ٣٧٢٠ بنتاً كلهنَّ من بنات الاقباط الاَّ قليلات يُعْدَدْنَ بالعشرات من بنات الاسلام . وكذلك يظهر من الكشف الذي اخذناهُ من ناظر المدارس القبطيَّة ان لدى مدارس البطركخانة ٤٢٥ بنتاً وكذلك ظهر من الكشف الذي اخذناهُ عن مدارس جمعيات « التوفيق » ان لديها ما يقرب من الفين وخمس مئة بنت . اما لو اضفنا الى ما تقدم عدد البنات اللواتي في مدارس الحكومة ومدارس

الراهبات وغيرها بلغ عددهن ما يقرب من الثمانية عشر الف بنت مصرية قبطية . كلهن يتعلمن نظام بيوتهن . مع هذا العدد العظيم لا يتجاوز عدد البنات المسلمات اللواتي يتعلمن الفين وخمسمائة بنت لقلة اهتدائنا لتعليم البنت او توجيه العناية من موسرينا الى انشاء المدارس لها (١)

ولسوف تجني الامة القبطية عن قريب ثمرًا طيبًا صالحًا هي في حاجة اليهِ مثلنا . اذ لو فرضنا ان هؤلاء الثمانية عشر الف بنت . هنَّ في سن العاشرة وعرفنا ان زواج البنت المصرية على الاغلب في سن الثامنة عشرة عرفنا انهُ بعد مضي ثماني سنوات يكون لدى هذه الطائفة ثمانية عشر الف بيت منظم مرتب فيها من يساعدنَ ازواجهنَّ على مكافحة الزمن والفاقة اذا نزلت . فيها من يساعدنَ ازواجهنَّ على تربية ابنائهم . من يساعدنَ اهليهنَّ على معرفة صلاحيَّة وتطهير المنزل وتنقية هوائهِ وترتيب الاثاث فيهِ مع التوفير في اللبس وغيرهِ . وهكذا يستمر تقدمهم على هذا المنوال اذ في كل سنة يخرج من بناتهم مثل هذا العدد

ودعنا نحن معشر الاسلام تنفر من تعليم البنت ونحتج بعدم جواز ذلك . ونقول بان المعلمات اللاتي هنَّ اهل لتعليم بناتنا لا يوجدنَ فيما بيننا وان وُجدنَ فعددهنَّ قليل في بلادنا المصريَّة او انهنَّ غير اكفاء للتعليم والارشاد وان كان هذا الاحتجاج الصبياني مردودًا ومرذولًا لما نعلمهُ من ان في البلاد السوريَّة التي هي على قرب منا كثيرات من المدرسات اللواتي مارسنَ صناعة التعليم . ولا بأس من احضار بعضهنَّ للتدريس والتعليم . حتى اذا وُجد من البنات عندنا من يكون

(١) استغفر الله . في عزم فرد فاضل منهم (احمد باشا المنشاوي انشاء مدرسة لتعليمهنَّ في طنطا وفي عزمهِ عند اتمامها الشروع في بناء مستشفى للمرضى والمساكين . انظر جوابهِ لحضرة الدكتور شبلي شميل المندرج في عدد المقطم الصادر بتاريخ ٤ اكتوبر سنة ١٨٩٩

في امكانهن القيام باعطاء الدرس والتعليم نستعيض بهن عن المدرسات السوريات وليس في ذلك عار علينا ما دام السلف الصالح تلقى العلوم العالية من كتب اليونان والرومان وغيرهم من الاعجام والامم السالفة . وهاتهِ السوريات اقرب الناس منا واحسنهنَّ مودة الينا فهلاَّ نرضى ان نتساوى وسائط الترقي بين ابناء الوطن الواحد في هذا العمل الصالح والله سبحانهُ وتعالى يقول (من عمل صالحاً من ذكرٍ او أُنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينهُ حياةً طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون)

الجمعيات

وجدت الجمعيات في الاسلام حين وجد . وناهيك بالجمعيَّة الاولى . التي كانت اول جمعيَّة ومعاهدة اسلاميَّة . وهي المسماة " ببيعة الرضوان " عقدها النبي " صلى الله عليهِ وسلم " وبايعهُ فيها الاصحاب العشرة الكرام . بعد التئامهـا تحت الشجرة لجمع الكلمة وظهور الرسالة . ثم ان هؤلاء العشرة اصبحوا مئات والوفاً بعد ذلك . ولو رجعنا الى البحث والاستقراء لعلمنا كيف تجتمع الاجسام وتتألف القلوب وتجتمع الكلمة والمتأمل في سيرة الاسلام الاولى يجد ان الجمعيات لم يخلُ منها قطر من اقطارهِ وكانوا يقتبسون من نورها الاستبصار والاستبشار " حتى ان الآثم بعد دخولهِ اليها يخرج بالفوز ويحظى بالسعادة والقانط بدخولهِ اليها يخرج وهو اشد ما يكون رجاءً يرتاح الى العمل وتُفرغ عليهِ السكينة بعد الدهشة والراحة بعد الحيرة "

وتلك الجمعيات كانت في زمن انتشار المعارف والعلوم اما وقد عمت الظلمة بعد ذلك النور بتملك الجهل لنفوس الكل فخاضر الجمعيات الاسلاميَّة من التخاذل

على ما نعلم وعلى الاخص بمصر نعم لا ننكر فضل الجمعيات الموجودة حالاً مثل الجمعيّة الخيريّة الاسلاميّة وجمعيّة العروة الوثقى[1] والمساعي المشكورة . وجمعيّة طبع الكتب العربيّة . الاّ انها ويا للاسف اقل من الواجب ان يكون في امة استولى عليها الجهل بعد العلم والفساد بعد الرشاد حتى انحط ابناؤها وبناتها الى ما تراهُ في حاضرها من فهمهم معنى الغرض من الجمعيات الى قصد الضحك والمجون والتكلم " بالانقاط " يتلقاها الكل من الاوباش بالقهاوي والافراح بدلاً من مجتمعات العلم والعرفان . ومن الغريب ان تدوم هذه الجمعيات الهزليّة ولا تدوم تلك الجمعيات المفيدة التي شرع فيها بعض النبهاء . فانك لو شئت تعداد الجمعيات التي قامت لغرض شريف ثم عفت آثارها لعجبت . وعلى الاخص اذا علمت ان الذين انشأوها من ابناء المدارس ومشايخ الازهر وبعض رجال الفائدة والعمل وما سبب عفاء آثارها واندثارها الاّ عدم تكوينها على اساس متين فلذا ينحل عراها في أقرب وقت وتصبح في خبر كان .ولو كان منشئو الجمعيات التي عفت آثارها ممن ذكرنا فقط لالتمسنا لهم عذراً يقبل ولكن ما قولك في جمعية ظهرت واختفت بسرعة عجيبة . ولو كان من اعضائها فحول العلم عندنا ورجال الادب منا . اجتمعوا على قولهم في مجتمع دعوهُ (مجتمع اللغة العربية) فما اثمر ذلك الاجتماع بشيء سوى الغوص في بحار اللغة واخراج بعض كلمات[2] قالوا باستعمالها بدلاً من كلمات دخيلة في اللغة العربية

(١) هذه الجمعية تأسست في شهر شوال من سنة ١٣٠٩ هجرية

(٢) واليك بعض تلك الكلمات .

مرحى	بدل	براڤو
مدره	"	افوكاتو
المسرة	"	التيليفون
عم صباحاً	"	بون جور

هذا المجتمع ايضاً عفت آثارهُ بعد التئامهِ مرتين او ثلاثاً ولو استقصيت حقيقتهُ لوجدت عدم ثبات اعضائهِ في مجتمعهم هذا انما هو من اختلافهم في فهم معنى لغتهم ولذا كان انحلالهُ سريعاً . وغاية ما يمكننا ان نقول اذا تكلمنا بوجود جمعيات علمية بيننا انهُ يوجد جمعية واحدة طبية مصريَّة لاغير . هذا فيما يتعلق بالجمعيات التي يطلق عليها لقب جمعيات العلم والادب . اما الجمعيات التي نحن في حاجة اليها حقيقة اي مثل جمعيات المحاماة والتجارة والصناعة لنموها ولزيادة الكسب وفرة الربح من طريقها الصحيح فهي معدومة بالمرة من بين المصريين جميعهم . ولم يفكر احد منهم للآن في انشاء جمعية من هذا القبيل . ولو كانوا يعلمون بوجودها بين ظهراني اهل التجارة والصناعة من جماعة الافرنج النزلاء (١) الذين لم يقتصروا عليها بل عمت الجمعيات عندهم حتَّى منعت القسوة عن الحيوان

ومع كل هذا النقص المعيب نقول انا قد دخلنا في دور التقدم بفهم لوازم الحضارة والتمدن . ونحن في الحقيقة ليس منا غير القليل في الجمعية الجغرافية الخديويَّة وما بقي فيها فمن نزلاء البلاد

هذا ولا مندوحة لنا من التنبيه على امر ينبغي التفطن لهُ والتنويه بهِ اذ في ذكرهِ ما يسر الخاطر من نحو اخواننا الاقباط الارثوذكس . فان لهؤلاء الاخوان ما حقنا ان نغبطهم عليهِ ونتمنى لنا حقيقة من حقيقتهم الدالة على تقدمهم علينا . واليك النظر لجمعياتهم التي منها " التوفيق " التي تحتوي على نبهاء هذه الطائفة المحبوبة

ع مساء	بدل	بون سوار
البهو	"	الصالون
قعاز	"	الجوانتي

(١) للانكليز وغيرهم جمعيات تجارية لها على تجارتهم وصناعتهم فضل كبير ومن اهم جمعياتهم الجمعية التجارية الانكليزية بالاسكندرية

هذه الجمعيَّة نشأت في سنة ١٨٩١ ميلاديَّة بهمة بعض الافراد . وشمرت عن ساعد الجد وجعلت رائدها الثبات والاستقامة فنجحت النجاح الباهر الذي نودُّ دوامهُ لها وكان من ثمرة ثباتها انها ابطلت عوائد كثيرة كانت مضرة بامتها وسهلت عليهم كثيرًا من الاعمال واسست جمعيات فرعيَّة تابعة لها في سائر مديريات القطر . وبهذه الواسطة اوجدت لابناء امتها المدارس العديدة للبنين والبنات . وسهلت عليهم نقل موتاهم الفقراء بواسطة مركبات اعدتها لذلك وهي تصدر مجلة اسبوعيَّة تدعى " التوفيق " تملأُها كل اسبوع بالحث والترغيب في اقتباس العلم والاستضاءة بانوارهِ . واخيرًا اوجدت للجمعيَّة سراي عظيمة مساحتها ٦١٠٠ متر وفي النيَّة انشاء مستشفى لمعالجة الفقراء مجانًا . توصلت هذه الجمعيَّة الى عمل كل ما ذكر بهمة اولئك الافراد وفي مقدمتهم سعادة رئيسهم الدكتور ابرهيم بك منصور وبهمة المحسنين من ابناء الطائفة الذين تبرعوا وما زالوا يتبرعون دوامكما فيهِ قوامها ونجاحها . واولئك العاملون على ترقي الامة بالوسائط اللازمة للترقي اوجدوا ايضاً مطبعة خصوصيَّة للجمعيَّة (١) وناديًا ومحلاًّ لمركبات دفن الموتى وقد اشترت الجمعيَّة اخيرًا مركبات للافراح فدل ذلك دلالة واضحة على حسن المستقبل الزاهر الزاهي وعدا جمعيَّة التوفيق يوجد جمعيات اخرى مفيدة منها جمعيَّة المساعي الخيريَّة التي غرضها جمع الاحسان وتوزيعهُ على الفقراء وهذه الجمعيَّة لها وقف تحت ادارة سعادة الفاضل باسيلي بك تادرس المستشار في محكمة الاستئناف ريعهُ يصرف على الاعمال الخيريَّة كما تقدم

وجمعيَّة النشأة القبطيَّة تهتم بالفقراء ايضاً ولها اعمال نافعة من اهمها اصدار

(١) لمطبعة جمعية التوفيق هذه فضلٌ يذكر على جريدتي مصر اولاً والوطن ثانيًا . فانهما عند اول ظهورهما كانتا تطبعان في هذه المطبعة

نتيجة سنويَّة . وجمعيَّة التوفيق بمصر القديمة تابعة للجمعيَّة المركزيَّة وهي مخصصة للوعظ وتحتفل كل يومي الجمعة والاحد بالقاء المواعظ وتفسير الاناجيل للشعب ولها ايضاً اعمال خيريَّة ممدوحة . هذا وفي الوجه القبلي لهم جمعيات كثيرة سواءٌ كان في بلد او قرية . ومن اشهرها جمعيَّة الاعتدال باسيوط التي يبلغ عدد اعضائها المائتين كلهم ساعون على الحض بنبذ شرب المسكرات او الاعتدال فيهِ . ونحن لا نزداد الاَّ شغفاً على الادمان في الخمر . وهي محرمة عندنا . كما اننا لا ندري الى متى نبقى نتشاوى ويبقون ساهرين مجدين في مراقي العلى والتوفيق وكلنا امة مصريَّة واحدة . نسألهُ تعالى الهداية لنا جميعاً الى اقوم طريق

الاستخدام والمستخدمون

الاستخدام في الحكومة الآن داءٌ سرى مكروبهُ في جميع الشبان حباً بالمظاهرات الفارغة . واغلبهم غير ناظرين الى نتائجهِ التي هي على الغالب غير مفيدة للوطن فائدة تذكر لانها مدعاة للكسل وغير سائقة كما يراد للعمل . فترى الشبان بعد ان يفارقوا المدارس كلهم آمال في حياة الاستخدام . آمال مكذوبة يظنون انها تليق بشرفهم او علمهم وتقيهم من طوارق الفاقة والفقر او تعلي شأنهم وفاتهم ان من اقدم عليهِ يرهن الحواس الخمس والحريَّة والموهبة الطبيعيَّة براتب طفيف يمنع عنهُ الجوع ويوجد في النفوس اليأس والخمول . والذي يزيد الطين بلة ان الوطن العزيز لا يعود عليهِ ادنى فائدة منْ استخدام ابنائهِ خصوصاً في الاحوال والظروف الحاضرة التي لا تسمح لشباننا ان يتطلعوا الى وظائف عالية فيها حقيقة تكون خدمة الوطن والامة خدمة صحيحة مفيدة ثابتة دائمة . لان تلك بايدي قوم ساهرين على مصالحهم ونحن عنها غافلون

ومن الاسف العظيم ان هذا الامر هو مرض مصر العام المسبب منهُ عدم تكوين الثروة في القطر والمقعد بالهمم والقاتل لصفة الاعتماد على النفس واجمال القول انهُ قد كان يصح ذلك الاستخدام قبلاً وعند ما كانت وظيفة الاستخدام من اجل المهن واسماها . فان المستقصي سبب حب الناس الاستخدام قبلاً ووضعهم انفسهم بانفسهم في موقف المسخرين لقضاء مأرب غيرهم حتى استسلموا للقضاء وتركوا جميع الامم تتسابق في مضمار الجد والارتقاء وهم لاهون . ظنّ ان الحكومة منفصلة تمام الانفصال عن الامة . ورسخ هذا الاعتقاد في نفوسهم إن الحكومة هي الهيئة المخدومة والامة هي الهيئة الخادمة . مع ان الحال بضد ما ذكر . نعم كان بعض الشيء من ذلك في الزمن الماضي منذ عشرين سنة واكثر اما الآن فالحكومة وحكامها يعلمون انهم خدام للامة لا سادتها وتساوى الصغير والكبير امام الحق والقانون وأمن الناس على ارواحهم واموالهم وحقوقهم كلها واصبح التاجر بتجارتهِ والصانع بحرفتهِ والمزارع بزراعتهِ كل واحدٍ يفيد الامة اكثر مما يفيدها بالاستخدام . غير اننا نقول ان الاستخدام في مثل المراكز العالية كالقضاء والادارة واجب لضرورة ذلك ولانتظام هيئة الحكومة . ولكن اصحاب هذه المراكز مسأولون امام الامة بحفظ مراكزهم التي هي وديعة من الامة ويجب المحافظة عليها طبقاً للعدل والحق لا ان يتبعوا اهواءهم في وظائفهم ليحل بدلاً عنهم الاجانب فيسوسوا الامة بغير ما يلزم ان تساس بهِ ولكنّ هؤلاء ليسوا المقصودين منا بالقول بل المقصودون هم اولئك التعساء الذين لا تفسر تعاستهم على ظواهر احوالهم

واولئك المساكين من الناس الذين وصلوا الى وسطٍ من حالة الحياة . ولا يزالون ينظرون بلهف الى ما فوقهم من الدرجات فرهنوا مستقبلهم كلهُ على نوال مرغوبهم بطرق الاستخدام . وهم يظنون انهم بلغوا بها السعادة في مكان فسيح

الرحاب قد تحجب بالعزة والمكانة ولو كانوا ضمناً يشتغلون كالآلة التي تتحرك من نفسها في قضاء اغراض ومآرب مديريها . اذ هم لا يعرفون الاّ ان يأتوا صباحاً في الوقت المعين ويباشرون عملهم الذي يندر ان يتغير قليلاً ويذهبون الظهر الى بيوتهم فيأكلون وينامون ولا همّ لهم الاّ النزول ساعة العصر من بيتهم الى القهاوي والاندية لتمضية الوقت واذهابهِ سدى بلا جدوى ولا منفعة خصوصيةّ او عموميةّ. وكل يوم هم على هذا المنوال . والمستخدم واحد امس واليوم وغداً

ثم يحتجون لعدم زيادة مرتبهم ويلحون وهم باقون في مراكزهم . ولا يخطر ببالهم ان يعدوا انفسهم لعمل آخر ولذا يفضّلون البقاء على حالة واحدة ولو كانت من مرادفات الموت . وقلّ ان ترى مستخدماً يحرص على سيرتهِ وصيتهِ ولذا هم في المجتمعات وفي طرق الخلاعات وادمان المسكرات لا يجارون ولا يبارون . ثم يشكون من حالتهم المعيشيةّ . وما شكواهم في الحقيقة الاّ من تبذيرهم واسرافهم بلا ضابط حتى فاقوا الحد عن بقيةّ افراد الامة وقد فاقوا غيرهم في التورط في الدين على اختلاف درجاتهم ومرتباتهم . ولا ذنب للحكومة في هذا بل الذنب كلهُ واقع عليهم . اذ الموظف منهم صغيراً كان او كبيراً يعتبر نفسهُ انهُ من طبقة خلاف طبقات الامة فلذا يعيش في الانفاق الكثير على المنازل والخدم والحشم ومما يضحك ذكرهُ تقسيمهم لايام الشهر على ثلاثة اقسام فهم يعبرون عن العشرة ايام الاول منهُ " بالايام البيض " نظراً لرواجهم من قبض مرتباتهم . والعشرة الثانية " بالايام الحمر " لانهم في هذه الايام الحمر يضطرون لصرف ما هو مقتصد معهم والعشرة ايام اواخر الشهر " بالعشرة السود " لانهم يقترضون من اهليهم او من جماعة المرابين " واكثرهم جماعة الدخاخنيةّ الاروام " ولذا اذا قابل احدهم الآخر فقبل ان يسلم عليهِ يسألهُ ان كان للايام عليهِ تأثير ثم ان البعض منهم يحتاط

لذلك فترى جيوبهم بالدراهم محملة دائمًا ساعة العصر والبعض منهم لا يبذرون في اوائل الشهر ولا يسهرون ويوفرون الى اواخر الشهر اسرافهم وتبذيرهم خوفًا من تبكيتهم بتأثير الايام عليهم — ومَن من الناس لم تؤثر عليهِ الايام — والمستخدمون كلهم حساد بعضهم لبعض حتى ان بعضهم اذا عرف شخصاً لاول وهلة يسأله ُ ما هي وظيفتك في الديوان وكم هو مرتبك في الشهر . فان وجده ُ متقدماً عنهُ اسف على حالتهِ وتعاستهِ وسب مصلحتهُ ووظيفتهُ نادبًا الزمن ومصائبهِ التي انكبت عليهِ . وان وجده ُ دونهُ سقط من عينهِ ولم يعد يعتبره ُ ان رآه ُ مرة اخرى " وقد وقع لنا من قبيل ما ذكرنا شيء كثير " . وهذا امر سببهُ ان السعد والنحس ملازمان للمستخدمين من عهد قديم فان بينهم فئة تعرف بالفئة الداخلة هيئة العمال وفئة تعرف بالخارجة عنها (١) وللاولى حق في المعاش بعد ان تعمل في الخدمة مدة معينة ولو كانت الاولى على بساط الراحة . والثانية محرومة منهُ ولو انهكها النصب واذابها العناء . وعلة ذلك تعدد الاوامر التي اصدرتها الحكومة في هذا الشان من قديم وحديث (٢) وليس من دليل اوضح من الدليل الآتي على ظلم المحاباة بين المستخدمين

كان في مصلحة البوستة حتى سنة ١٨٩٧ رجلان خدما فيها اكثر من اربعين

(١) في الوقت الحاضر اغلب مستخدمي الحكومة في نظارة الاشغال ومصلحة السكة الحديدية المصرية والبوستة والتلغراف وغيرها من هذه الفئة لا فرق بين الوطنيين والاجانب فانهم كلهم " ظهورات " .

(٢) بفضل هذا التمييز في الازمنة الماضية نال كثيرون مع عائلتهم شيئًا كثيرًا من المعاش وهم الآن يتنعمون بهِ وان كانوا لم يفيدوا الامة بشيءٍ بل قد يمكن انهم اضروا بها واستعبدوا عباد الله وسلبوهم اموالهم واطيانهم . ولا يزال باقيًا منهم من لهُ في المديريات ما ينيف على المئة او المائتين فدانًا وعن خمسين او مئة جنيه شهريًا في " الرزنامه "

سنة بامانة واستقامة منذ عهد جنتمكان الحاج محمد علي باشا ووظيفتهما كانت اخذ البريد سعياً على الاقدام من القاهرة الى الاسكندرية وذلك قبل انشاء السكك الحديدية . وكثيرًا ما كان احدهما يسعى ليوصل مراسلات الولاة السالفين "وبالاخص المرحوم سعيد باشا" ولا يتأتى لهُ ذلك الاَّ بعد التعب الشديد . فقد كان يذهب احدهما الى البلدة التي يقال لهُ ان بها الوالي فلا يراهُ فيها و يعلم انهُ ذهب الى غيرها فيتبعهُ اليها . وقد كان نصيب احدهما بعد ان هرم وشاب ان يعين ليوصل الدراهم والمراسلات من العاصمة الى بولاق مصر ذهاباً واياباً ثلاث مرات في اليوم . ولما وهنت رجلاهُ وخارت قواهُ عين في بوستة مصر يشتغل فيها وعمرهُ قد ناهز الخمسة والسبعين فمكث مدة يشتغل من الساعة السادسة صباحاً الى الحادية عشرة مساءً وليس لهُ يوم راحة في الاسبوع كلهِ . ثم عجزا عن القيام بخدمتهما فتراءى للمصلحة ان تعزلهما فأمرت بذلك ولو لم تقرر شركة الاقتصاد والتعاون الخيري في البوستة التي أُسست بهمة سعادة مديرها العام "يوسف باشا سابا" اعطاءهما مرتبهما سنة كاملة رأفة بهما وبعائلتهما لذهبا ولسان حالهما يقول مع باقي امثالهما من المستخدمين

ما ذا لقيت من الدنيا واعجبها   اني بما انا باكٍ منهُ محسودُ

في هذا الباب الضيق المنافس المملوء بفقدان الشهامة المضيع لزمن الشبيبة المصرية . المبعد لنمو الثروة . المربي في النفس الاعتماد على الغير . يُلقي الشبان المتعلمون انفسهم بايديهم ولا يسعون في طرق ابواب المعايش الاخرى كالتجارة . والزراعة والصناعة فانسلخوا عن كل شيءٍ من موارد الكسب الصحيح والعمل المفيد ولم يبقَ لهم قوام ذاتي الاَّ التعلق باذيال الحكومة واهداب الوظائف وهيهات لهم ان ينالوها الاَّ بشق الانفس واراقة ماء الوجه وليس ما ينالونهُ مما يذكر ولكنهُ

من سقط المتاع وما زالوا على هذا الحال حتى فقدت الامة اواسطها من المتعلمين . وباتت في انين دائم . وذل مهين . لطف الله بعباده . والهم شباننا الى ما فيه صالحهم وصالح الوطن العزيز . انهُ على كل شيء قدير

التجارة

قال صلى الله عليهِ وسلم (ما أملق تاجر صدوق)

وقال عليهِ الصلاة والسلام (رحم الله رجلاً سمحاً قاضياً ومقتضياً بائعاً ومشترياً)

وقال ايضاً من بورك لهُ في شيء فليلزمهُ

باب الاتجار مفتوح لكل داخل . وليس كباب الاستخدام يخص بالناس قلائل . وثروة البلاد موقوفة على التجارة . سواء كانت داخلية اوخارجية . و يشترط على من سلك سبيلها ان يكون سيرهُ فيها على علم وبصيرة . وان يكون عندهُ مال يدير حركة عملهِ التجاري . وبالمال ينتهز الفرص كلما ظهر لهُ شيءٌ رخيص يمكن الاكتساب منهُ . وعلى هذين الشرطين قوامُ التجارة

وللتجارة شروط أخرى لازمة لكل تاجر وهي الاتصاف بصفات الصدق رائدها في المعاملة ليستميل بها قلوب معامليهِ . والاتصاف بالامانة لمن يترك شيئاً عندهُ ليباع على ذمتهِ . فان في ذلك مجلبة لقصد الناس لهُ من اقصى الجهات . وبالتمسك بالتقوى وما أمرت بهِ الشريعة . حتى تكلل تجارتهُ بالبركة ورزقهُ بالتيسير وبالاقتصاد حتى تنمو مكاسبهُ . وتظهر نتيجة تعبهِ وتزيد الرغبة فيهِ لتوسيع نطاق تجارتهِ . وبالبعد ما امكن عن الدين حتى لا تشتغل افكارهُ بما لا طائل تحتهُ — وأحب شيء الى الانسان ان تعطيهُ ولو من مالك وابغضهُ ان تأخذ منهُ ولو حقك — ومن أهم شروطها انتظام معيشة الانسان فيها على حسب القواعد الاقتصادية وترتيب

شؤُون اعمالهِ بحيث لا يتطرق اليها الاختلال والوهن وسوء الادارة فان هذا مما يحبط عملهُ ويجعل الناس غير واثقة بنجاحهِ

هذه هي شروط من يقدم على التجارة . وفيها لعمري مجال فسيح لاظهار موهبة العقل . واستثمار ما بقي من المواهب . التي اودعها الله في الانسان "والعقل في موضعهِ يمكنهُ ان يعمل من النار جنة ومن الجنة ناراً[1] "وناهيك بما في التجارة من اللذة المتعاقبة عقب كل نجاح يثمرهُ الاجتهاد فيها . اسأل التاجر المستجمع للشروط المتقدمة ترَهُ يقص عليك ما منح من العطايا وما وهب من الارزاق . ولكن لا يغرب عن فكرك انهُ ما نال ذلك عفواً . بل نالهُ باهتمامهِ الاهتمام الذي هو شأن كل متجلد ثابت لا يؤخر عمل يوم الى غدهِ . حتى انهُ يحرص كل الحرص على عملهِ توقعاً للاحدوثة الجميلة وهي من امدح الخصال في الرجال وكفى التاجر ان يقال فيهِ ان فلاناً متوقد الفؤاد ذا حركة ونشاط يقدم على جلائل الامور

والتجارة حياة كل أُمة . وما امتازت دولة على أُخرى الاَّ وقد كان للتجارة الفضل الاكبر في سعادتها . تأمل تاريخ المشرق الماضي ترَ فضل اعتزازهِ الماضي انما هو راجع لاشتغال اهلهِ بالتجارة . وتأمل ضعفهُ الحاضر ترَ سببهُ ترك اهلهِ للتجارة . ولدينا حاضر اوربا فالدولة الاكثر اتجاراً لها السلطان الاول بين سائر الدول تدوم لها المنعة والسلطان ما تاجر أهلها مع الامصار والاقطار

ومصرنا وان كانت ارضها زراعيةً يشتغل غنيها وفقيرها بالزراعة دون التجارة والصناعة . الاَّ انها منذ خمسين سنة كان اهتمام اهلها بالتجارة عظيماً جداً فانهُ في تلك الازمان قام من اواسط اهليها من احترف التجارة فنجح وافلح وكان ذلك النجاح الباهر حينما استعمرت حكومتنا السودان في ازمنة الولاة الاول من العائلة

(١) قول شكسبير

العلويّة الحاكمة . ذلك انهُ ذهب البعض الى السودان للاتجار فكان ذهابهم سبباً لموارد اليسر . ومنهلاً لسائغ الرزق . ارجع بنظرك قليلاً لتعلم توسُّع المتاجر في هاتيك الاصقاع سنة بعد سنة . ولنا شاهد على نمو التجارة في ذلك الاوان وهو قلة الوارد الى البلاد ووفور الصادر منها . مع ما في ذلك الزمن من العسف والجور وعدم سهولة المواصلات . ولا يزال بعض اولئك التجار الذين اتجروا بين القطرين في قيد الحياة يرزقون . ويقص البعض منهم عليك حديث تجارتهم بالاصناف وغيرها . كما قد يقص ايضاً الطرق والمسالك الوعرة والمتاعب التي اجتازها في ذهابهِ وايابهِ وهم يعدون لك ان شئت المحال التجاريّة التي كانت واسعة المتجر قبل عهد الدراويش حتى انهُ كان للتجارة مجالس مشهودة . غير انهُ قضت الحال بانفصال السودان سنة ١٨٨٤ ميلاديّة فاعتزل كثيرون الاتجار وباشر بعضهم الزراعة . وما من مزارع كان تاجرًا الاَّ وقد زادت زراعتهُ واتسعت بتقدم مستمر ونجاح باهر لكونهِ وجد من نفسهِ ميلاً وارتياحاً الى العمل والكسب

اما من بقي في تجارتهِ الى الآن فقد اكتفى بالاسم ولو كانت تجارتهُ في اشياء قليلة كلها يجلبها الاجانب لهُ من الخارج . هذا تاجر القماش صاحب الوكالة الكبيرة في مصر ترد اليهِ الاقمشة باسمهِ وهو يخزنها في مخزنهِ ويبيعها الى عملائهِ الاصاغر لهذا مئة ثوب ولذاك خمسين ثوباً بزيادة مبلغ طفيف في المئة عما وردت اليهِ . وياليتهُ يقبض الثمن فورًا . بل يقيدهُ في دفتر الذمات ويدفع اليهِ العميل ثمن ما اخذهُ اقساطاً بمواعيد متفاوتة كما هو ايضاً مع الفوريقة مقيد بكمبيالات يدفعها عند استحقاقها بمواعيد متفاوتة ايضاً . وما يقال عن تاجر القماش يقال عن باقي التجار حتى تجار الزيتون . اخبرني صديق "كمسيونجي" لاحدى الفوريقات الانكليزيّة للزيوت ان تجار مصر يشترون الزيت والشحم بمعرفتهِ من الفوريقة وهو

عند ذهابهِ الى الارياف يجدهم يبيعونهُ باقل من ثمنهِ الاساسي . اي ان كانوا قد اشتروا الرطل الواحد بثلاثة غروش ونصف غرش يبيعونهُ بثلاثة غروش

وتجار الارز يفعلون كذلك فانهم يجلبونهُ من الاسكندرية ورشيد ويدفعون عليهِ اجرة السكة الحديد ثم يبيعونهُ في مصر بمثل سعرهِ في الاسكندرية واذا اعترض عليهم معترض عارف بسعر البلدين وسألهم عن مكسبهم . احتجوا بانهم يبيعون بجانبهِ صنفين آخرين من العطارة يربحون فيهما ربحاً عظيماً

وغالبهم جاهل بمعرفة اسعار اصناف البضاعة وقليل منهم يعرف غلاء الثمن لقلة الموجود فانك لو ذهبت الى تاجرين مثلاً يتاجران في صنف واحد وساومت احدهما على شراء شيء منهُ أخبرك بثمن ثم انت لو ذهبت الى آخر لاخبرك بثمن اقل من الاول وان استقصيت السبب علمت انهُ يبيع لك مطلوبك تكيلاً بجارهِ او انهُ قد يكون مستحقاً عليهِ دفع بعض الكمبيالات فيضطر الى البيع بالرخيص . ولقد عرف بعض اهالي الريف ذلك منهم فلذا قد ينتقل احدهم من مخزن الى آخر ليساوم السعر فمن رآهُ يبيع بالرخص عن جيرانهِ يشتري منهُ . وقد يرضى التاجر منهم ان يكون مكسبهُ صناديق الفوارغ كتجار الكبريت والشمع مثلاً . وهم مع ذلك يفتخر بعضهم على بعضهم بكثرة البيع ولا يشعرون بخطائهم . الاَّ اذا حان أجل دفع الكمبيالات فتراهم يتململون ويشكون وتراهم يرهبون محصلي البنوكة وقت مرورهم بهم وقد يظهرون لهم غاية الخضوع ومنتهى الذل والمسكنة

ولذلك اسباب غير ما تقدم وهي ان بعضهم اذا اتسعت تجارتهم بالقدر "لا بالمعرفة" يأخذون في مشترى العقارات التي كثيراً ما تكون داخل الحواري والازقة . حتى يقال ان السيد فلان صاحب ملك في الجهة الفلانية والجهة الفلانية . وقد يشترون هذه الاملاك بالتقاسيط ويفضلون دفع اقساطها على دفع

ما هو عليهم للفوريقات ولو كان فيما ذكر شهرة الاسم ونجاح العمل وفاتهم معرفة الربح من الطرفين . اذ مهما بلغت مكاسبهم من الاملاك لا تتجاوز ستة في المئة . اما في المتجر فيربو الربح عنما ذكر . اذ لو فرضنا ان المقدار الف جنيه واتجر بهِ ووضع تحت امر التاجر لاربحهُ اضعاف اضعاف ما ذكر ولأغنى التاجر عن التذلل يوماً لمحصّلي البنوكة ويوماً للقومسيونجي . ولوجد ما يدفع منهُ وقت الحاجة . وهو لو شغلهُ لامكن التاجر الاشتراء بالنقد وبالنقد يمكن خصم ما يساوي أقلهُ ٥ في المئة وفي خلال السنة يمكنهُ بهِ ان يشتري ثلاث او اربع مرات فيخصم لهُ ما ذكر أعني اربع مرات في خمسة تساوي عشرين في المئة بدلاً من الستة التي تعود من شراء الاملاك . وناهيك بالتاجر الذي يحتاط في عملهِ في اخذهِ وعطائهِ فانهُ يشعر بلذة حقيقيةٍ في عملهِ فضلاً عن عدم انذارهِ بالبرتستو يتلو البرتستو وبالتهديد بحجز الاملاك وبالبعد عن الافلاس المهين الذي يكون معرضاً لهُ كل حين

وليس للتجار حيلة او آراء محكمة في مباشرة تجارتهم بل حيلهم وآراؤهم لا تحضرهم الاّ اذا وقعوا في الامور المتقدمة . والاّ فمعظمهم يحضرون الى محالّهم ضحى ويتركونها عصرًا لحبهم النوم وايثارهم الراحة على التعب . ولداعي انهم كثيروا الاشتغال في اصناف يجهلونها حتى في لفظ اسمائها يعتمد البعض منهم على الموظفين الاجانب فيشاركونهم في الربح ولو كانوا هم اصحاب رأس المال . او يستخدمون لديهم جماعة من الرجال العجائز المتقدمين في السن اهل السعال واحديداب القامة الذين ربما قد ينسون اكل الزاد اذا حضر . ويعطونهم مرتبات تافهة وهم مع ذلك يأتمنونهم على مخازنهم التي كثيرًا ما يكون فيها عشرات الالوف من الجنيهات . نعم انهم قد انتبهوا اخيرًا واستخدموا بعض الشبان ولكنهم يبخلون عليهم ايضاً بدفع المرتبات الكافية لهم وهؤلاء لقلة المرتب يلتزمون بالسير في طريق تأباهُ الامانة والعفة .

وكثيراً ما يلاحظ التاجر من سيرهم وسلوكهم انهم لا يخدمون بالشرف والاستقامة ولكن لكسلهم ولتصورهم انهُ لو خرج المستخدم تقف حركة عملهم يتركونهم يعبثون باموالهم وهم ينظرون نظرة الخامل الابله . وأغلب مخازنهم بعيدة عن محلات بيعهم وشرائهم فاذا جاءهم مشترٍ نادوا على خادمهم ان يأخذ المفاتيح ويسلم عدد كذا من صنف كذا فيذهب هذا ولا يكاد يصل الاَّ بعد ساعات لبعد المخازن وفي هذه الاثناء قد يتواطأ احدهم مع الشاري اما بتسليمهِ صنفاً غير الصنف المطلوب او باعطائهِ عدداً اكثر من مطلوبهِ لقاء مبلغ جزئي يعطى من الشاري للمخزنجي . ولسبب عدم علمهم بحقيقة ما في مخازنهم او لكثرة ما يوجد من الصنف المطلوب فلا يمكنهم ادراك ما يسلم الى الشاري . هذا فضلاً عن عدم معرفتهم محال مخازنهم وقلَّ من يدخلها منهم في السنة مرة . ولو دخلها احدهم فعز عليهِ معرفة ما تحتويهِ لقلة الترتيب وسوء الانتظام . ولذا نرى كثيرين منهم يكتفون بقولهم لنا مخازن في الجهة الفلانيَّة

وهذه المخازن أغلبها وكالات مهجورة يمكن السطو عليها في اي وقت كان . فضلاً عن عدم تسجيلها منهم امام شركات الحريق الامر الذي كثيراً ما تذهب بسببهِ تجارة احدهم كذهاب امس الدابر

وهم للآن جاهلون طريقة تصدير بضائعهم سواء كان لداخليَّة القطر او لخارجهِ وجاهلون حتى طريقة ارسال طرود البوستة مع تحويل الثمن عليها . مع ان المصلحة المذكورة مهتمة في هذا الباب بتسهيل عظيم بغية رواج وانجاح التجارة التي يمكن ارسالها بصفة طرود بوستة . وللمصلحة كتاب الدليل فيهِ كل ما ذكر بابسط عبارة ولكن لا اهتمام لاحدهم بهِ مثل اهتمام جماعة تجار الاجانب . فانهم ينتظرونهُ بالساعة حتى يقتنوهُ ويدركوا ما جاء فيهِ . وثمنهُ لا يتجاوز عشرة مليمات وليس للتجار

الوطنيين اعتناءٌ بتجارة السجاير التي تصدر الى الخارج مع ان في ذلك ربحاً عظيماً لهم وان وجد منهم اشخاص فلا يتجاوز عددهم الاربعة وفي كل شهر يتأخرون عن شهر . فانك لو راجعت ما تصدر من محالّهم في هذه السنة وقابلتهُ على السنة الماضية لظهر لك كبر العجز بخلاف نجاح هذه التجارة عند جماعة اليونان والارمن . ويكفي التجار الوطنيين ان تنسب السجاير اليهم وانها مصريةٌ من عندهم [1] وليس النجاح مع جماعة الاوربيين قاصراً على السجاير فقط بل تناولوا كل شيء يربحون منهُ حتى تصدير بيض الدجاج بعد جمعهِ من البنادر والقرى بثمن رخيص [2] وحتى البلح فان لهم فيهِ مكسباً كبيراً لانهم يصدرون "العمري" منهُ الى الخارج في علب مخصوصة من الزنك يكون فيها البلح مرصوصاً مرتباً . وغير ذلك من الاصناف الاخرى كالبرتقان والتين والشمام . هذه ابواب السودان قد فتحت والحكومة فيهِ قد انتظمت واسباب الامن فيهِ قد استتبت فما لنا لا نرى تلك المحال التجاريّة المتقدم ذكرها قد عادت الى اصلها . ومالنا لا نرى لنا في تلك البلاد نصيباً من التجارة كالسابق حتى لا يشكو التجار كثرة الموجود وقلة الطلب . وحتى لا يشكو التاجر من الدهر ومعاتبة الايام لانها تحرمهُ خيرات بلادهِ وتغدق نعمها على غيرهِ من جماعة الاوربيين هذه امور يمكننا الاجابة عليها بقولنا ان من يتعاطى التجارة منا ليسوا في الاحتياط

(١) بلغت كمية المتصدر من السجاير المصرية سنة ١٨٩٨ م ٢٤٦٩٢٨٣٧٤ سجارة وسنة ١٨٩٩ م ٨٩ ٢٩٤٩٠٥ سجارة كلها لجماعة التجار من الارمن واليونان

(٢) بلغ المتصدر من البيض سنة ١٨٩٧ م ١٣٦٧٠٠٠٠ قيمتها ١٢٣٧٣ جنيه وسنة ١٨٩٨ م ٣٤٩٨٢٠٠٠ قيمتها ٤٣١٧٧ جنيه وسنة ١٨٩٩ م ٣٩٧٦١٠٠٠ قيمتها ٤٣٢٤٤ جنيه وسنة ١٩٠٠ بلغ قيمة ما صدر من البيض للخارج ١٠٢٨٠٠ جنيه واهم ما يصدر البيض الى بريطانيا العظمى . واكثرهُ يستحضر من مديريات الوجه القبلي كقنا وجرجا واسيوط والفيوم ومن هذه المديرية الاخيرة يجلب احسن انواعهِ

فيها على شيء لانهم لم يسعوا الى الترقي فيها والاعتماد على شهامتهم مثل ما كانوا قبلاً . والاَّ فاكثر التجارة لبعض الاوربيين وبعض جماعة الاروام والسوريين الذين هم في الحقيقة بيدهم تجارة القطر . والسبب خمولنا وشهامتهم وتأخرنا وتقدمهم والاَّ فالبلاد السودانيَّة اقرب الينا منهم والحكومة واحدة فلماذا لا نذهب اليها كالسابق . مع ان احد البيوت التجاريَّة في منشستر كان لهُ وكالة في الخرطوم قبل عهد الدراويش فاعاد الوكالة الآن وهو يرسل اليها البضاعة والمنسوجات مثل ما كان يفعل منذ عشرين سنة

وفي القاهرة كثيرون من الاروام وغيرهم لا يمر بهم يوم الاَّ ويذهبون الى الاقطار السودانيَّة فينتخبون احسن البلدان ويباشرون المشروعات التجاريَّة . حتى ان احقر البلاد هناك صارت تجارتها بيدهم ولهم في مصر عملاء لاجل سرعة انجاز الطلبات بكل دقة . وناهيك بطرود البوستة التي تسافر اليهم يومياً من قلم طرود بوستة مصر . ويقرب متوسط عددها من مئتي طرد اسبوعياً كلها تقريباً باسماء تجار من الاروام واليهود والسوريين . هذا عدا ما يرسل عن طريق السكة الحديد برسم هاتيك الاصقاع

هكذا تكون حال التجارة وطريقة سيرها . ودع التجار المصريين وبالاخص المسلمين منهم يقضون ليلهم ونهارهم بغيبة بعضهم بعضاً ويرضخون للعجز والكسل وحب الراحة الى ما فوق الحد المقبول والقدر المعقول ولله عاقبة الامور

الزراعة

قال عليهِ الصلاة والسلام " التمسوا الرزق من خبايا الارض "

الزراعة علم عمليٌّ مبني على الحقائق التي عرفها ارباب الزراعة بالاختبار . والزراعة افضل صناعة · واربح بضاعة والفلاح الذي يبذل عافيتهُ لتحصيل ما يفوق كفايتهُ من الثمرات لتغذية ابناء نوعهِ وغيرهم من الحيوانات اولى بالاكرام واحق بالاحترام من غيرهِ

والزراعة تكاد تكون هي العمل الخاص لجمهور سكان مصر · وستبقى كذلك الى ما شاء الله · ولا يزدري بها الاَّ من كان جاهلاً لفوائدها . وفي مقدمة هؤلاء جماعة منا قد انخرطوا في سلك الاستخدام الميري المتقدم ذكرهُ . وسببهُ كما قدمنا جهلهم فضلها · و بالتالي استيلاء الكسل عليهم لما اعتادوا عليهِ في صغرهم من الخلود الى الراحة · والقناعة الممزوجة بالذل بما يكتسبونهُ من استخدامهم في دواوين الحكومة ومصالحها · والاَّ لو كانوا يدركون فائدتها ولذة عيشتها لرأينا اولئك الذين استغنت الحكومة اخيرًا عن خدمتهم بعد الغاء وظائفهم عاملين في خدمتها من استئجارهم للاطيان الاميريَّة وغير الاميريَّة ولكانت اوجدت فيهم الحنكة حب الكد والعمل واستنبات ما يخرج من الارض من فولها وعدسها و بصلها وقمحها وقطنها · بدلاً مما هم متعودون عليهِ من حب المعيشة الاتكالية في وظائف الحكومة.· ولكن ليس رجال الاستخدام فقط هم الذين يستنكفون العمل في الزراعة بل وابناء الفلاحين أنفسهم الذين يخرجون من المدارس سنويًّا و يعدون بالمئات · فهم ايضاً لا يعودون الى زراعة والديهم وحرف آبائهم · بل يبعدون عنها كل البعد ويستنكفون من نسبتهم اليها

ويطلبون الاستخدام في المصالح الاميرية بالاشغال الكتابية

نعم ان ذلك لا ينقص عدد الفلاحين ولكنهم لو باشروا شؤون اعمال والديهم واهتموا بها لتقدمت الزراعة واستحيت الارض بفضل علمهم وعرفانهم وكدهم واهتمامهم. اذ الزراعة انما ترتقي بالعقل واليد وفي اجتماع العلم والعمل يكون التقدم الحقيقي · وفلاحنا في حاجة كبرى لامثال هؤلاء اذ ان جهله ظاهر في عيشتهِ وحرفتهِ

اما في عيشتهِ فدليلنا عليهِ اخذهُ الاموال بالرباء الباهظ وحتى انهُ يقع في احبولة اولئك الذين يعيثون خلال ديارهِ من جماعة الاروام وغيرهم[1] وناهيك بالفلاح المصري وحبهُ للاسراف وجهلهُ حاضرهُ ومستقبله وقلة اهتمامهِ لغدهِ قدر اهتمامهِ بيومهِ وهم المتوسعون في نفقاتهم في السير الى حدٍ دونهُ السفه فضلاً عن خلق التنافس (حتى في الزواج) وهم الكثيرو الخصومات في معاملتهم بعضهم بعضاً لاقل سبب · وقضاياهم ومواقفهم في مزادات البيوع واخذهم وعطاهم مع جيرانهم واقربائهم · كلها اسباب تجر بهم الى الاسراف والاستدانة حتى توقعهم في تعاسة الفقر والعيشة الضنكة · حتى ان ديونهم اصبحت ثقيلة الحمل عليهم[2] وميلهم الى الفتور والى ما يسيء السمعة جعلهم في حاجة الى من يتولى

(١) وفي مصر وحدها من بيوت تسليف النقود نحو ٥٠ بيتاً · وهو اضعاف العدد الذي يوجد في مدينة باريس

(٢) ظهر من سجلات المحاكم المختلطة في سنة ١٨٩٨ ان الدين الموجود على الفلاحين ٧٣٢٣٣٠٠ جنيه وقد يكون عليهم ديون غير مسجلة ربما زادت على ما ذكر ضعفاً او ضعفين "وناهيك عما لحق بهم في سنة ١٩٠٠ بسبب الشراقي ومضاربات البورصة التي قدرها البعض بما يقرب من هذا المبلغ" وليس لهذا الدين سبب موجب سوى انهم غير عارفين بالاقتصاد الزراعي وتقدير الدخل والنفقات · اذ يستدين الواحد منهم مبلغاً يشتري بهِ ارضاً فلا يكون دخلها نصف ربا الدين

اعمالهم بالجد من اهل العلم حتى يجد فيهم حب الانتباه الى ما ينفع وما يضر٠ اذ هم يبيعون محصولهم قبل حصاده او في ابتداء الموسم برخيص الاثمان ٠ وهم لا يعلمون ما يأتي بهِ الغد من الاسعار ٠ والشاهد السنة الماضية وما قبلها فانهُ مع صعود الاثمان باعوا كلهم في ابتداء الموسم برخيص الثمن ٠ فضلاً عن ولوجهم ابواباً يجهلونها من شراء الاسهم والسندات التي كثرت اخيراً بسبب الشركات (١) التي لا يعرفون حقيقتها ولا ما هو الغرض منها مما يدل صراحة على احتياجهم كلهم لمن يفهمهم حقيقة ذلك٠ والفلاح لو وفق الى من يعرّفهُ ما يجلب عليهِ الضرر والى من يعرفهُ ايراداتهُ ومصروفاتهُ لتحسنت شؤونهُ واحوالهُ٠ ولبعد عن السير الذي يتبعهُ

اما جهلهم في حرفتهم فدليلنا عليهِ قلة غلة الزراعة في القطر اذ هي لا تزيد على الثلاثين مليون جنيه لو قسمت على السكان لما نال كل نفس سوى اربعة جنيهات وهو مبلغ قليل بالنسبة الى ما تستغلهُ الامم الاخرى التي اراضيها كاراضينا مثل امركا وفرنسا وغيرها فانهم يستغلون اضعاف هذا المعدل ولذلك اسباب جمة منها اتقان الحرث والصرف وتعاقب الزراعة باضافة السماد لا تعاقبها بقلة الدراية حتى يؤدي لموتها ٠ والسماد الجيد في مصر كثير٠ وحتى اذا لم يكن موجوداً فيمكن استحضارهُ بالمعرفة وهو لو وجد وساعدهُ خصب الارض المشهور لضاعف غلتها٠ افليس في القاء اجسام الحيوانات في النيل وفي الطرقات بعد موتها ضياع لأعظم سماد . وهي لو تحفر لها الحفر وتطمر فيها الى ان تحلل وتمتزج

(١) للشركات سماسرة عددهم يزيد عن الثلاثة آلاف عداً كلهم يسرحون في القرى والبنادر لبيع الاسهم والسندات للشركات بتقاسيط شهرية من عشرين غرشاً الى مائة غرش. "ذكر المؤيد الاغر" ان شخصاً من النزلاء الافرنج انشأ من مدة ثلاثة سنوات بيتاً مالياً في القاهرة رأس ماله الفين جنيه فاصبح الآن وهو صاحب خمسين الف جنيه مصري وهو لو راعي الذمة في عملهِ ما ربح هذا القدر حلاً ومناماً . اه

بالتراب لوجد فيها فوائد عظيمة تنفع الارض فضلاً عن منافعها الصحية

وجهل الفلاح لما يلائم طعاماً للحيوانات ضرره كذلك عظيم . فانهم يتركون حيواناتهم اذا اصيبت بالامراض تعدي بعضها بعضاً وتموت . هذا ولا تسأل عما جدّ فيهم من تسميم حيوانات بعضهم بعضاً واتلاف مزروعاتهم لجيرانهم ولغيرهم ايضاً

ومن الغريب ان قطرنا العزيز كان مقر تربية الخيول من قديم الزمان وكان اهل الشام وغيرهم يأتون اليهِ لابتياع الخيل منهُ فصار اهل مصر يمضون الى الشام وغيرها لابتياع الخيل منها (١) والخيل لازمة لكل البلدان الزراعيَّة للحمل وغيره ونفقتها فيها قليلة . كل ذلك دليل جهلهم في حرفتهم والاَّ فأرني دعائم الزراعة من بساتين لامتحان الزرع واتقان لآلات الزراعة «ولا يزال المحراث المستعمل في مصر هو هو الذي كان مستعملاً من الفي سنة » او أرني من مستلزمات الزراعة شيئاً من تربية النحل في الجنائن وهي الكثيرة وهو لا يحتاج لكبير مشقة

ذلك فضلاً عن حاجتهم لديوان زراعي يهتم بكل ما يتعلق باراضي القطر ليغني الحكومة والاهالي من انفاق النفقات على التجارب مثل ابادة الحشرات التي تسطوا على المزروعات سنوياً ويهتم بادخال المزروعات الجديدة التي تنمو في القطر والشروع في انشاء الاحراش وغيرها التي كان في القطر منها شيء كثيرٌ والتي لا غنى لقطر زراعي كقطرنا عنها . ويراعي ما يجلبهُ المزارعون من الخارج مما يكونوا في غنى عنهُ لو زاد الاهتمام بالزراعة فيداويهِ . اذ المتأمل فيما يرد على القطر من الحاصلات الزراعيَّة تأخذهُ الدهشة وخصوصاً لو علم ما يجلب بكثرة من الغنم ونحوها من

(١) كثيراً ما احتاجت نظارة الحربية ومصلحة البوليس للخيل وارسلا الوفود لشرائها من سوريا و بالاخص في حرب السودان الاخير من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٨٩٩

المواشي ومن اللحم المقدد والمدخن ومن السمك المقدد والمملح ومن الجبن والزبدة [1] ومن القمح ومن الذرة والشعير والارز والسمسم والبطاطس والنيلة

والقطر في حاجة لكثرة المعارض الزراعيَّة التي هي من اقوى دعائم الزراعة والتي من الواجب ان يكون كل شهر معرض في احدى المديريات . ولا يخفى ما في المعارض الزراعيَّة من المنافسة والمسابقة والاختبار والاعتبار

نعم ان الحكومة اهتمت بما ذكر وايضاً بعض كبار المزارعين واقامت معارض لهذا الغرض من بضع سنوات مضت . ولكنَّ المتأمل يرى ان ذلك قليل النفع اذا لم يعمم في كل المديريات مديريَّة بعد اخرى على عدد اشهر السنة

وهذا معرض سنة ١٩٠٠ اعظم شاهد على قلة الفائدة فان الزائرين (لا العارضين) لهُ لم يتجاوز عددهم ٨٠٦٤ زائراً وانت لو استقصيت الحقيقة لوجدت اكثر من نصف زائريهِ من الاجانب واكثر من الربع من تلامذة المدارس

لعمري ان ما بقي لعدد قليل على قطر زراعي يبغي التقدم الحقيقي ويود تحسين زراعتهِ وكل اهلهِ من اربابها وحياتهم كلها منها . هذا حاضر الزراعة المصريَّة وهي الموروثة من اجيال مضت وقبل ان يعرفها من سبقنا فيها بأجيال

افبعد ذلك من دليل على العجز في مباشرة شؤونها . ام تقول معي حبذا الزراعة لو اقترنت بالعقل واليد مع النشاط والجد لنصبح يوماً ونحن غير مفتقرين لغيرنا فنعيش بسلام آمنين

(١) جد من امد ليس ببعيد ثلاثة معامل للزبدة ولكن كلها لجماعة الافرنج

الصناعة

قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنهُ (قيمة كل امرىء ما يحسنهُ) وقال ايضاً (الناس ابناء ما يحسنون)

لولا الصناعة لدام الانسان في فطرتهِ الاولى متأخراً خاملاً . والصناعة من الامور الضرورية للهيئة الاجتماعية وعليها تتوقف حياة كل أُمة وهي السبب في تعليم الشعوب حب الاستقلال بالافكار والاعمال . وحب الاعتماد على النفس وكانت مقاليد الصناعة في مصر في عهد الولاة الاولين تناط بالحكومة فكانت هي المتولية امورها وشؤونها . حتى انهُ ليصعب على المرء معرفة حالة الحكومة المصرية الماضية . وما اذا كانت حكومة ادارية اوزراعية او تجارية او صناعية لما يُعلم من انها هي التي كانت تأخذ على عاتقها انشاء المعامل وادارتها ومد الخطوط الحديدية وتسيير السفن البخارية التجارية وانشاء المطابع وغير ذلك من الاعمال والمشروعات التي لا تقوم عادة بها الحكومات المتمدنة . بل تعد الامة نفسها للاقدام عليهِ . نقول هذا عن الحكومة الماضية وهو قول حقٍ . لأَنهُ كان السبب في اقعاد الامة عن السعي في ترقية شؤون الصناعة بنفسها لانماء ثروتها . وفي ايراد الصناعة موارد التقصير المعيبة كحال الصناعة الوطنية التي نراها في نكوص دائم وتأخر مستمر يوماً فيوماً . والتي اذا بقيت حالها سائرة القهقرى آلت الى العفاء والمحو . على ان غاية ما يمكن ان يقال في الصناعة الوطنية انها منحصرة في صنع الحصر والفخار وحياكة بعض المنسوجات القطنية وغيرها من مثل الحدادة والبرادة وعمل الجزم التي يتولى عملها بعض الافراد في معامل وورش حقيرة وهي غير آخذة في التقدم غير ان حالة الصناعة عند النزلاء الاوربيين بيننا في تقدم ونجاح . فهم اصحاب معامل

السكر وتكريره وأصحاب وابورات حلج القطن ومعاصر الزيوت واستخراج الصودا والنطرون وغير ذلك . ومع هذا فالناظر الى واردات القطر يجد الصناعة فيهِ بوجه الاجمال متأخرة تأخرًا عظيمًا والمصري يعذر من وجه ويلام من وجه آخر على تواكلهِ وتخاذلهِ وبيان هذا الاجمال أنهُ لا يؤمل صنع المصنوعات التي يؤتى بكل موادها الاصلية من البلدان الخارجيَّة في قطرنا . ولكن يؤمل ان المصنوعات التي موادها الاصليَّة موجودة في القطر يجب ان تصنع على الاقل فيهِ . فالسكر المكرر يرد منهُ من الخارج ما تقدر قيمتهُ بثلاثين الف جنيه مع ان معامله في القطر على ما مرَّ بنا وكان الواجب ان يفي بحاجاتهِ او يزيد عليها . والورق وهو سهل العمل وموادهِ عندنا فكان الواجب ان يعمل في قطرنا وحاجتنا اليهِ شديدة لأنهُ من لوازم العمران وبعض الامم تقيس عمرانها على مقدار ما تستهلك منهُ فمن العار علينا اذًا هذا التقصير في عملهِ . والقطر السوري الذي هو متأخر عنا بمراحل يصنعهُ ولا يشكو اهلهُ قلتهُ كما نشكو نحن وجرائدنا (١) ومثل ذلك يقال عن الحبر وحبر المطابع التي اصبحت كثيرة الآن بمصر . ومن الغريب في الصناعة المصريَّة ان اهلها من المصريين لم يتقدموا فيها ولم يحافظوا على ما كان معروفًا لديهم . فان المتأمل يراهم قد نسوا او تناسوا ما كان آباؤهم واجدادهم يصنعونهُ قبل مما يعجز صناع اوربا عن عملهِ مثل النجارة العربيَّة « الانتيكة المشربيَّة » التي ضيعوها وان صنعوها الآن مسخوها وهي الآن بيد جماعة من الافرنج وليس ببعيد عليهم ان يشتهروا بها في زمن

(١) علمنا انهُ قد تألفت شركة صغيرة في الاسكندرية لعمل الورق وبلغنا انها تصنعهُ على انواعهِ والوانهِ ما عدا ورق الكتابة وورق الجرائد. وهي تصنع على ما يقال في اليوم الواحد من ٥٠ الى ٦٠ قنطارًا بماكينة صغيرة واحدة فقط لان اسهمها كلها يبلغ ٨٠٠٠ جنيه ولربما كان الداعي في عدم توسيع نطاقها قلة راس مالها

قريب (١) وقد غفلوا عن استقطار ماء الزهور الكثيرة في مصر مثل ماء النعناع والورد والفليا · وفائدة استقطارها معلومة لا تخفى على احد . وان وجد من يستقطرها فافراد من النساء يستخرجون منها القليل ويمزجونهُ بالماء الكثير ويبيعونهُ داخل قناني في القهاوي وهنَّ متهتكات وغني عن البيان ان البلاد في حاجة الى ذلك ولا سيما حينما تتغير ماء النيل في شهري مايو ويونيو ويوليو من كل سنة . والمتأمل في تقرير مصلحة الجمارك يرى كثرة ما يرد على القطر سنوياً من ذلك من البلاد السوريةِ وغيرها . وهذه اشياء سهلة العمل جدًّا ويمكن تعلمها بعد المشاهدة مرة واحدة . كما هو ممكن صنع انواع الطيب الاخرى التي يرد منها على القطر من الخارج ما تقدر قيمتهُ باحدى عشر الف جنيه . ويمكن ايضاً صنع الاكياس والحبال . ليستغني القطر عن جلبها من الخارج . ويمكن عمل قماش القلوع الذي يرد علينا منها ما تقدر قيمتهُ ١٥٠٠ جنيه وجميع مواد هذه الاحتياجات موجود عندنا ويمكننا صنعها في بلادنا فنربح نحن ما يربحهُ التاجر الاوربي الذي نستوردها على يدهِ وينتفع عملتنا الفقراء باجور صنع هذه الحاجيات عوضاً عن نفع العامل الاجنبي

ويضيق بنا المقام لو عددنا الاصناف الاخرى التي يمكنا صنعها مثل الجير والاجر فان قيمة الوارد منهما لا تقل عن الخمسة والعشرين الف جنيه

والخلاصة انَّا مقصرون في الصناعة حتى في صناعة عمل الخبز فان باعة الخبز عموماً يملأُونهُ ماءً حتى يثقل وزنهُ على غير زيادة في موادهِ الغذائيَّة (٢) وما يقال عن الخبز يقال ايضاً عن الجبن فان قيمة الوارد منهُ سنة ١٨٩٨ تقدر بمبلغ ثلاثة

(١) اذ المكان الجميل الذي وضعت فيهِ مخلفات سيد الكون (عليهِ الصلاة والسلام) في المشهد الحسيني من صنع الاجنبي وهو لعمري اقدس الاماكن في القطر المصري

(٢) لهذا السبب انشأ الاجانب في الاسكندرية (مخابز صحية) بواسطة شركة بلجيكية

عشر الف وست مئة جنيه . ونحن مقصرون حتى في تنظيف ما في بيوتنا من الاواني الغالية الثمن حتى اننا نحتاج عند تنظيفها الى الاجانب وربما احوجتنا الحالة ان نرسلها الى الخارج . وان اردنا لحم شيءٍ بآخر ولو كان من الزنك لا ندري كيف يصنع ذلك وهذا غاية في الكسل ونهاية الاهمال وما أظن أمة من الامم قد ادى بها الانحطاط الى ما نحن فيهِ وان لم نتدارك شؤون الحياة بهمة قويّة وعزيمة ماضية صرنا الى ما لا تحمد عقباهُ من سوءِ الحال وخيبة الآمال والعياذ بالله

نسأل الله ان يحيي فينا حب الميل الى الصناعة حتى نحيا حياة اقتصاديّة جديدة ونجد فينا حب الابتكار في الصناعة فيكتسب الصانع كسبهُ بطرق محللة فان الصناعة ينبوع ثروة لا ينضب وسر من اسرار الاستقلال الصحيح

المطابع والطباعة

ونفعها الماضي وضررها الحاضر

اهتمَّ المصريون بالمطابع والطباعة بعد ان عرفوها من حكومتهم عند اهتمامها بانشاء مطبعة بولاق سنة ١٢٣٨ هجريّة فانشأ الافراد منهم مطابعهم الخاصة ليشتغلوا فيها بطبع الكتب والرسائل فطبعوا ونشروا الشيء الكثير وكان جل اهتمامهم في اول امرهم بطبع كتب العلم من الحديث والتفسير وكتب التاريخ وغير ذلك مما وفقوا لطبعهِ من باقي العلوم الاخرى التي تكسب النفوس بعض الحياة وتحيي فيها بعض ما اندرس من العلم وتبين بعض ما انطمس من الحقيقة على الفهم . ظلوا على ذلك في مبدإِ امرهم حتى استبشر العقلاء بالمستقبل الحسن لتقدم الامة المصريّة . غير ان الحال لم تدم طويلاً بل تبدلت بطبع الضار والمفسد من الكتب حتى اصبح ديدن اصحاب المطابع المصريّة (وخصوصاً الاسلاميّة منها) الميل الى طبع كتب السخافة

والاوهام . ولعلمهم ان العامة اميل الى ذلك من العلم والحقائق أكثروا من طبع القصص والحكايات الغرامية والفكاهية والاشعار الغير المستظرفة وكتب النوادر والمجون المفسدة للاخلاق والطباع والخيال ككتب الجفر والزايرجة والملاحم المملوءة بقول الزور والبهتان المنسوبة كذباً الى مشاهير الاسلام من اهل البيت وغيرهم [١] من ذوي الاصل الكريم والفرع الطيب غير ان اصحاب المطابع السورية وخصوصاً في هذه الايام لم يلتفتوا الى مثل هذه الخزعبلات بل ساروا سيراً حثيثاً يدل على اهتمامهم بمطابعهم وطبعهم الشيء النافع . فانك لترى بين ايديهم كتب الجد الحاثة للامة على الظهور في عالم الحقيقة وما السبب في ذلك الا اعتناؤهم بطبع كل شيء نافع مفيد . خذ لذلك مثلاً كتب الافاضل الذين ألفوها او ترجموها في الحقائق تراها مطبوعة في تلك المطابع وما بقي من كتب الجهل الدالة على ضعف العزائم فمطبوع في مطابع المصريين و بالاخص المسلمين . مما جعل القراء المدققين في دهشة من ذلك واستغراب . حتى حق للعاقل ان يزدري بالمطابع المصرية ولا يطبع فيها ما دام يمكنهُ التمييز بين كتاب مطبوع في مطبعة احد المصريين و كتاب مطبوع في مطبعة احد السوريين . اذ يتبين لهُ عظم الفرق بين ما يطبعهُ هذا وما يطبعهُ ذاك . ففي الاول يرى من سقامة الطبع ورداءة الورق ما ينفر منهُ ذوقهُ .

(١) وحبذا لو كان علماؤنا ينبهون على هذه الكتب الضارة ليجتنبها الناس ولا يلتفتوا اليها وما اضر بالمسلمين شيء كاضرار هذه الكتب التي أقعدتهم عن السعي والعمل وغلت أيديهم عن الجد والاشتغال بما ينفعهم ومن الاسف ان بعض من ينتسب الى الازهر قد طبع كتاباً في العام الماضي من اشنع الكتب المضرة واعلن عن بيعهِ في الازهر ولولا ان ينتبه لذلك ذوو الحكمة و يضربوا على يدهِ و يؤدبوهُ لكان الامر من أفظع الامور وانا نستلفت انظار العلماء الى تلافي هذا الخلل ووضع قاعدة لدرء هذه المفاسد الناشئة عن هذه الكتب المنتشرة وهذا واجب يلقى على عاتقهم لا يمكنهم التخلص منهُ أمام الله والناس

وفي الثاني دقة الوضع ونظافة الطبع . وما ذلك الاّ من نتيجة اهمال الاولين لعملهم واعتناء الآخرين بهِ وعدم جلب الاحرف الصحيحة بدلاً من الاحرف القديمة التي برت ضلوعها طرق الآلة الطباعيَّة وطول الاستعمال وهذا هو السبب الثاني في تأخر مطابع المصريين . كل ذلك بقطع النظر عما يحصل في مطابع المصريين من كثرة الغلطات وسقوط نقطة او كلمة او تداخل احرف اللفظة في احرف جارتها . ولذا يندر ان يكون كتاب مطبوعاً في مطابعهم بدون فهرست في آخرهِ ميناً فيهِ الخطاء من الصواب او الاعتذار للقارىء عما عساهُ ان يكون فيهِ من السهو

هذا قولنا عن المطابع المصريَّة وهو القول الحق الاّ اننا نؤمل خيرًا في المستقبل فقد انتبه منا بعض الشبان المهذبين فانشأوا مطابع لطبع الكتب طبعاً نظيفاً يسر الخاطر كمطبعة الشاب المهذب محمد علي كامل افندي وغيرهِ

ومما يسرنا ذكرهُ ايضاً انهُ تألفت من مدة جمعيَّة لطبع الكتب العربيَّة (١) المفيدة وقد طبعت للآن سبعة كتب جديرة بالمطالعة لما فيها من بعض الفوائد . غير انا لا نزال مقصرين ولا يزال باقياً لدينا كتب كثيرة ذات فائدة علميَّة وتاريخيَّة نحن محرومون منها مع انها في لغتنا ونحن الاحق بمطالعتها وقراءتها لنقف على ما كتبهُ آباؤنا الاولون . ومن هذه الكتب عدد عظيم في دار الكتبخانة الخديويَّة وهي احق بالطبع من كتب القصص والحكايات الغراميَّة وكتب النوادر والمجون والخيال التي اعتنينا بطبعها ونشرها . وهذه الكتب يعلم اسماؤها من مطالعة فهرست

(١) بعد ان كتبنا عن هذه الجمعية علمنا انهُ تشكلت جمعية باسم جمعية احياء العلوم العربية تحت رئاسة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وقد طبعت كتاب المخصص في اللغة لابن سيده وهو من الكتب النادرة المثال وقد اعلنت الجمعية عنهُ وستوالي طبع الكتب النافعة وهذه الجمعية اعضاؤها من خيرة رجال القطر ونبهائهِ وفقهم الله واكثر من امثالهم آمين

الكتبخانة المذكورة وإلاَّ افليس من العار على من يعتني بطبع ما تقدم ألاَّ يعتني بطبعها[1] . أليس من العار علينا ايضاً ان يطبعها الافرنج بلغاتهم بعد ترجمتها ثم يدرسونها في منتدياتهم العلميَّة وهم بعيدون عن اللغة العربيَّة ونحن اقرب اليها منهم . حقاً ان من يعرف كثرة طبع الافرنج لها يأخذهُ العجب[2] فعسى ان ينتبهَ اصحاب المطابع منا ويعتنوا بمطابعهم فينشروا تلك الكتب ويتنافسوا في طبعها بدلاً من كتب السخافة والهذيان التي افسدت علينا اخلاقنا وغيَّرت محاسننا حتى اصبحنا نخاف ان يكثر اولادنا من قراءتها واقاربنا وجيراننا ايضاً فتؤثر في عقولهم واخلاقهم التأثير السيء الذي ينغص الهيئة الاجتماعيَّة والعائليَّة . وحبذا لو ساعد الاغنياء واهل العلم منا جمعيَّة طبع الكتب العربيَّة وجمعيَّة احياء العلوم العربيَّة ايضاً هذا بمالهِ وذاك بعلمهِ لتحيا اللغة ويكثر الانتفاع حقيقة بالطبع والنشر . حتى لا يضحك علينا بعدنا اولادنا ومؤرخونا ويقولوا عنا انا كنا نهوى الداء وهو يتمادى معان الشفاء بيننا يتهادى ولكن لا نمد لهُ يدًا . وكيف لا يضحكون واليك جدولاً مبيناً فيهِ الكتب التي أُلفت وطبعت في القطر خلال السنوات الخمس الاخيرة

عدد

٧٥ روايات وقصص

(١) ومن العجيب الغريب المضحك المبكي ان باعة الكتب وطابعيها عندنا لاهمَّ لهم ولا لذة الاَّ بمعاكسة بعضهم بعضاً والسعي في اضرار انفسهم ولا يتنافسون الاَّ على مثل كتاب الف ليلة وكتاب سيف البزن ورجوع الشيخ ولذا تراهم يكررون طبع الكتاب مرارًا والحال انهُ لم ينفد ولكن سعياً في ايذاء الذي طبعهُ اولاً وهذا شأنهم ومن العجيب ان يطبع كتاب الف ليلة عشرين مرة وكتاب المدخل لابن الحاج مرة واحدة وهذا يدل على انحطاط كبير فينا وخذلان ليس لهُ مثيل والعياذ بالله

(٢) انظر ما كتبهُ فاضل في مجلة المقتطف الجزء ٤ سنة ٢٥

عدد	
١٩	كتب تاريخيّة واكثرها من اسلوب واحد
١٥	" ادبيّة
٠٩	" مجون ونفاق مثل كتاب المسامير وسهام التدمير وانقاذ الاخوان
٠٤	" سياسيّة
٠٣	" حسابيّة
٠٢	" في التربية
٠٢	" في الامثال واصل الكلمات العاميّة
٠٣	" في العلوم الفنيّة
٠٩	" ورسائل في المواضيع الدينيّة مثل رسائل الردود على القسس والقسس على المشايخ
٠٤	" في اللغة القبطيّة والهيروجليف
٢	" " الزراعة
٦	" " الرثاء
٤	" دواوين
٢	" في الانشاء
٣	" « التراجم
٢	" « الحقوق
٢	" « الطب
٢	" " علم الآثار

الكتب والمؤلفون بمصر

ان كان عدد المدارس وعدد المتعلمين والنظام المالي والاقتصادي يعتبر من الادلة الصحيحة على درجة مدنيَّة البلاد فنوع المؤلفات التي تنشر فيها من حين الى حين وعددها ايضاً من احسن الشواهد على درجة ماهيَّة هذه المدنية . اذ هي خلاصة افكار وخواطر نخبة الامة ومرآة ذوق المتنورين واميال الفئة المتعلمة بأسرها . ومعلوم ان المصلحة الشخصيَّة هي المحرك لجميع الاعمال في هذه الحياة ويستحيل ان يهتم شخص في الوجود لامرٍ ما لم يكن مسوقاً اليهِ بحب المصلحة الذاتيَّة. فتارة يكون اندفاعهُ طلباً في الافتخار " والانسان طبيعة يفتخر بجمالهِ وعلمهِ وادبهِ وثروتهِ وتواضعهِ وتنسكهِ حتى عند ما يكون ظاهر عملهِ تضحية حب الذات " وتارة سعياً وراء المال او الانعام وغير ذلك من العوامل الادبيَّة الخفيَّة . اذًا لا بد ان يكون للمؤلف مثل غيرهِ من غاية او محرك في عملهِ . ويمكن تقسيم المؤلفين من هذا القبيل الى (اولاً) مؤلفين غايتهم نشر افكارهم العلميَّة خدمة للعلم او الوطنيَّة او الدين او الآداب . ولشهرة انفسهم مع الامل بالربح المادي انما دون ان يكون هذا الاخير المطمع الرئيسي . وهذه هي اقل فئة بين العالمين

(ثانياً) مؤلفين غايتهم في جانب الشهرة الربح المادي وربما اختلف البعض عن الآخر في انهُ يرمي اولاً الى الشهرة او الى الربح انما بوجه الاجمال يصح القول بأن الغاية الرئيسيَّة من السالف بوجه عام هي الربح والشهرة

ونحن مع كوننا من فئة المستبشرين القائلين بسير البلاد الى الامام نوعاً لا يمكننا ان نقول باعتقاد صحيح ان في مصر عدداً محسوساً من الفئة الاولى وربما لا يخلو الحال من افاضل هم حقيقة منها وما منعهم عن الظهور الاَّ ترجيحهم بأنهُ لا

يوجد في القوم من يقدر كتابتهم حق قدرها و يهتم بقراءتها فلا يرون من العقل الاشتغال في اعمال لا يتوقع فائدة منها . ولكن هذا لا يوجب الانشراح على اية حال سواء كان الرأي صحيحاً ام لا فالنتيجة ان البلاد خالية من اعمال اهل العلم الصحيح "ما عدا النزر القليل جدًّا وسيأتي الكلام عن ذلك" وتدل ايضاً ان هذه النتيجة القليلة ليست مثل قريناتها في بلاد المتمدنين اقداماً ومنفعة للبلاد ولا يصح التعويل عليها بصورة توجب الانشراح . اما القسم الثاني من المؤلفين فلو انهُ يوجد بعض التماثل بين اعمالهم واعمال بعض المؤلفين في غير هذا القطر ولكن بوجه الاجمال لا يمكن مقارنتهم بهم لا من حيث عدد المؤلفات ونسبتها ولا بالاخص من حيث نوعها وقيمتها

ففي البلاد المتمدنة يوجد مؤلفون علميون ومؤلفون سياسيون ومؤلفون اقتصاديون ومؤلفون دينيون ومؤلفون اديون ومؤلفون فكاهيون الخ الخ . يختلفون طبعاً من حيث متانة البحث وآداب الكتابة ولكن في كل درجة منهم ما يكفي لحاجات جميع الطبقات . ويمكن ان يقال ان في بلادهم كل شيء في تقدم حتى الذل . نعم يتمنى المرء العاقل ان تكون جميع الخواطر منصرفة الى الجد ولكن هذا يستحيل ما دام الانسان انساناً والدنيا دنيا ولكن وجود الذل وغيره يكاد لا يؤثر على تقدم البلاد نظرًا لاهتمام الفئة الكبرى بما يرقي البلاد علماً وادباً وثروة

اما في مصر فالمؤلفات المفيدة التي من هذا القبيل تكاد لا تذكر وعيوب العدد الاوفر منها اكثر من فضائلها . فجرائدنا وكتبنا لا تخلو من محل للانتقاد الصحيح اكثر بكثير من نظيراتها عند غيرنا . واغلبها خلو من المباحث العلمية او الفلسفية او الادبية او التجارية وقاصرة على التهكم على بعض افراد لغايات دينية محضة او على نشر اراجيف وخرافات وافكار ومباحث تضعف الذوق العلمي

وملكة العقل الصحيح عند اهل البلاد فهي اذًا تساعد على انحطاط العقل اكثر من مساعدتها على ترقيتهِ وتدل دلالة واضحة على انحطاط نفس المؤلفين وهم بحسب الارجح الفئة التي امتازت عن المجموع علماً وادباً وأمكنها ادارة الاقلام

ونحن لا نقول هذا عفواً بدون تبصر فان مصر مع انها تعتبر عاصمة البلاد العربيةً حضارة ومدنية هي بنسبة مركزها الحالي احوج الى الكتب العصريةً المفيدة من غيرها فالمؤلفات المذخورة في الكتبخانات العمومية والخصوصية تكاد تكون قاصرة على بقايا العصور الخالية فالادبية والفلسفيةّ منها قد لا تطبق على آداب وفلسفة الوقت الحاضر الانطباق اللازم . والتاريخيةّ منها اكثرها خطل وحكايات ليس لها في الغالب أساس علمي " أُنظر بعض المؤلفات التاريخيةً من التي طبعت اخيرًا وذكرنا عددها في الفصل السالف " واللغوي منها كلهُ تكرار ومزج غير مفيد " انظر كتاباً من الكتابين المؤلفين في الانشاء الذين ذكرناهما في الفصل السابق "

والعلمية منها لا علم صحيح في اكثرها لان اغلب قضاياها قد ثبت عدم صحتها . ولو انهُ لا يوجد الاّ نفر قليل مهتم فعلاً بمطالعتها ولكن مجموع خرافاتها واضاليلها ما زالت منتشرة بين الجمهور . وهذا هو اكبر عامل مساعد على بقاء القوم في حالة الانحطاط العلمي خصوصاً وانهُ لم يفطن احد من ذوي النشاط العلمي الى دحضها بالاساليب المألوفة في غير هذه البلاد

نعم يظهر بيننا من وقت الى آخر مؤلفات بعضها مفيد نوعاً ولكن أغلبها كما قلنا عبارة عن ترجمة بعض روايات افرنكية قد لا تنطبق على المطلوب في هذه البلاد خصوصاً وان الترجمة تفقدها في الغالب قوة اللهجة ولذة العبارة وربما كان لمترجميها بعض الفوز اذ هم لا غاية لهم منها غير مجرد الفائدة المادية حيث ينظرون الى هذه البلاد كسوق رابحة تروج فيها بضائعهم والغاية الادبية من الروايات بوجه

العموم تمثيل عوائد البلاد ونقائص احكامها ونظاماتها واستبداد حكامها استنهاضاً لهمة الامة ولتقويم المعوج . فالتي يكتب منها لبلاد معلومة قد لا يكون لهُ كل المعنى المطلوب في هذه البلاد . فما عدا العدد القليل جدًّا لم يظهر عندنا شيءٌ مفيد من هذا القبيل . وكذا قل عن التاريخ . اما عن الآداب والفلسفة فلا محل لهما في الكلام لخلو البلاد تقريباً من مباحث صحيحة فيها . والعلة الحقيقية في ذلك ما هو سائد في اذهان العوام من ان كل بحث عقلي يناقض الاعتقاد الديني. وان هذا مقدس لا يصح التعرض لهُ ولا غرابة ان استمر مثل هذا الاحساس المضر في القوم ان كانت جميع المدارس العائلية والابتدائية والعالية والاجتماعية خالية كل الخلو من كل بحث في علل الاشياء ولا غرابة اذا انقضى القرن التاسع عشر ودخل القرن العشرون واكبر مدرسة عربية "الجامع الازهر وما يماثلهُ" ليس فيهِ شيءٌ من المباحث الفلسفية العصريَّة التي بدونها يستحيل تقريباً تهذيب النفوس التهذيب الحقيقي الذي تقوم عليهِ المدنية الصحيحة. فان كان لمثل هذه المباحث او لمثل هذه المبادي نصيب واعطي لتربية النفوس والاخلاق محلاً ولو جزئيًّا في بروجرامات المدارس لامكن التمييز بين منطقة نفوذ الدين ومنطقة نفوذ العلم ولظهرت بيننا كتب ومؤلفات تنهض بالامة نهضة محسوسة يمكنها معها مجارات الامم المزاحمة لنا هذه المزاحمة القويَّة

اما المؤلفات العلمية فقد انقرض زمنها لاسباب شتى اخصها عدم وجود فائدة بالمرة من الاشتغال بها . اولاً لعدم استعمال المدارس الكتب العربية في تدريس العلوم . ثانياً لعدم اهتمام الناس بالعلوم حباً فيها لاعتقادهم عدم فائدتها في حالة البلاد الراهنة . ثالثاً لعدم وجود فئة محسوسة من اهل العلم الصحيح الذين يدأبون من انفسهم على نشرهِ بصرف النظر عن جميع الموانع

اما المجلات والجرائد فان استثني منها النزر القليل جدًّا الذي لا يعود فضله لاهل البلاد الاصليين فالباقي انما هو عبارة عن جرائد قليلة الاحتفاء بعزة النفس والرفعة الصحيحة غير واسعة الاطلاع والتمكن من المسائل السياسيَّة والاجتماعيَّة وجميعها ترمي الى غايتين أساسيتين . الاولى خدمة مصلحة اصحابها . والثانية خدمة الفئة المنتسبة لها دينًا . فهي اذًا من اقوى العوامل على نشر التعصب واضعاف البلاد واكثر ما يدرج فيها يقصد منهُ التشفي الذاتي وتوليد الضغائن وبحمد الله كلها مجمعة على البعد عن واجب الكتابة والمباحث المفيدة الّا ما كان في بعض الاحيان من المسائل التي يجرهم اليها ظهور الحقائق بحيث تتغلب على مآربهم واميالهم من حيث لا يشعرون وهذا قليل من سوء حظ البلاد

كتب مفيدة

وان كان كتاب " سر تقدم الانكليز السكسونيين " وتحرير المرأة " "والمرأة الجديدة " مقدمة لحياة جديدة لهذه البلاد فهي كافية لمحو عارها واحياء آمال محبيها . اني لست اول معجب بكل حرف من هذه الكتب النفيسة ولست ممن خصوا بالنصيب الاوفر من العقل لتقدير ما ورد فيها من المبادىء السامية التي تستحق بلا مراء ان تزين بها العقول والمكاتب والمنازل ولست لسوء حظي من الذين يستطيعون اظهار فوائدها ولكن شغفي بها يدفعني دفعًا الى افراد باب لكل منها

"كتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين"

" لسعادة العالم الفاضل احمد فتحي زغلول بك "

قصد واضع هذا الكتاب احسن علم اجتماعي جمع فيهِ خلاصة ابحاثهِ وابحاث قرنائهِ في نظام فرنسا الاقتصادي السياسي ومقارنتهِ مع نظام انكلترا التي منها يتضح

علة تقدم الاخيرين وتأخر الاولين . فهو اذاً قاصر على مباحث اجتماعية محضة لا دخل للدين فيها . ولوجود تشابه محسوس بين الجمعيَّة المصريَّة والجمعيَّة الفرنسويَّة من بعض الوجوه لاحظ سعادة العالم المدقق احمد فتحي زغلول بك ما ينجم لامتهِ من الفائدة من نشرهِ وشرحهِ وتذييلهِ بالملحوظات الخاصة بهذا القطر

فالكتاب جليل القدر . (اولاً) لانهُ اول موَّلف في بابهِ وقف على علل انحطاط الامة الافرنسيَّة الحقيقيَّة من عالم مدقق تقريباً فريد من حيث كيفيَّة ابحاثهِ وحريَّة نظرياتهِ . (ثانياً) لانهُ بحث في مسائل ماليَّة جوهريَّة يتوقف عليها حياة امة او زوالها . (ثالثاً) لانهُ يخص كل فرد من افراد الامة بدون ادنى ارتباط للاعتقاد الديني

وهو ذو قيمة خصوصيَّة بالنسبة لهذه البلاد . اولاً لانهُ اول موَّلف ظهر في بابهِ فيها . ثانياً لان البلاد في حاجة واضطرار اليهِ . ثالثاً لان ناقلهُ الى العربيَّة عالم فاضل لا شبهة في اقتدارهِ على اظهار مزاياهُ واكسابهِ قوة التأثير التي لكتابهِ الاصلي في بلادهِ خصوصاً وانهُ قد وضعهُ بصورة تفي بحاجات البلاد الخصوصيَّة فرغماً عن هذه المزايا لم يلقَ كل الاهتمام اللائق لهُ . وعذر القوم في ذلك واضح فانحطاطنا الادبي مشاهد بالعيان . ونحن لا نلوم الفئة الكبرى لان جهلها المعلوم يلتمس لها العذر ولكن الفئة القليلة التي كان ينتظر ان تنظر لهُ بعين الرضا على الاقل وتهتم بالبحث فيهِ بقصد الامعان . كانت مع الاسف من اشد العاملين على الحط من قيمتهِ ومسخ معانيهِ ولعلمهم ان اكبر حجة تفلح في هذه البلاد هي التحكك في الدين قالوا ان مباحثهُ تناقض الدين والله اعلم بأوجه التناقض . والكتاب بريء منها . ولكن بما ان نواميس الطبيعة تقضي حتماً بضرورة ظهور الحقيقة ولو بعد حين فلا بد من يوم تفهم الناس فيهِ معنى الكتاب وتقدر قدر واضعيهِ وانهم بلا شك من نوابغ الدهر ورحم الله القائل

ما ضرَّ شمس الضحى في الأُفق ساطعة ان لا يرى ضوءها من ليس ذا بَصَرِ

كتابا تحرير المرأة والمرأة الجديدة

" لسعادة العالم القانوني قاسم بك امين "

ظلت الامم ازماناً تجهل تأثير المرأة في العمران . وان لها حقوقاً وشأناً فيهِ . لا نقل عن حقوق الرجل وشأنهِ ان لم تكن اكثر . ولكن ما لبث هذا الجهل ان زال او تقلص على الاقل في الامم المتمدنة بنسبة ارتقائها في سلم العلم الصحيح وادركت ان اساس العلم والتربية هو المدرسة المنزليَّة واساس هذه المدرسة هي المرأة وانهُ بقدر ارتقاء هذه ترتقي هذه المدارس وبقدر ارتقائها ترتقي افراد الامة ايضاً . ادركت هذه الشعوب بان المرأة خلقت مساوية للرجل في الحقوق واكثر منهُ رقة في العواطف وسرعة في الخواطر وشغفاً بالمحافظة على الآداب وان ما انزلها الى درجة الاستعباد خلافاً لما تأمر بهِ الاديان جميعها الاَّ تطرف الرجل وخروجهُ عن حد الاعتدال واستبدادهِ وان هذا الحط مضرٌّ فعلاً بجسم الهيئة الاجتماعيَّة ومفسد لقوامها وارتقائها اذ يترتب عليهِ ابعاد فئة كبرى من العمل المفيد بل ومن اكبر عمل يتوقف عليهِ التمدن الصحيح . فلما ادرك الرجال العارفون ذلك وثبت لهم ان سعادتهم لا تتم الاَّ برفع اجحافهم عن النساء واعطائهنَّ مركزهنَّ الطبيعي الذي اقرتهنَّ عليهِ الشرائع هان عليهم التجاوز شيئاً فشيئاً عن الاستبداد وساعدهم على ذلك ما شعروا بهِ من الارتقاء وتوفر اسباب الهناء والعمران . هذه حقائق راهنة يكفي معرفتها للاقتناع بصحتها وهذه شعوب اوربا كلها دلائل ساطعة عليها . ولكن لما قام حضرة العالم الباحث سعادة قاسم بك امين يحدث اهل بلادهِ بها قوبل بالسخط والازدراء ويا ليت هذا من فئة الاميين وسطحيي المعارف فقط الذين ألفوا استعباد المرأة واعتبارها احط منهم قدرًا واتخاذها متاعاً من امتعة البيت والدين يأبى ذلك

بل من الفئة الممتازة " فئة العلماء " والظاهرين بمظهر المرشدين والمعلمين وحاجوا المؤلف بالدين وجعلوهُ عكازهم الوحيد . نعم انهم أفلحوا — ولكنهُ فلاحٌ وقتيٌّ — في تنفير القلوب من هذه المبادىء السامية ومنعها من الوصول بالتربية الحقة الى سعادتها ولا بد يوماً ما من انتصار الحق وتغلبهِ لاشتغال القوم بالعرض دون الجوهر فانهم تمسكوا بمسألة الحجاب وتركوا التربية واكثروا من الصياح والجلبة بالقول والكلام وتركوا العمل والفعل . وما فعلوهُ انما هو عراقيل وقتيةٌ لا تستطيع مقاومة قوة الحقائق فلا بد لهذه من الفوز الاخير . ولا بد من عصر يعرف فيهِ قدر رجل الفضل ونابغة هذا الزمن الذي اخذ على نفسهِ المجاهرة بالحق والانتصار للمغبونين في بلاد لا تقابل فيها مثل هذه المجاهرة الأ بالنكران والازدراء

اما جعل القوم مسألة الحجاب دينيةً محضة .فيخالفهُ ان المسلمين فيها ليسوا سواءً في كل بلادهم وليس الحجاب شاملاً لجميعهم (١) وصاحبنا انما يريد تعديل هذا لدرجة توافق المصلحة ويسهل معها التربية والتعليم والقيام بشؤون الحياة التي يليق بالمرأة ان تكون فيها فما بالنا قد تركنا اللباب وهو السعي في التهذيب والاصلاح العائلي والتربية الحقة واشتغلنا بالقشر الذي هو الحجاب ووقفنا عندهُ مكابرة

(١) قال الاستاذ الشيخ علي يوسف في رسالتهِ من الاستانة العلية المؤرخة في ١٥ اغسطس سنة ١٩٠١ المندرجة في المؤيد الصادر في يوم الاربعاء ١٣ جماد اول سنة ١٣١٩ ٢٧ اغسطس سنة ١٩٠١

المرأة هنا ذات حجاب ولكن لا كحجاب المصرية فهو اقل منهُ بكثير في شكله واكبر منهُ وظيفة . فهو كلا حجاب في نموذجهِ . ولكنهُ امنع للناموس واصون للعرض . فلا يوجد هنا برقع ولا يشمق . ولكن خمار رقيق اسود . او ذي لون آخر يسمى " بجه " تسدلهُ الواحدة على وجهها في مضايق الطرق وترفعهُ اذا قلت المارة وخف الرحام " ورفعهُ اكثر من وضعهِ " وقد لا تخرج الواحدة منهنَّ الأ وفي يدها شمسية لاتقاء حر الشمس او رذاذ المطر . وهي تنفعها كثير في الاحتجاب ايضاً عن اشعة الابصار فلا تحتاج معها الى ذلك الخمار . اه

وعناداً وليت قومنا يعتنون بالتعليم والتربية مع وجود الحجاب بينهم ويظهروا لنا قوة عزيمتهم وشدة اهتمامهم ويحيون اسم الدين في منازلهم وفي قلوب ابنائهم وبناتهم حتَّى تكون لنا تربية حقة وتعليم صحيح . اما " تحرير المرأة " ومساواتها بالرجل في كل الشؤون فلا يشمل الاَّ في العلاقات الدنيويَّة السياسيَّة النظاميَّة وهذا ما يوافق عليهِ كل من بحث في المسألة باستقلال نظر

فان كان هذَا هو نصيب مثل هذه المؤلفات في هذه البلاد فلا عجب ان قلت فيها وضعف الاهتمام والاشتغال بها

السياسة

السياسة عند كل امة متمدنة علم كسائر العلوم الاجتماعيَّة . لهُ اصول وروابط يتقيد بها و يسير عليها . وما شذ عنها فهو خرق في السياسة لا يمكن التعويل عليه ولا تعليل النفس بهِ اذا مست الحاجة اليهِ . ولهُ مدارس خاصة بهِ واهمها الدهر والتاريخ ولا ينجح به الاَّ من كان منذ نعومة اظافره ميالاً اليهِ فيتعلمهُ في كل آونة وهو لا يعلم بهِ . لا . لأنهُ غير شاعر بهِ . بل لان ذلك اصبح عادة لديهِ اذا تركها رأى في ذاتهِ شيئاً غائباً عنهُ فيتطلبهُ حتى يجدهُ و يكمل بهِ ما نقص منهُ . ومن لفظة السياسة يفهم الغرض منها اي مسايرة الزمن واغتنام فرصهِ في معرفة المراتب الدينيَّة والاجتماعيَّة الفاضلة والمؤذية ووجه استيفاء كل واحد منها وعلة زوالهِ ووجه انتقالهِ . ولا يستغني عن السياسة احد من الناس ما دام الانسان مدنياً بالطبع ويجب عليهِ اختيار المدنيَّة الفاضلة مسكناً والهجرة عن المؤذية وان يعلم كيف ينفع اهل مدينتهِ وينتفع ولا يتم ذلك الاَّ بالسياسة

ونقصد الآن ما دمنا قد بينا ما تقدم الكلام على علم السياسة عندنا المنتشر في

القهاوي والمنتديات والحانات حيث يؤمها الجم الغفير منا سيما ساعة العصر ساعة انتشار الجرائد بيد باعتها من الاطفال البالغ عددهم في القاهرة وحدها زهاء المائة . والتي يتناولها منهم الغني والفقير ويقضون ساعات فراغهم في طرق مباحثات في سياسات الدول عند اطلاعهم على ما جاء بهِ روتر وما اخبر عنهُ هافاس

واغلب اولئك الذين يتناقشون في السياسة من جماعة مستخدمي الحكومة وشبان المدارس العالية المنتظر منهم لدى نيلهم شهادتهم المدرسيَّة ان يخدموا الوطن والوطنيةَ بالتفاتهم نحو الزراعة والتجارة ولكنهم يفضلون الالتحاق بالخدم الاميريَّة ولو اماتت احساساتهم وعلمتهم على الكسل وان كانوا في غنى عنها ايضاً . حتَّى انك لو سألتهم عن عملهم قالوا انا كنا تلامذة والآن نحن منتظرون اجابة زيد في الحقانيَّة وعمرو في المالية . هؤلاء لهم في ميدان السياسة قصب السبق في حين انهم في ميدان الكسب خاملون. وقد مضى عليهم سنون عديدة في تفضيل فرنسا على انكلترا وانكلترا على فرنسا حسب اهوائهم واهواء المدارس التي ربوا فيها واهواء الجرائد التي يقرأونها وكلهم متعشمون في خلاص الوطن لتوهمهم انهُ في تعاسة وشقاء مثلهم وعلى هذا يسعون على زعمهم في خلاصهِ من الاحتلال ولو كان فكرهم في اعتلال — اذ عندي انهُ لو طبع لهم كتاب تاريخ الجبرتي مرة ووزع عليهم مجاناً وقرأوهُ لفهموا النعمة الحاضرة ولأدركوا خطاءهم وحمدوا ربهم على ما هم فيهِ من النعم الجزيلة — اذا سألت احدهم من بدء الاحتلال إلى الآن بالاجمال ان شئت او بالتفصيل اذا احببت فهم لهُ حافظون واسأل من تشاء منهم عن ما يسمونهُ ديلونكل او هانوتو [1] ونمرة ٢

(١) ديلونكل كان عضواً في مجلس نواب جمهورية فرنسا في وزارة هانوتو سنة ١٨٩٥ للخارجية الفرنساوية . اتى مصر وساح في الوجه القبلي ووعد من رافقهُ من المصريين ووافقهُ على سياستهِ ان الانكليز سيرحلون عن مصر في اكتوبر سنة ١٨٩٥ وللآن لم يصدق وعدهُ لهم

وبمرة ٣ فهو يفسرهُ لك باحسن تعبير كأنهُ يراجعهُ كل يوم فلا يفوتهُ حرف منهُ ولا حركة . واسأل من تشاء منهم عن مجادلات المؤيد والمقطم من عهد نشأتهما يخبرك بها حرفيًا ان شئت او سطحيًا ان اردت وكلهم يقولون لك ان الجهاد في سبيل الاستقلال واجب فان حاججتهم بجهل الامة غنيها وفقيرها وبفقد التضامن الوطني الذي هو اكبر دعامة في الاستقلال الحق لتكون الامة حيّة متضامنة وقفوا عن الاجابة وتمسكوا باذيال الفرار واستعملوا المواربة . ولا فرق بين البعض والبعض الآخر في سعة الادراك في هذه السياسة الاَّ ان هذَا يحفظ وهذَا لا يحفظ ما حدث في عهد الاحتلال للآن من الحوادث العظيمة التي كان لها بعض التأثير . ولما كان اغلب المشتغلين في هذه الامور من المصريين جماعة الاسلام ووجدوا ان الحالة باقية على ما كانت عليهِ ولم ينفعهم الاستصراخ بغلادستون وغيرهِ من علماء السياسة في اوربا اوجدوا سياسة جديدة وهي سياسة الجامعة الاسلامية وسياسة الدين فلذا ترى كلاً منهم يقول ان ما يراهُ في نظرهِ اولى بالاتباع وكفى. وكل رأي يخالفهُ فهو ضلال وان كان حقًّا ويستنكف ان يجتمع بغيرهِ حتّى يقابل فكرتهُ بما عندهُ لعل احدهما يقنع الآخر ولذا تراهُ يخبط خبط عشواء يكتب بالدين والاسلام وهو ابعد الناس عنهما. ومن البديهي ان فاقد الشيء لا يعطيهِ . ولو شئنا تعداد الآراء التي كتبت في مثل هذه الخيالات في الجرائد لطال معنا القول. وحديث الجامعة والدين يلذ فيهِ البحث لمن لا يدرك حقيقة الجامعة ولا الدين مثلنا وهو كذلك ملذ للقارئ والكاتب لا لأنهُ شيء فكاهي مما تعودنا اللذة منهُ فقط - بل لأن القارئ يجد ما تودهُ نفسهُ وما تصبو اليهِ اميالهُ " ان الانسان خلق هلوعاً اذا مسهُ الشر جزوعاً واذا مسهُ الخير منوعاً "

فيطالع ما يكتب في هذا الموضوع بانشراح خاطر وسرور نفس وهكذا الكاتب

يرى امامهُ الموضوع كبيرًا متشعبًا فيجري فيهِ قلمهُ حتى لو شاء الكتابة فيهِ إلى ما شاء الله ما استعصى عليهِ القلم ولا خانتهُ القريحة . ولكن لا ندري ذلك وعاقبتهُ وهل تصح الاحلام . ام الحقيقة هي انهُ من بعد موت الرسول "صلى الله عليهِ وسلم" والخلفاء الراشدين لم يقم للاسلام جامعة قط . ولدينا سير الاسلام واقوال موءرخي الاسلام انفسهم في ذلك فان بعد موتهِ "صلى الله عليهِ وسلم" والخلفاء الاربعة لم يقم للاسلام جامعة واللبيب يعلم هياج المسلمين وقيامهم في زمن الصديق "رضي الله عنهُ" . وانهُ قام في بدء خلافتهِ من قام لولا تهدئة الخواطر بهمتهِ (١) وبعد موتهِ لولا اشتغال امير الموءمنين عمر بن الخطاب "رضي الله عنهُ" في الغزو والفتوح لحصل ما حصل في خلافة خلفيهِ الامامين عثمان وعلي "رضي الله عنهما" ودولة بني أُمية فيها من التفريق بين ممالك الاسلام ما نعلمهُ وتاريخ الدول الاسلاميَّة التي خلفتها حاوٍ من الفشل وتفريق الكلمة بين الاسلام واهلهِ ما فيهِ

ومنذ تبوأَت دولة آل عثمان عرش الخلافة للآن ما سمعنا باهداء سلام من ملك مسلم عربي لملك مسلم تركي حتى صدق قول القائل

الضب والنون قد يرجى اجتماعهما وليس يرجى وداد الترك للعربِ

بل كلهم يستنكفون تبادل السفراء في عواصمهم مع انهم يقبلون على الرحب والسعة سفراء الممالك الاوربية فوا اسفا

ما ذا التقاطع في الاسلام بينكم وانتم يا عباد الله اخوانُ

(١) لما توفي "النبي صلى الله عليهِ وسلم" ارتدت قبائل عمان والبحرين ومهرة وحضرموت وظهر مدعو النبوة طليحة في نجد ومسيلمة في اليمامة وقيس قاتل الاسود في اليمن وهمَّ بالعصيان اهل مكة والطائف وسائر اقليم الحجاز فوجه ابو بكر "رضي الله عنهُ" همتهُ لقمع هذه الفتنة وبعث اسامة بن زيد الى البلاد الشامية بجيش هائل اوقع الرعب في قلوب العرب اجمع وهو اجل عمل قام بهِ هذا الخليفة الاول ومن جاء بعدهُ فهو عيال عليهِ

وها هو حاضر الاسلام في الاستانة منقسم على نفسهِ وكلهم احزاب وشيع وكذلك الحال في مصر كثيرًا ما تكدر الصفا بين سمو مولانا الخديوي المُعظم وجلالة مولانا امير المؤمنين . والفضل في ذلك لجماعة الاتراك الذين اموا مصر اخيرًا فان منهم جماعة ضد جماعة كلهم هاجون بعضهم بعضاً باقبح الالفاظ وارذل النعوت

وكل فريق يؤلف ضد الآخر الكتب والرسائل ومن هذه الكتب ظهر عدد كبير كما قدمنا وكان ذلك سبباً في تعكير العلاقات بين مصر والاستانة . حتى اصبح البلغاري لائقاً للالتفات السلطاني اكثر من المصري واصبح ابن الاستانة ينظر الى ابن مصر باحتقار وازدراء بعيشك قل لي هل من الجامعة ان يشتغل السلطان بالهدايا تتبع الهدايا الى ملوك اوربا وذوي الامارات الصغيرة ويدع مثل سلطان مراكش وامير الافغان لانسمع شيئًا عن مهاداتهِ لهما ولو بالسلام فضلاً عن الاتحاد يدًا واحدة والاجتماع على كلمة واحدة مع انهُ لا يتصور ان يبغى بعضهم على بعض او يطمع في زوال ملكهِ

افهل هذه هي حقيقة السياسة التي اضعنا فيها الوقت الماضي كلهُ . ام من الحقيقة وحسن السياسة القول ان جميع ممالك الاسلام تحتاج لفتح جديد ويد الله للتأييد .

ولا يتم ذلك ولا يتحقق شيءٌ مما يقولون الاَّ بالعلم وبث المعارف حتى يبعد ذلك التغرير المشاهد بين المسلم واخيهِ وحتى لا ينتظر كل منا وعد ساسة اوربا الاستقلال وكل منا متعلق بدولة ولو كان هذا التعلق اشبه بالمتعلق باذيال الهواء او المستجير من الرمضاء بالنار

الجرائد السياسية المصرية

اول الجرائد السياسيّة المصريّة التي أُنشئت في مصر جريدة " وادي النيل " التي كانت تصدر مرتين في الاسبوع على شكل كراس [1] وكان يحررها ابو السعود افندي أُنشئت بمصر ١٢٨٣ — ١٨٦٧ ثم عكف من بعدها جماعة السوريين لانشاء الجرائد السياسيّة ومنهم تنبه المصريون على انشاء الجرائد بكثرة تلك حقيقة نذكرها ولا نبخس الناس اشياءهم . والجرائد يقال عنها انها مقياس كل أُمة في ارتقائها ونموها . فكما تكون الامة تكون جرائدها ومن رام ان يعرف جرائد امة فليذكرها ليتضح لهُ حالة تلك الامة وتقدمها او تأَخرها باجلى بيان . والغرض من الجرائد السياسية العلم بحقائق الامور الجارية . والوقوف على الاخبار بين البلاد وبعضها فاذا عرفنا ما ذكر نقول عن جرائدنا السياسية المصريّة والأَسف ملءُ الفؤَاد انها دون سائر الجرائد التي تنشئها الطوائف الاخرى المعاصرة لنا في معرفة الاخبار وذكر الحقائق . والسبب في ذلك انهُ يحرر فيها كل كاتب وجد في نفسهِ مقدرة على حمل الاقلام وتجشم الآلام. واحتمال اللأْواء ورزق قلباً ميتاً وكان ذا استعداد ليعيث في ارض الكتابة إفساداً . واحتقب من الاوزار وهب من سنة الضياع فلهذا تنشأُ الجرائد السياسيّة المصريّة واصحابها غير كفوءٍ لما انتدبوا اليهِ . وزد على ذلك انهم يتكلون على مساعدة الغير مساعدات ماديّة وادبية

ويزداد عددها وعدد النسخ التي تطبع منها ايام اشتداد الازمة ووقوع الحوادث العظيمة مثل ايام الحروب والمشاكل الداخلية حيث يكون مجال القول لها فسيحاً

(١) اما الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) فقبل ذلك بكثير اذ اول صدورها كان في سنة ١٢٤٥ هجرية

فتهرف بما لا تعرف سواء كان بالكذب او الصدق. والكذب عندها اولى وهو غنيمة باردة . فان نشر الاراجيف المهيجة للخواطر. ونشر الاباطيل المثيرة للاذهان تروج بضاعتها لما في طبع الناس من الاقبال على قراءة ما يقرع اذهانهم ويهيج خواطرهم صحيحاً كان او باطلاً ويفضلونهُ على قراءة الاخبار الصادقة المعتدلة الرواية المجردة عن التزويق والتنميق . وهذا شأن اغلب الجرائد السياسيّة المصريّة وشأن اصحابها

فان منهم كل خليّ من مبدإٍ قويم كلّ محب للاباطيل والاراجيف والاضاليل بدلاً من الحقائق . ولذلك فلا ثبات لها في الاعتدال . وفي انصاف القراء بتقرير الحقائق . وانما ثباتها في عرض البضاعة الرائجة من معارضة الحكومة والحقيقة. مثال ذلك ما نشرهُ بعضها في المدة الماضية ايام حرب السودان . قال ان الجيش أُبيد وان التعايشي قطع الطريق عليهِ واثخن في العساكر الجروح . ولما تم الفتح ووصلت بشائر النصر اختفت تلك الاباطيل فمحى الاثر ولم تبق العين . ومن كتابة تلك الجرائد يظهر انحطاطها في الفكر وسقم الفهم . فان المواضيع التي تكتب فيها تغرير في تغرير حتى انهُ ليسهى على كاتب الجريدة منهم حالة افكارهِ السياسيّة فيشحنها باقوال الشتم والسب في الدول "كانكلترا" مثلاً او "فرنسا" حسب اهوائهِ واميالهِ وكلٌّ يغنيّ على ليلاهُ

على ان القارئ تتبين لهُ حقيقة من ذلك وهي ان المقصود تسلية الخاطر وقتل الوقت وقت الفراغ عصرًا هذا وناهيك عمّا يدرج فيها يومياً من السباب والشتائم وقذف اعراض البعض من الوجهاء عدا عن ذم سياسة الحكومة وتقبيح كل افعالها حسنة كانت اوغير حسنة على حد سوى مثال ذلك. نعت الوزراء بالاستسلام وبانهم لا يهمهم ان عاشت الامة او ماتت لترقية المصالح الانكليزيّة الى غير ذلك من القول التافه العقيم

وصاحب الجريدة منهم متسرع بحرفتهِ في اظهار فكرهِ في اي موضوع كان مسترسل في الكتابة بلا تروٍّ مدعٍ بانهُ العالم في كل فن ومطلب سواء كان نصحاً سياسياً او صحياً . ولو كان ممن صدقت فيهم الآية " أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم "

اما النصح السياسي فهو على ما يذكر القارىء التشيع لاحدى الدول ضد الاخرى ولا يسهى عن القارىء عكف الجرائد مدة العشر السنوات الماضية على البحث في جعل نفوذ " فرنسا " اعظم من نفوذ " انكلترا " على ان ذلك لم يجدها نفعاً سوى جعل الامة فريقين فريقاً متشيعاً مبدؤهُ انكليزي يهوى مسالمة المحتلين بقدر ما يمكن وفريقاً متشيعاً على فساد يعكف على المناداة بالانجلاء والتعلق باهداب الساسة في اوربا . ولكن ذلك لم ينتج ثمرة سوى ضياع الوقت وايغار الصدور عدا عن ظهور بهتان تلك الجرائد ليصدق فيها قول " عمر " من تخلق للناس بغير ما فيهِ فضحهُ الله . واي فضيحة للجرائد المتشيعة لفرنسا ضد انكلترا من كذب ديلونكل وبهتان هانوتو ونفاقهِ فقد تمنطقت بهما وبغيرهما تلك الجرائد لظنها فيهم ان البلاد تستقل بجعجعتهم فكانوا حيات للدين واليقين . وللجرائد نصح آخر سياسي دليلهُ ايام حرب الانكليز والترنسفال . فقد كانت تحرض الجيش المصري في السودان على شق عصا الطاعة في معرض الحث على النخوة والمروءة وتعير الجنود المصرية على حسن طاعتها وحسن ولائها في معرض التباهي بصفاء نيتها وسلامة طويتها وترجف بان زمن التمرد على قوادها قد تهيأ . ولكن ذلك كان منها على سبيل الانكار اوعلى سبيل الاستفهام ولاسيما عند الاطناب في شجاعة البوير واشاعة الاشاعات الكاذبة عن الانكليز والاعجاب بما تفعلهُ امة صغيرة مثلهم والتحسر على امة كبيرة مثل المصريين وزد على هذا تعييرها الامة وجيشها انها تهاب اللقاء جبناً وتخلد الى السكون ضعفاً

وتوانياً . كل ذلك لكي يعود عليها بالمغنم والربح ولو كان فيهِ ابعاد المودة من قلوب المحتلين للمصريين وبالاخص المسلمين ولتوقع النفور بينهم والجفاء . ونحن امة ساد الجهل فيها وقصرت افكارها عن فهم الحقائق وادراك ما ينفع وما يضر. وليس الحال مقتصرًا على النصح في السياسة فقط بل لهذه الجرائد نصح آخر في المتجر ضرره اشد وقعاً مما تقدم فانها بمقدار قليل من المال تأخذهُ من احدى الشركات او "البورص" تعلن طرق الخداع والنصب وتحض الامة الى الولوج في ابواب الشركات المجهولة لديهم . ثم بعد حين تأخذ باللائمة عليهم لداعي ما خسروهُ واضاعوهُ في شراء الاسهم والسندات حتى وقع الناس من فضل هذه الجرائد في شرك الخراب وافتقر كثيرون منهم وساءت امورهم . وللجرائد نصح آخر صحي تدعيهِ وهو الكتابة زمن تفشي الامراض التي تنتشر بالعدوى ولم يدرك سيرها للآن احد حتى ولا نطس الاطباء . فانها كثيراً ما تكتب كتابة يصدقها جماعة العامة ويساعدها في الكتابة بعض الاطباء الذين لم يدرسوا علم "البكتريولوجيا" فينشأ عن ذلك خطر عظيم تبيت بهِ البلاد عرضة للوباء . ونذكر القارئ من نتائج ما كتبتهُ الجرائد حادثة مصر القديمة التي هجم الرعاع فيها على عمال التطهير من رجال الصحة وحادثة الازهر التي اضطرت البوليس الى استعمال القوة في ايام الهواء الاصفر . وحوادث الوطنيين في بورسعيد . وحوادث هجوم الرعاع في الاسكندرية في عام ١٨٩٨ وهنا مجال لتفكرة القارئ في ضرر الجرائد بالنصح الصحي الذي تدعيه وهي لا تعلمهُ

ولقد سببت الجرائد التي لا تنفع المجادلات والمشاحنات حتى وقعت الامة في انقسامات شتى فنحن الكل مصريين ولكن في الدين مختلفين . فاذا سنت الحكومة قانوناً " وهي الآن حكومة دستورية تعد من اول طبقة بين حكومات الشرق " فانا جميعاً نقوم قومة واحدة لنرى هل هو مطابق للدين . فان وجدناها

وافقت الشرع الاسلامي قبلنا القانون نحن ولو كان مخالفاً لسوانا من الآخرين المسيحيين الذين تهضم حقوقهم لما لنا من الاغلبيةً بالنسبة الى عدد كل فريق . فيسود الشقاق اثر ذلك ونحن احوج الى الالفة ولهذا تجد الاحزاب في مصر حزب للمسلمين وآخر للمسحيين

تسمي الحكومة المسائل التي تختلف فيها مسائل اداريةً كما تسمى في جميع بلدان العالم . اما الجرائد فتسميها مسائل دينيةً طائفيةً يخشى منها على الدين تبتدئ صغيرة لا تكاد تذكر فتوسعها الجرائد حتى تتسع وتوشك ان تكون فتنةً داخليةً . ولا الجرائد تفهم الحقيقة ولا الاهالي يفهمون . ولدينا شاهد وهو منع الحج لوجود الطاعون في مكة المكرمة منذ سنتين . والقارئ لو استقرأ هذه المسألة التي شغلت الرأي العام الاسلامي في مصر اربعة اشهر وهاجت لها العواصم والقرى . لوجدها مسائل عموميةً يهم الامة التسليم بها لأن الدين لا ينافي ذلك في مثل هذه الاوقات . الاَّ ان الاحقاد الجرائديةَّ والاحزاب المتأخرة عدوة للوزارة الفهميةً مهما عملت من الاعمال النافعة . والامة لجهلها حقيقة دينها تحذو حذو نفر قليل من اصحاب الجرائد وتطلب طلباتها سواء كان اصحابها مخطئين ام لا . وهذا سر ودليل آخر على تأخرنا . والاَّ فلو كان فينا عدد عظيم ممن تعلم لكان الحال ارقى مما نحن عليهِ الآن

خذ لهذا مثلاً آخر مسألة اصلاح المحاكم الشرعيةً التي شغلت الاذهان زمناً طويلاً وهاجت لها افكار العامة تجدها حقيقة تدل دلالة صريحة على انحطاطنا . والاَّ فلو كان فيها ضياعٌ لسياج الدين ضياع للشرع ما قبل الاصلاح المتفقهين في الدين ووضعوا لهُ التقارير وطلبوهُ . ولكن الجرائد قامت صائحة حاثة الامة على الاحتجاج على عدم مس المحاكم الشرعيةً . وكان كل فقيه وعريف في القرى يتنقل من مكان الى

مكان يحرض الاهالي المسلمين على الاحتجاج وتقديم العرايض والتلغرافات للمعيَّة السنيَّة بمصر كأَن اصلاح المحاكم الشرعيَّة جرم كبير وارتكاب محرم . وكان نتيجة ذلك كف يد الحكومة ورجالها حتى أُلفت لجنة لمشاهدة المحاكم ووضع تقارير عن الحالة . والله يعلم كم ناب الاهالي من تعطيل المحاكم وكم ناب الامة من العار لدى الامم الاخرى . ولا يزال قصار العقول سفهاء الافكار واجدين على الوزارة حاقدين عليها . والسبب انما تأْتى من الجرائد التي يقرأُ فيها العداء والبغضاء ولا يخفى ما للجرائد من التأْثير — اذ الجرائد الدوريَّة اسرع انتشارًا واقرب الى تناول الناس من الكتب ولها مشتركون مخصوصون ومواعيد ظهور تنتظر فيها بكل تشوق ولها باعة يعرفون مسارب طلابها ومنتديات عموميَّة تعرض فيها بخلاف الكتب فانها خالية من كل هذه المزايا في النشر[1] — هذا وللجرائد الاسلاميَّة عادة غير مستحسنة وهي انهُ عند وفاة مسيحي لا تترحم عليهِ فتتوهم الطوائف الاخرى في المسلمين التعصب خصوصاً لتكرار وقوعهِ فضلاً عن تكرار اثارة الاحقاد والعداوة وتوسيع الخرق بين المسلمين والمسيحيين وعلى ذلك يبقي العداء منصوبًا بيننا و بين اخواننا المسيحيين الوطنيين من جهة و بين الانكليز من جهة أُخرى . وكل هذه الاسباب لها تأْثير على العامة و بعض الخاصة ولكن عقلائنا ولله الحمد قد ادركوا ذلك وعلموا هذا الشقاق فصاروا لا يثقون بقول امثال هذه الجرائد التي تتعمد التفريق بين مجموع الامة على حد قولهم " فرق تسد " غير ان هذه الجرائد التي تظهر بهذا المظهر حياتها قليلة وقل ان يمر عليها الحول

والسبب إما لأَن البلاد والامة عرفت عدم حاجتها اليها . او لأَن اصحابها انقطعت عنهم الامدادات الخارجيَّة وحينئذٍ لا تلبث الأَعشيَّة او ضحاها او لسوق

(١) قول احمد بك الحسيني في احدى مرافعاتهِ امام محكمة عابدين في يونيه سنة ١٩٠٠

اصحابها للمحاكمة لجريهم في كتابتهم على طرق مستهجنة. مثل التعرض للشخصيات فحوكمت وحكم على اصحابها

وعدد الجرائد السياسيَّة المصريَّة التي ماتت في الخمس سنين الماضية ٩٧ جريدة سياسيَّة كنا نحب درج اسمائها لولا خوف الاطالة غير اننا نقول ان الذين حوكموا من اصحاب هذه الجرائد لاسباب الهجو والسب والشتم والتزوير تسعة. منهم اثنان لطعنهم على المرحومة جلالة ملكة الانكليز وآخر ساقط الآداب لهجوهِ سمو مولانا الخديوي الاكرم[1] والباقون لشتمهم الامراء والعظماء ولتزوير الاوراق ولم يقتصر الحال على اصحاب هذه الجرائد بل ان بعض وكلاء هذه الجرائد حوكموا ايضاً لاختلاسهم اموال الاشتراكات فيها وعددهم كذلك لا يقل عن ستة

هذا هو حاضر جرائدنا المصريَّة السياسيَّة نذكرهُ بلا التفات الى التحيز لفريق دون آخر لما في الحق من اللذة ولما في الصدق من عدم التمييز والله عليم بذات الصدور

المجلات العلمية

الغرض من المجلات العلميَّة تمحيص الحقائق التاريخيَّة وتخليص العلم من كل شائبة. مع ذكر ما اهتدى اليهِ العلماءُ في بحثهم. والحض على بث التعليم والاستفادة بالطرق النافعة. ودليل كثرة المجلات العلميَّة التي من هذا القبيل بين كل طائفة مبشر بتقدم العلم ونمو درجتهِ بين افرادها. ذلك لما تبرزهُ المناظرات فيها من الحقائق الراهنة التي ترسخ في اذهان قرائها ولقد ادرك الاسلام ذلك في

(١) بقصيدة صدرت يوم تشريف سموهِ من الاسكندرية الى مصر في ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٧

زمن بهجتهِ وعزهِ ولو لم تكن المجلات معروفة في ذاك الحين معرفتها في وقتنا الحاضر. ولنا في جمع المأمون للعلماء ومناظرتهِ اياهم المرة بعد المرة في مواضيع شتى من العلوم العالية ما يكفي للاستدلال بان العلم كان اذ ذاك تحت حماية الخلفاء وكانوا يرعونهُ حق رعايتهِ. اذ كانوا يستجلبون رجالهُ الى نواديهم بما يبذلونهُ لهم من واسع النفقات وما يعينون من الجوائز(١) حتى تكاثرت وفود العلماء على ساحاتهم وازدحمت الادباء افواجاً على ابوابهم. وهذا مما كان باعثاً لهم الطالبين على النشاط. فعمت الفائدة وانتشرت المنفعة. وهذا المفضل الضبي والاصمعي وابو عبيدة واحزابهم ممن تقدمهم او تأخر عنهم ولولا تلك الجوائز الطائلة التي حصلوا عليها من المهدي والرشيد وغيرهما لما وصلت العلوم المأثورة عنهم الى ما نراهُ في سير السلف. من انتشارها بين ظهرانيهم ولكن زمن هؤلاء الخلفاء انقضى واصبحنا على ما تعلم وشملنا السبات العميق المنتظر لتقلب احوالنا وتغيير ملوكنا وامرائنا فتقلص ظل المعارف من بيننا. الاَّ انهُ لم نعدم رجالاً ربوا في مهد العلم والفائدة فقام منهم افاضل كثيرون خدموا العلم بعلمهم وعملهم ومن هؤلاء فاضلان "مسيحيان" عرفا الحقيقة باختبار الزمن فانشأ مجلة "المقتطف" منذ خمس وعشرين سنة تملي على نبهاء الامم الشرقيّة باسرها اسلاميَّة او مسيحية ما يجد من المباحث الفلسفيّة العلميّة المفيدة. فترى تارة في احد اعدادها مباحثات فلاسفة العصر في اوربا مترجمة عن اللغات الافرنكيّة للغة العربيّة الشريفة. وتارة يقابل صاحباها ما ذكرهُ العرب قديماً مع ما حققهُ علماء الافرنج حديثاً فيتسنى لهما على هذا الاسلوب تمحيص الحقائق من القولين. او ترجيح احدهما على الآخر ثم يهديانها للقراء. وفي عمل هذين الفاضلين خدمة جليلة لأهل اللسان

(١) لما ولي المأمون الخلافة استدعى من القسطنطينية عالماً يسمى « ليون » فابى توفيل ملك القسطنطينية ان يرسلهُ فكان بينهما سنة ٨٢٥ ميلادية حرب

العربي الجميل مما لو كانا معاصرين لتمدن الاسلام ونموهِ الاول السابق ذكرهُ لانهالت عليهما النعم والاكرامات كما انهالت على من سبقهما من العلماء المسيحيين في زمن المأمون وبعدهِ

وقد كانا والحق اولى ان يقال بعملهما هذا قدوة لنا معشر المسلمين في انشاء المجلات العلميَّة الاسلاميَّة الاَّ ان مجلاتنا الاسلاميَّة المحكي عنها ظهر كثير منها ثم اختفى. حتى انهُ من مدة ست سنين الى الآن ظهر ١٠٤ مجلات ثم ماتت وكأن لم يكن لها من اثر

والسبب قلة الاستعداد لمثل هذا الامر من الذين يقدمون عليهِ منا

وما يكتبهُ اصحابها فيها دليل عدم الاستعداد . فمن كتابة تكررت بعبارة سقيمة فيها موات اللغة . ومن طرق للمباحثات التي لا تجدي نفعاً . ومن اشعار ادرجت في العشق ومن وصف للخمر او للعمامة او لصبي او صبيَّة او لدابة او قطع من الحكايات التي لا تغني فتيلاً نشرت وتكررت وكل ذلك بسجع الالفاظ والاتيان على خيالات تروق لمن هو مثلنا في التأخر علماً وعملاً وكفى شاهدًا انهُ لا يوجد لنا معشر المسلمين مجلة مثل مجلة الضياء تعتني بخدمة اللغة اليوم حتى تعيدها لما كانت عليهِ قبلاً مع ان منا رجال اللغة من الازهريين [1] السابقين وغيرهم

وناهيك بالمناظرة التي يحمى وطيسها بين المناظرين في جرائدنا العلميَّة والتي كثيرًا ما تؤدي بهم للمهاترة والمشاتمة وفي الختام تنجلي كما يتجلى النهار على الاحلام . فتنقشع غيوم تلك السفسطات والاوهام. ولعل ذلك سبب ايابهم خاسرين مرذولين

(١) ومن العجيب ان علم اللغة لا يدرس في الازهر كبقية العلوم التي تقرأ فيهِ مع ان علم اللغة هو العمدة في العلوم والاساس التي تبنى عليهِ ومن الاسف ان هذا العلم ليس هو وحدهُ الذي فقد من الازهر بل لهُ نظائر عديدة ايضاً وفق الله العاملين على الاصلاح الى اعادتها اليهِ آمين

من ميدان المجلات العلمية دون باقي الطوائف ولو كان عددها في الوقت الحاضر تسعاً وكلها تظهر بمظهر المجلات التي تنسب الى العلم وليس فيها منهُ غير شوائب كدر الاختلاق عنهُ والتمويه والموار بة فيهِ ما عدا واحدة او اثنتين . ولعل لهم عذراً يقبل ما داموا هم ومجلاتهم سبباً اخر يغمسنا في سبات الانحطاط والتأخر . في وقت نحن احوج فيهِ الى الاصلاح بذكر حقيقة الواقع

غير انا لا نبخس في الختام هذه الجرائد حقها ما دام يمكنا القول عن فائدتها انها اتت بثمرة ترغيب الامة في المطالعة وايجاد الميل الى الوقوف على ما يكتب وان كان بحثاً في خلط الحق بالباطل وتمويهِ القول الصحيح بالقول المراء فسبحان من جعل الداء انجع علاج للادواء . وهو رب العرش العظيم

الجرائد الدينية الاسلامية

الغرض من الجرائد الدينية . ترويض النفوس بالتأمل في الدين . واسرار احكامهِ السامية . والحض على احياء اوامرهِ الصحيحة التي دفنها تقلب الزمن وتغير افكار الرجال بالاختلاط المشين . وعلى اماتة باطل ظهر في الدين من عمل ارباب البدع الذين لاخلاق ولا دين لهم واسداء النصيحة بالاحتراس من الوقوع في سيئات نهى الدين عنها ولو كانت صغيرة في شأنها . والامر بالتفكر في الآخرة وما يلزم لها من صالح الاعمال والارشاد للسلوك في طرق مأمور بها من الله جل وعلا . توصل الانسان للصواب المبعد عن المؤاخذة لديهِ وتقرب الانسان بالثواب اليهِ . وحبذا هذا لعمري من غرض سامٍ ومقصد حميد . خصوصاً في وقت أُلبست فيهِ مبادئ ديننا غير لبوسها بواسطة اهل الفساد والجهل الذين لا يخلو منهم زمن . حتى اصبح يلتبس على الفهيم المدقق فهم حقائقها التي كان لا يرتاب فيها البدوي الساذج

فما دام الامر على ما ذكر فليعمل بأمر الله من اوتي العلم قياماً بالامر وغيرة على الدين فقد قال عزّ من قائل — فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون — وقال تعالى ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون . لانهُ اذا دام الحال على ما نرى فالعاقبة انحطاط في الحياة الدنيا وهلاك في الآخرة . وقد آن لنا ان نبحث عن الجرائد الموجودة لهذا القصد وننظر اليها نظرة ناقد لنتدبر أعندنا منها الكفاية ؟ ؟ وهل احاط الموجود منها بالاغراض المذكورة

الجرائد الدينيّة الاسلاميّة احدث عهداً من سواها من الجرائد السياسية والمجلات العلميّة وعددها في الوقت الحاضر لا يتجاوز الاثنتين او التلاث يحررها بعضهم من متخرجي المدارس وبعضهم من متخرجي الحرف والصنائع المجتهدين في تحصيل المعارف . ينشرون فيها بقدر الامكان ما يمكنهم معرفتهُ من امور الدين ووصاياهُ . واكثر ما فيها ما ينقلهُ اصحابها من الكتب المؤلفة ليبينوا الاوامر والنواهي بقدر ما تستطيعهُ مداركهم وهذا عدا عن كونهِ غير ممكن اعتقاد الصحة فيهِ بالنسبة لقدر الناقلين فهو قليل بالنسبة لما يلزم وغير كافٍ للتأثير على الاخلاق والعقول الى غير ذلك مما هو جوهري في انشاء مثل هذه المجلات [1] . ثم هم فوق ذلك يخلطون في المواضيع بين ديني وسياسي واخباري الخ . حتى لا نعود نعرف انها مجلة دينيّة الّا من اسمها . وحتى ينقلب الخير المقصود شرًّا بواسطة هذا الخلط

(١) لا ننكر ان مجلة المنار الاسلامية لها اليد الطولى الآن بالتنديد على اهمال العلماء لواجبهم والتنفير عن البدع والخرافات التي لصقت بالدين كما انها تتابع المقالات المفيدة في الاصلاح الديني وانا نرجو لها نجاحاً دائماً ونأمل من محررها ان لا يجعل للتخصيات عليهِ سبيلاً وان يوالي النصح والارشاد بالتي هي احسن والله لا يضيع اجر من احسن عملاً

الذي لا يراعون الذوق في التأليف بين مواضيعهِ وذلك من عدم تمكنهم فيها وضعف كفاءتهم لها . والادهى انها تظهر حيناً وتختفي احياناً. وفي كل ذلك من دواعي الاسف وبواعث القنوط لكل ذي شعور بحاجات امتهِ ما لا يقدر

والخلاصة ان جرائدنا الدينيَّة الحاليَّة ليست مما ينتفع بهِ كل الانتفاع . والاهتمام بأمرها من اهم الواجبات ليس فقط لأنها عديمة النفع . بل لأن هناك امراً يجعل الضرر مزدوجاً . وهو انتشار مجلات المذاهب الاخرى الدينيةْ بيننا انتشاراً "يكفل لهُ الزمن واهمالنا اذا دام "عدول الامة بأخلاقها ومشاربها عن شرع الاسلام وذوق آدابهِ وطرق سلوكهِ"(١) واظن ان هذا الحال وحدهُ كافٍ لانهاض هممنا واشعال غيرتنا

وتوجيه افكارنا لصد هذا التيار الجارف والعمل العدائي الذي يعملونهُ في جرائدهم بانتظام ويظهرون فيهِ بمظهر الناصح المحق والمرشد الامين ومن اين لنا هادٍ نستدل بتعاليمهِ في دياجي هذا التضليل وقويٌّ كريم نعتز بحولهِ على مصائب هذا الزمن غير علمائنا الكرام وعظماء امتنا الفخام وقد سبق لنا الكلام عنهم واحوالهم لا ترضي الرجل الشهم الغيور

فاللهمَّ يا منير بصائر العلماء بالحكمة آنس عواطفهم بنار مباركة من عندك ويا رافع شأن الاعاظم بالغنى والجاه علمهم ان يعرفوا فضلك في انفسهم لكي يتآزر الفريقان ويتحدا محافظة على شريعتك الغراء الضامنة لهم سعادة الحياتين الباقية والفانية انك انت السميع المجيب

---

(١) خصوصاً اذا عرف القارئُ ان كثيرين من المسلمين مشتركين فيها

خلاصة القول عن الجرائد

واجمال القول في الجرائد اننا معاشر المصريين وبالاخص المسلمين ليس لنا مجلات علميَّة بقدر ما للطوائف الاخرى ولا ما يقاربها وبالاخص السوريين . اذ لا توجد بيننا مجلات قضائيَّة ولا زراعيَّة ولا طبيَّة ولا تجاريَّة ولا مدرسيَّة . وان وجد شيءٌ منها بلغتنا العربيَّة فانما هو بأيدي اخواننا السوريين الافاضل فلهم في ذلك فضل الاسبقيَّة فان لهم اربعة مجلات قضائيَّة وليس لنا واحدة منها . وثلاث مجلات زراعيَّة وليس لنا منها الَّا واحدة . واربعة طبيَّة ولا شيءَ لنا منها . وواحدة تجاريَّة ليس لنا منها ايضاً . ومجلتين نسائيتين وليس لنا منها الَّا واحدة فقط ولطائفة الاقباط مجلة مدرسيَّة وكان لنا واحدة مثلها فماتت

ذكرنا ذلك بياناً للفرق وما نحن عليهِ من الخمول ولم يكن هذا الاحصاء منا رجماً بالغيب بل هو اعتماداً على تقرير مصلحة البوستة وحسبك بهِ تصديقاً

الوطن والوطنية

الوطن تعريفاً هو الجهة التي ينتسب الانسان اليها بصفتهِ فرداً من افرادها خاضعاً لاحكامها ونظاماتها سواءٌ كان ذلك بحق الولادة او الاقامة او الانتساب اللازمة . اما الوطنيَّة فهي الشعور الذاتي برابطة الانتساب التي تجمع بين الانسان ووطنهِ ومن يشترك معهُ في هذه النسبة اي بوحدة مصلحة الطرفين ولضرورة السعي في رفعتهِ وتقويتهِ والذود عنهُ رفعة وتقوية وذوداً عن المصلحة الفرديَّة وقد يشعر الانسان بارتياح وحنين الى الوطن خصوصاً عند الابتعاد عنهُ ولكن هذا

تأثير طبيعي عام يجعل النفس تألف الاشياء والمناظر والحوادث التي تعودتها او نشأت فيها وتشعر بالوحشة عند الابتعاد عنها. فهو اذًا ليس قاصرًا على الوطن بل قد ينشأ ايضاً نحو بلاد اجنبيةٍ عنهُ يكون قد عاش الانسان فيها زمناً وآلف معاهدها. هذا هو الوطن وهذه هي الوطنيَّة بحسب التعريف الاصح. وان كان لا يحتمل ان يختلف في ذلك دقيقو البحث في المسائل الاجتماعيَّة والسياسيَّة الَّا انهُ لم يكن المتفق عليهِ شكلاً في جميع الازمنة واقول شكلاً لان الجوهر في الوطنيةوهو وحدة المصلحة امر اتفقت عليهِ الشعوب والجماعات عفوًا من حين ما نشأ الاجتماع على وجه البسيطة بحكم الضرورة الطبيعية فقبل ان يتنبه خاطر اول جماعة من الجنس البشري الى معنى الاجتماع اتحدوا بدون بحث وما كان الحامل على ذلك غير الاضطرار والحاجة المصلحية. ومثل هذا الاتحاد الطبيعي ظاهر في جميع مظاهر الطبيعة. فخليات العضو الواحد من الجسم متحدة لوحدة مصلحتها وحاجاتها الى تنازع البقاء في وسط الجسم كلهِ وهكذا عموم الاعضاء اي الانسان في حالة الانفراد بالنسبة للوسط الذي هو قائم فيهِ سواء كان عائليًا او اجتماعيًّا او سياسيًا وهكذا العائلة بالنسبة للوسط القائمة فيهِ والامة والبلاد التي تنتسب اليها. وهكذا قل عن الناحية بالنسبة للمركز والمركز بالنسبة للمديريَّة والمديريَّة بالنسبة للحكومة والحكومة بالنسبة للحكومات وهلم جرًّا. وما يقال عن النظامات الاجتماعية يقال عن النظامات الصناعية او التجاريَّة او الفنية وغير ذلك فالتجار صنف معلوم في ناحية واحدة مصلحة ووحدة خصوصية يشعرون بها ويهتمون لشأنها اهتمامًا خاصًّا ولجميع تجار الناحية اجمالاً مصلحة ووحدة اخرى قائمة بنفسها ولجميع تجار المديريَّة او البلاد او العالم قاطبةً وتكون هذه الوحدة وهذا الاتحاد تابعًا للمصلحة الحقيقية المسببة لها فتقوى طبعاً عند ما تكون خالية من تأثير

المصلحة الافرادية وعندما يكون هذا التأثير غير محسوس وتضعف بضد ما ذكرنا. فالوطنية اذاً قائمة في الحقيقة في وحدة المصلحة ليس الاَّ. فالامم الراقية التي تدرك هذه الحقيقة تماماً لا تخلط فيها وتبني جميع اعمالها وسياستها عليها فتصبح قويمة الدعائم يندر ان تفعل فيها تقلبات الدهر فعلاً محسوساً اما في الامم الغير راقية تماماً فالوطنية الصحيحة لا تعرف انما هي تتحد والاصح ان يقال انها تجتمع بحكم الحاجة لقضاء الغرض الذي ترمي اليهِ ولكن مثل هذا الاتحاد لا يلبث ان يزول بزوال الغاية لعدم ادراك الافراد اساسهُ الصحيح ورسوخهِ في اذهانهم . ولا يخفى انهُ يصعب على جميع الناس تحديد هذه المصلحة ومعرفة ماهيتها ومن اين تبتدي واين تنتهي ولكن لا اختلاف في حقيقتها عند الباحثين . فلكل بقعة في الارض مزايا طبيعية واقتصاديةٌ خصوصية يشعر سكانها بالميل والحاجة الى احتكارها وتوسيع نطاقها ما امكن وليس من باعث لهم في ذلك غير حب المصلحة الذاتية وخدمة الانسان نفسهُ. ولارتباط ثروة ومنافع العالم كله بعضها ببعض ولجنوح كل انسان وكل فئة من الناس فطرة الى جعل نصيبهِ وافراً منها . نشأَ التزاحم بين كل فرد وقرينهِ وبين كل فئة واخرى . وربما أَدى هذا التزاحم بالانسان الفرد الى مقاتلة الفرد الآخر . ولا يمنع هذا الاختلاف شكل ووطنية كل عضو حيث انهُ قائم على ناموس الحاجة الفطريةّ . ويتحد افراد كل بقعة بحكم الناموس نفسهِ الى مكافحة افراد البقعة الاخرى . فان شذت هذه الاعضاء او الافراد عن هذا الناموس الطبيعي انفرط عقدها وفقدت قوتها وعجزت ليس عن المقاتلة فقط بل عن المحافظة على حياتها فتغتالها القوات المحاطة بها وتصبح في حكم العدم . هذه هي حقيقة ناموس الارتقاء تدل عليها حالة كل امة ويدل عليها بالاكثر انحطاط الشرق وتهيؤهُ الحالي لفقد الباقي من استقلالهِ ان كان هناك استقلال حقيقي باقٍ

الوطنية في عرف الشرقيين

وعلة شقائهم

ان انحطاط العلم في الشرق وفقدان قاعدة البحث في الحقائق جعل الاكثرين فيهِ لا يفهمون معنى الوطنيَّة كما هو . وجلهم ان لم اقل كلهم يعتقدون انها قائمة في جامعة الدين. نعم ان الدين يقوي تلك الروابط ويهذب اميالها ولكنهُ لا يحول دون هذه الجامعة ان ادرك كل فرد ماهيةَ دينهِ والغاية الجوهريَّة منهُ . انما الجهل قد ابعد هذه الحقائق عن اكثر الشرقيين فهم يعتقدون ان لا جامعة حقيقية غير جامعة الدين . فزال الاتحاد الوطني من نفوسهم وضعفت وحدتهم واخذت في الانفراط

عدم تنافر الدين والوطنية

الدين عبارة عن اعتقاد بتعاليم خصوصية لا تتعدى دائرة الضمير وهي قاصرة على علاقة الانسان بربهِ انما يسن اليهِ القواعد التي تتعلق بشؤونهِ مع غيرهِ في دائرة علاقاتهِ الادبيةَّ لا في علاقاتهِ الاجتماعيةَّ التي يعود امرها الى القوانين النظامية السياسية . فوحدة الدين هي فقط الارتياح الذي يشعر بهِ الانسان عند ما يرى آخر مشاركاً لهُ في رأيهِ ومذهبهِ . والمصلحة الدينية قائمة فقط فيما يجدهُ الانسان في شريكهِ في الاعتقاد من التعضيد في اقامة الشعائر الدينية التي ربما يعجز الفرد الواحد عن اقامتها بالاحتفال المألوف . فكل ذلك يزيد الاتحاد قوة وجمالاً ولكنهُ في الحقيقة خارج عن العلاقات الضروريَّة التي تحتاج الوطنية اليها

الحاصل الآن في مصر

نحن (اي السواد الاعظم) للآن لم ندرك الوطنية الصحيحة . ولم نشعر بوحدتها الحقيقية فالمسلمون يقولون لك ان لنا جامعة اسلامية مستقلة تمام الاستقلال عن كل فرد خارج عنها . ويعتبرون جميع مسلمي الارض داخلون فيها . والنفر القليل المهذب منهم يفهم ان للوطنية معنى آخر ودائرة نفوذ أخرى انما لا يزال يشعر بعداء طبيعي ممتزج بدمهِ لكل من هو غير مسلم وربما بدون ان يدرك لذلك علة ظاهرة اما الذين يدركون ويعملون على اعداد نفوسهم لائتلاف الوطنية كما هي فهم في حكم النادر وقد لا يشعر بوجودهم . وهم بدون شك ليس لهم تأثير على جموع كثيرة العدد والبعد عن العلم والتمدن الصحيح . وما يقال عن المسلمين يقال ايضاً على غيرهم من المسيحيين الوطنيين ولو ان ظواهرهم تدل على انهم اكثر رغبة واستعداداً الى احياء المبادئ الصحيحة وايجاد وحدة وطنية نحن اصبحنا اشد الامم احتياجاً لها في الوقت الحاضر . اذ من حسن طالع الغربيين ونتيجة انحطاط مدنيتنا وخلوّ جميع طبقات مدارسنا من مبادئ التربية الصحيحة ترانا الآن منقسمين الى قسمين رئيسيين قسم المسلمين وهو "حزب العرب وحزب الاتراك" وقسم النصارى وهو الاقباط الارثوذكس والكاثوليك والسوريين والارمن وغيرهم" . وكل قسم ان لم يكن مهتماً في اذلال غيرهِ فهو على الأقل عامل لمصلحة خاصة بدون ادنى ارتباط بالمصلحة العامة . وهم جميعاً يشتغلون ضد مصلحة انفسهم ولخدمة الاجانب الذين لا غاية لهم الاّ ابتلاع البلاد وما فيها واماتة العواطف الوطنية للاجهاز على ما بقي او يبقى لأهالي البلاد . والغريب أنا جميعاً غافلون عما تؤُول البلاد اليهِ من التأخر المستمرّ فيما يختص بالوطنيين والبعض منا يتوهم ان المعارف تتقدم يوماً عن يوم وأنا

بهذا التدرج انما نرتقي ارتقاءً متواليًا. ولو انا بحثنا الامر حقيقيًا نرى ان سيرنا بجانب سير غيرنا يكاد لا يشعر بهِ والمعارف الصحيحة اقل انتشارًا بيننا من قبل . والحقيقة انا كنا اكثر امتزاجًا واتحادًا من الآن . والسبب بعد المعارف الصحيحة عنا وكثرة الغرور المشاهد بيننا الآن

حقيقة مصلحة المصريين

لنفرض ان للمسلمين جامعة ووحدة مستقلة عن جامعة ووحدة المسيحيين فهل يمكن للبلاد ان تنهض من خضوعها وانحطاطها الحالي ؟ ؟ وان تحصل على استقلالها بمثل هذا الانقسام ؟ ؟ وهل يمكن ان يتوقع ان البلاد تخلو يومًا من الايام من احد هذين العنصرين ؟ ؟ كل هذا يستحيل . فلا وطنية بدون اتحاد حقيقي ولا فلاح ولا استقلال بدون وطنيةً . ولا أَمل قط باختصاص البلاد بعنصر دون آخر . وحيث انهُ لا بد من اجتماع العنصرين في معيشة واحدة تحت سماء واحدة واحكام واحدة مدى الدهر وما دامت حياتهم بجميع وجوهها اصبحت اكثر من كل زمن تتوقف على القوة والتضامن وهذه لا توجد الاَّ بالاتحاد وهذا لا يكون الاَّ بتربية النفوس على ان الدين لا ينافي العلاقات الوطنيَّة وهذا الامر طبعاً لا ينتظر من مدارس الحكومة حيث فكرة التعليم فيها تناقض المصلحة الوطنيَّة الحقيقيَّة فان رغب وود المخلصون لهذه البلاد ارتقائها الفعلي وتمهيد السبيل الى استقلالها فلا يكون ذلك الاَّ بفتح مدارس للبنات في جميع انحاء البلاد . وجعل المبدإِ الاساسي فيها التربية الصحيحة بجميع انواعها. واكثار عدد المدارس الحاليَّة للاولاد وانشاء جامعة في العاصمة يستحضر لها اساتذة من بلاد لا غاية سياسيَّة لها في القطر .

والسبيل الى ذلك صعب لا مستحيل. انما نحن نترك البحث فيهِ الى غيرنا من اصحاب النظر السليم والله يتولى امورنا بالنجاح جميعاً

الاسراف

" او ميزانية الهدم في الامة "

" والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " (قرآن شريف) .

الاسراف صفة عامة في كل الطوائف التي تتألف منها الامة المصريَّة. ولكنهُ يختلف في كل طائفة عن الاخرى . فليس الاسراف في الطائفة الاسرائيليَّة مثلاً ولا في الشعب القبطي كما هو في الشعب الاسلامي. واسباب اختلافهِ حرص الاولين وتوفير الاقباط وبالعكس تبذير المسلمين . وما ذلك الاَّ لاحتياط الطائفتين الاسرائيليَّة والقبطيَّة لانفسهما في السير على ما يكون لهما فيهِ قوامُ الثروة : فلذا دأبهما كنز المال ولو جارتا على انفسهما والفضل في ذلك ليس لهؤلاء الطوائف بل للمصائب التي انتابتهم من قديم الزمن وعلمتهم الادخار لوقت الحاجة فان للشعب الاسرائيلي الآن مركزاً ماليًّا عظيماً في مصر وليس بعدهُ في الدرجة الاَّ الشعب القبطي . اما الشعب الاسلامي فلا يكاد يذكر بينهما لانغماس المسلمين في الترف والابهة والعظمة والتهور في الملاهي والولائم. اذ قد ورثوا كل زينة باطلة وكل ما يفضي الى الاسراف والتبذير والخراب وهم لا يعلمون . ومن الغريب ان يحكم البلاد الآن غير اهلها ولا تشعر الطوائف المتألفة منها الامة المصريَّة بالتحوط لانفسهم في حفظ اموالهم لتربية ابنائهم بما ينفعهم في ايامهم المستقبلة المجهولة اذ ليس اقوى من المال على حفظ كيان الامة والجماعة . وما من امة استغرق افرادها في الاسراف والتبذير الاَّ

تلاشت وانحطت وضعفت واضمحلت مقاماً وكياناً . ومن الاسف ان الاهالي عموماً والمسلمين منهم خصوصاً ليس لهم في زمن حكومتهم العادلة وسائل لموارد الرزق لجهلهم كيف يستخدمون الوسائط فيما ينمي الثروة : والمتأمل يرى ان عمران القطر قد عاد بالفائدة المالية على جماعة الاجانب لعلمهم بطرق الاكتساب واغتنامهم الفرصة المناسبة في زمن العدل فلذا ترى الاجنبي يحل محل الوطني كل يوم في اكثر مواطن التكسب لشيوع العلم فيهم وشيوع الجهل فينا وعلة ذلك الاسراف المشين الذي بليت الامة باجمعها به والمسيحي لا يأمرهُ دينهُ بالاسراف والمسلم ايضاً كذلك فان المتأمل لحكم احكام الشريعة المطهرة يجد في كتب الفقه ما مؤداهُ انهُ لا يجوز لمتوضيء ان يسرف من الماء اكثر مما يلزم منهُ للوضوء ولو كان على شط نهر او ساحل بحر . فاذا لم يجز لمن يتوضأ لعبادة ربهِ ان يسرف من ماء البحر الذي هو اوفر الاشياء في الدنيا وارخصها ولا ينقص بوضوء المتوضئين سواء اكثروا منهُ او أقلوا . فكيف يجوز لعاقل تبذير المال الذي عليهِ مدار مصالح الامة في الدارين واغلى الاشياء واندرها بالنسبة للحاجيات العمومية . ولاسيما اذا انفق الانسان فيما لا ينفع وهو من المحتاجين اليهِ اشد الاحتياج وحالة العمران تستدعي الاعتماد على المال في قضاء الحاجات والواجب على كل انسان لهُ زوجة واولاد ان يستعد للموت العاجل اي ان يدّخر لهم ما يقوم بحاجاتهم حتى اذا فاجأتهُ المنيّة قبل ان يصيروا في غنى عنهُ لا تبرح بهم المتربة ولا يكونون عالة على الناس . ولا يخفى ما في طواريء المرض والعطلة والشيخوخة ايضاً من الحاجة الى المال . ومن احوج الناس الى ذلك مثل جماعة الوسط من الامة — فان مع العسر يسرًا ان مع العسر يسرًا — ولقد انتبه الى ذلك وسط جميع الامم فانشأوا لذلك بنوك الاقتصاد ومن ثم كل يوم عددها بينهم في ازدياد . وما كل ما يشاهد من الهمم في الامم المرتقية عنا الآن من آثار

هذا العمل الباهر . وهو سرٌ من اسرار ارتقائهم عنا[1] وحبذا لو حثت على الاقتصاد الجرائد بدلاً من سياسة "الطرابيش في الهند" او ذكر ما روتهُ جريدة "حمدان" او ذكر "نجاح وتقدم حزب تركيا الفتاة" "ومصائب المابين" فان الجرائد في تلك البلاد باذلة الجهد دائمًا في تربية ملكة الاقتصاد في الامة لأن بهِ قوام شعبها وحياتهِ . ولو فرطت الامة في الثروة وبعثرتها وبددتها فلا بد ان تصبح على شفا جرف السقوط والاضمحلال خصوصاً اذا كان التبذير والاسراف في مهمات خارجيةً وفي زوائد تقليديةً مثل استرسال جماعة الوسط الذي هو نتيجة عدم تعليم وايجاد ملكة الاقتصاد سيما وقد ساد على العقول المثل "اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب" ولبيان الابواب الهادمة لثروة الامة نقول آفات الاسراف كثيرة منها آفة الميسر تلك الآفة الحديثة العهد في ديارنا فوق ما فيها من الآفات الكثيرة التي تسممت منها الاجسام وصغرت بسببها العقول فأماتت العواطف وضيعت الاحساس وافنت المروءة والشهامة فان مع منع هذه الآفة رسمياً بقرار صادر من الحكومة[2] لا يزال لاعبوها المستترون كثيرين في بيوتهم ومجتمعاتهم الخصوصيةً وربما اشترك بعضهم مع مخدراتهم اشتراكهم معهنَّ في معاقرة بنت الحان

(١) اهم بنوك الاقتصاد في اغلب البلدان المتمدنة بنوك البوستة. ومما يسرنا ذكرهُ سعي سعادة الشهم الغيور يوسف باشا سابا مدير عموم البوستة في انشاء بنوك الاقتصاد في بعض مكاتب البوستة والمأمول ان يعم ذلك مكاتب البوستة كلها عن قريب فان من يعلم همة سعادتهِ في ايجاد شركة "الاقتصاد والتعاون" بين موظفي ومستخدمي البوستة ونجاحها الباهر يتأكد لديهِ مقدرة سعادتهِ على ذلك

(٢) القرار المذكور صادر من نظارة الداخلية في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩١ بعد تصديق محكمة الاستئناف المختلطة عليهِ . ويقال في المادة ١٧ منهُ ما نصهُ — لا يجوز لأصحاب ادارات المحلات العمومية ان يمكنوا احدًا من اللعب بالعاب القمار على اختلاف انواعها مثل البكارا والانسكينة والواحد والثلاثين والار بعين والفرعون والزيرو وماكينة الخيول وما أشبه

وما سلطان القانون على النفس التي لم تتهذب وتتربَّ فيها ملكة الاقتصاد بمانع من اللعب بين المنازل والمصيبة ان آفة الميسر لم تحل بالمدن الكبيرة فقط بل ان القرى الحقيرة تئن منها وتشكو

ومن الآفات العظيمة ايضاً انصراف الامة الوسطى الى المسكر واندفاعها في الشرب وتعاطي الخمور حتى اصبح السكر زينة الفتيان والحانات اعز مقاعد الشبان والمصري بميلهِ الى الافراط في كل شيء سبق غيرهُ في ميدان الخمور فلم يبقِ مالاً ولا تركَ صحة وجهلهُ لدينهِ وتقليدهُ للأجنبي فيما يضر ولا ينفع كلها اسباب مكنت فيهِ حب الميل الى الخمر وإلاَّ لو عرف ان الميسر والمسكر شيئان مخالفان لنصوص الدين والشرع واوامر الكتاب والسنة من اول تربيتهِ البيتيَّة والمدرسيَّة . وعرف معنى المقصود بقولهِ تعالى

« يا ايها الذين آمنو انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوهُ لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر و يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون — الآية »

وتحقق لديهِ حكمة تحريمها والتناول منها ما اقدم على مخالفة امر الله الناهي بذلك عن وارثة دمار الامم الجالبة الفساد والخراب المقتلة للنفس الباعثة على فساد الصحة [1]

ومعاصرة الافرنج المبثوثين في اطراف البلاد شرقاً ومغرباً ساعد على انتشار

(١) يقول الاطباء ان الخمر تسبب ارتعاش الايدي بعد القدرة على تحريكها وتسبب عسر الهضم وفقدان الشهية . تلحق بالكبد الاذى تضعف القريحة . تؤدي الى كثر الهواجس . وازدياد هذيان المدمن عليها . تؤدي الى الانتحار ولا يزول ضررها بانقضاء حياة المدمن عليها بل يسري ضررها منهُ الى ذريتهِ فينشأ الاولاد بالامراض العصبية على تنوع اشكالها التي من اخصها داء الصرع ثم انهُ مما اجمع عليهِ الاطباء ان ولد السكير يكون ضئيلاً ضعيفاً وان عاش فقلَّ ان يلد وحينئذٍ فجناية الخمرة على العقل والجسم لا تضاهيها جناية مطلقاً وبهذا استحقت ان تسمى أم المعاصي

شرب الخمر بمالهم من طرق الخداع والحيل حتى اعتادت اغلب الفئة الوسطى من الامة على شرب " المستكى " ظهرًا " والبيرة عصرًا " " والكنياك " " مساء " فتراهم جماعات جماعات في الحانات عاكفين على شربها لتمسكهم باهداب مخازي التمدن والحضارة الغربيَّة . ويا ليتهم في شربهم معتدلون ولا يصلون لحد العربدة والاسكار بحسوة الكأس اثر الكأس خمرة صرفًا حتى لا يتشاجرون ويتضاربون الى حد الاهانة والمحاكمة ولكن هي الخمر لا حكم لشاربها على نفسهِ اذ هي المتصرفة بالعقل انى شاءت من ضحك ورقص وقهقهة وزعيق . ولا يخفى اضرارها المادية في امة هي بحاجة الى الاقتصاد من مرض يطرأُ ومصيبة تحل ومبالغ جهلها لا يوصف . ومن الآفات المسببة للاسراف قهاوي الرقص المشتمل على الحركات القبيحة التي يرتد عنها نظر الاديب حياء وخجلاً

هذا ولا نطيل فيما بقي من الاسباب المؤدية للاسراف ما دامت كثيرة معلومة لدى القارىء

ولكننا نتقدم اليهِ باحصاء اخذناهُ من محافظة مصر — قلم تنفيذ اللوائح — عن بيان الخمامير وقهاوي الرقص والقهاوي العاديَّة التي للاجانب والوطنيين حتى يظهر لديهِ بأجلى بيان كثرة مسببات الاسراف في الامة

كان في القاهرة وحدها للوطنيين ١٦٦١ محلاً من خمامير وقهاوي قبل صدور اللائحة سنة ١٨٩١ وكان للاوربيين ٧٥٥ محلاً من خمامير وقهاوي رقص وبيرات سنة ١٨٩١ ايضاً اي قبل صدور اللائحة

ثم حدث من بعد صدور اللائحة المذكورة ٥٠٥٠ محلاً للوطنيين و ١٩٨٩ محلاً للاجانب وباضافة ما كان قبل صدور اللائحة الى ما حدث بعد صدورها يكون المجموع ٩٤٧٥ محلاً في القاهرة وحدها

فاذا تساهلنا وفرضنا ان كل خمارة او بيرة او قهوة من هذا العدد تبيع يوميا بنصف جنيه لا غير فانهم يبيعون في السنة بمليون وسبعمائة وثلاثين الف جنيه وكسور ثم لو فرضنا ان سائر محال الخمر والقهاوي في جميع القطر بمقدار ما في العاصمة فقط يكون مقدار ما يصرف في الخمر وعلى القهاوي والرقص وغيره يساوي مبلغ ثلاثة ملايين واربعمائة وستين الف جنيه وكسور

كل هذا المبلغ الذي دونهُ دخل بعض الممالك الصغيرة في اوربا يذهب من ايدي الوطنيين اسرافًا وتبذيرًا سنويًا في شرب الخمر وعلى التفرج على الرقص والقصف والخلاعة وعلى القعود في القهاوي

ثم لو زدنا على هذا ما ينفقهُ الشبان الجهلاء الذين يرثون من المال ما لا يحصى مقدارهُ ويبذرونهُ في اماكن المقامرة المستورة وغير ذلك لضوعف المبلغ اربع او خمس مرات

فاي مصري عاقل لا يتفطر قلبهُ اسى واسفًا على أُمة هذا مبلغ حالتها في التبذير واي انسان لا يتحسر على مالٍ ينفق بلا نفع أَدبي يعود على البلاد وتربية ابنائها وكيف يؤَمل حفظ كيان أُمة بغير الثروة وهي حياة الممالك . او يؤمل لها مستقبل حسن . وغاية شبانها وكهولها التبذير والاسراف الذي يزيد البلاد تعاسة وتأَخرًا "فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسرهُ لليسرى" صدق الله العظيم

الغناء والحماسة

الغناء صدى النفس الصادر من اعماق القلب بعد احتكاكهِ بالعواطف والحاسيَّات . وهو الشاهد العدل على الاميال الغريزيَّة في الانسان . والواسطة لتجرد الانسان عن الاشياء الحسيَّة وتعلقهِ باهداب العقليات والتوسع في الافكار

والخيالات لانماء الشعور واحياء العواطف وكان العرب في الجاهلية ينشدون الاغاني الدائرة على الالسنة في ذلك الزمان في حـ ـلاتهم وكانت كل قبيلة تفاخر الاخرى بمقدار ما في قولها من الحماسة . حتى ان الفتيات المواتي كنّ مخصصات برعي النوق والابل كنّ يغنينَ ويحدينَ لها على الطريق بغية ان لا يستحوذ الملل على النوق والابل وحتى قد اشتهر عندهم اذا ارادوا ان تسرع الابل والجمال في السير غنوا لها وحدَوْا فتسرع جدًّا ولا يزال بعض ذلك فيهم كما قد اتصل منهم الى بعض جهات في اوربا [1] وبقيت هذه العادة ونمت وتحسنت مع الزمن وتداولت على الالسن واختلف نغمها باختلاف القبائل لان كل قبيلة كانت تظهر اميالها واحساساتها ان كان فخرًا او حماسة او حبًّا في الغزو او اكرام الضيف

لا مرحباً بالليل ان لم يأتني ... في طيهِ ضيف عزيز نازلُ
والصبح لا سهلاً بهِ اذا أتى ... ان كان عندي فيهِ ضيف راحلُ

او اسداء المعروف وغير ذلك من صفات العرب الطيبة. فكان السامع يحكم لاول وهلة ان القبيلة التابع لها هذا المنشد موصوفة ومشهورة بالصفة التي يترنح بها في الانشاد

والغالب على الظن ان الاغاني كانت عندهم دليلاً على الفخر والترفع عن الدنايا وهذا مخالف لما نراهُ الآن . وبعد ان بزغ النور الاسلامي وتقشعت دياجير الكفر والجهالة واختلطت الامم الاسلامية بعضها ببعض وتفرقت لفتح الممالك وكسح البلدان ومازجت العناصر الغربيّة طبقاً لقانون الترقي في الطبيعة . انتقلت الاغاني من دور كان حماتها رعيان النوق والابل الى دور كانت حماتها فيهِ من الخلفاء والسلاطين .

(١) مما يذكر عن اختبارات اهل سويسرا ان البقر عندهم يتأثر من الصوت الحسن الى حد ان ادرارهُ للبن يزداد على الغناء . وخصوصاً اذا كانت الفتاة التي تحلب اللبن تغني في وقت الحلب غناءً شجياً فان اللبن يزيد الى مقدار الخمس

ولاسيما الاندلسيين الذين اشتهرت في ايامهم الاغاني وموشحاتهم لا تزال خير شاهد على سبقهم في هذا المضمار (١) ومثل هذا يقال عن المصريين والمتأمل في اغاني تلك الايام يقدران يحكم في الحالة التي كانت عليها الامم الاسلامية في ذلك الزمن السالف فالحكيم يقول — من ثمارهم تعرفونهم — وهذه الموشحات التي كان يغنيها الاسلام تنطوي على احساسات رقيقة تأبى الذل والهوان . عدا انها كانت صادرة عن افكار ثاقبة وقلوب امتلأت حكمة وكمالاً وتدل دلالة واضحة على ما وصلت اليهِ الامة من المجد والسؤدد فلما تطرق الفساد الى الامة والى محترفي صناعة الغناء لانغماسهم في المسكر الذي لا يبقي على العقل والادراك . انتقلت بذلك الاغاني الى دور الانحطاط لاسيما وقد افسد الافرنج بها ذوقنا وسهلوا علينا طرق المفاسد لمآرب يرمون اليها فأخذت الاغاني في التأخر والسقوط الى ان وصلنا الى عصرنا الحاضر الذي اصبح المغنيّ فيهِ متزوجاً بنائحة ليأخذ كلٌّ منهما بقسم من الحزن والفرح حتّى اذا كان هناك فرح دعوهُ وان كان حزن دعوها . ولا ينكر ان المصريين يميلون الى الغناء والطرب وقد كاد الطرب يعم جميع افراد الامة وجميع طبقاتها واصبح المرء يرى الرائح والغادي ذاهباً الى مكان المغني. فالغني عاكف على سماعهِ بما في وسعهِ . اما في بيتهِ او في بيوت صحبهِ والوسط كذلك يسعى ما استطاع لسماعها والفقير والبياع المتنقل الذي يطوف في الشوارع والحواري ينادون بنغم حتى الفعلة وهم تحت الاثقال لا يحلو لهم العمل ولا يخفف اثقالهم شيءٌ مثل التلحين والانشاد

والمغنى ليس بمنكر ولا مكروه اذ قد ورد عن النبي " صلى الله عليهِ وسلم " انهُ سمع نسوة يغنين في وليمة عرس فلم ينكر ذلك عليهنّ

(١) ترى بعض موشحاتهم في مقدمة ابن خلدون

وجاء ايضاً ان نساءً من الانصار استقبلنهُ عند قدومهِ من احدى الغزوات بالدفوف والمزاهر وهنَّ يغنينَ على الايقاع بقولهنَّ

طلع البدر علينا من ثنايات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ولم ينكر ذلك عليهنَّ "صلى الله عليهِ وسلم". وفي سير الخلفاء حكايات كثيرة عن حضورهم مجالسهُ وقيل ان عمر بن الخطاب "رضي الله عنهُ" سمع الغناءَ فما انكرهُ مع ورعهِ ونقشفهِ وصلابتهِ في الدين. وحتى انهُ مرَّ في بعض الايام على ابي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهُ في بيتهِ فوجدهُ يتغنى فقال لهُ ما هذا يا ابا عبيدة فقال افعلُ ما بفعلهُ الرجل في بيتهِ ثم انشد

ولله مني جانب لا اضيعهُ وللهو مني والخلاعة جانبُ

ويقولون ايضاً في كتب السير ان عبد الله بن جعفر رضي الله عنهُ كان يجلس للسماع. وللغناء عمل كبير في تلطيف الوجدان وترقيق الشعور مما لا ينكرهُ ذو احساس وما من امة مرتقية او منحطة او همجيَّة الاَّ ولها نصيب منهُ على حسب استعدادها وارتياحها. والغناء انتعاش للنفس وارتياح للجسم لو كانت في حماسة فيها دلالة على شبه شيءٍ في نفس السامع فان تأثير ذلك كالغذاء لها من بعد طول شقائها وبعدها عنهُ. ولذلك تستعمل الاغاني في الافراح والحروب وتعالج المرضى بها وتستعمل في المآتم وبيوت العبادات ولا توجد امة اميل اليها من امم المشرق اذ تاريخ الغناء فيهم اقدم وهم فيهِ اعرق واكثر ارتياحاً يستحثون بها البطل في حومة الوغى ليدافع عن وطنهِ وامتهِ كما يسكتون بها الطفل عند بكائهِ وعند صراخهِ فيسكن لها ويرتاح الى سماعها وشاهد ذلك ظاهر فيما لو تأمل القارئ في طفل تسكتهُ امهُ بأنشودة

غير ان حاضر الغناء عندنا مذهب بالشهامة مقعد للحماسة مضيع للمروءة مفسد

للاخلاق يربي في النفس السكون والاستسلام والضعة عدا حثها على مخالفة الآداب وحث المرء على حسو الخمرة ومداعبة النساء وهذا الجاري في اغاني عهدنا الحاضر وكما هو بين الرجال كذلك بين النساء فان اغانيهنَّ في الافراح مما يسوءُ ذكرهُ لانهُ دلالة فيهنَّ على بعدهنَّ عن الكمالات وتورّطهنَّ في قلة الادب الى حد السفاهة او دون (١) هذا والخلاصة ان الاغاني عندنا معشر ابناء العرب قد انحطت كثيراً عن الغرض المقصود بها حتى علتها اغاني " البرابرة " لما فيها من بعض الحماس والترفع عن الدنايا ويظهر ذلك من قولهم

الدجينات الممصه لا بد شيبن والنجيمات اللجلجن لا بد غيبن
والبنات من غير رجال لا بد عيبن والخيل من غير فرسان لا بد غيبن

ولقد قابلت مرة شاعر الشبيبة المصريةَ حضرة احمد بك شوقي وشكوت لهُ سوءَ حال الاغاني العربيَّة ورجوتهُ ان يضع بعض ادوار لتكون سبباً لايجاد روح الحماسة في الامة فوعدني خيراً فعسى ان يكون ذلك قريباً ليذهب عن الناس تنفس الصعداء وقت سرورهم وافراحهم والاَّ فلله في خلقهِ شؤُون

(١) واليك بعض ما يقولون في الافراح

ان كنت حائف من أمي أميّ عليّ مستورا
وان كنت خائف من ابويا ابو يـا عدا المنصوره
وان كنت خائف من اختي احتي عايقة ومشهورا
وان كنت خائف من جوزي جوزي ياكل طاطورا
وان كنت تايه عن بتنا بتنـا قدامه دحضورا

حاجة الشبان

بين الوسط من الامة شبان كثيرون من المتعلمين المهذبين . محتاجون الى مجتمعات لا تحط بقدرهم ولا تمس كرامتهم ولا تطفئ جذوة النشاط والهمة من نفوسهم محتاجون الى ترويض الابدان بوسائط الرياضة الصحيّة من مثل استنشاق الهواء النقي في الاماكن البعيدة عن السكنى ذلك لانهم كما ذكرنا متعلمون مهذبون عارفون ان ذلك سبب ارتقاء ونجاح الشعوب الاوربيّة ولا سيما الشعب الانكليزي الذي اعتمد على تقوية عضلاته وترويض جسمهِ واعضائهِ فنجح هذا النجاح المشاهد . وما وُجد فيهم ذلك الاّ لأنهم تعودوا لعب " الجمنستيك " في المدارس وشبوا وهم عارفون منفعتهُ فيصعب عليهم والحالة هذه ان يتركوا اللعب بهِ حال اتمامهم لدروسهم وزادت فيهم الحاجة الى ما ذكر لانهم يعلمون ان الصحة والقوة لازمتان للجالس في مكتبتهِ اكثر من العامل في حرفتهِ . محتاجون الى ما تقدم حتى لا يفقدوا الصحة بعدم انتظام المعدة التي شكا منها كثيرون

واكثر شعور الشبان بحاجاتهم وقت فراغهم من العمل فانهم يشعرون بالحاجة الكبيرة الى اماكن تأويهم ومن على شاكلتهم والى ما يشرح الصدر منهم ويمنع عنهم الاندفاع مع تيار الشرور ما دامت كل المحال لا يقبل الشاب المؤدب ان يوجد فيها لسوء سمعتها وما دامت العائلات قد نسيت ذلك الاجتماع الذي كان معروفاً بينها قبلاً . وهو اجتماعهم عند بعضهم مرة في بيت هذا وأُخرى في بيت ذاك ليقضوا اوقات فراغهم بين مباحثات واحاديث مفيدة . نعم كان ذلك والآن لا يوجد الاّ لجماعة الافرنج وبعض اذكياء جماعة السور يين

ولقد صدق الاديب حافظ افندي عوض في مقالة لهُ في المؤيد الاغر عدد

٣١١٩ حيث قال — واقول ولا اخشى لومة لائم انهُ اذا لم توجد أندية ومجتمعات عائلية فيها يقضي الناشئون اوقاتهم فالتربية ضائعة والكلام في التربية لا يجدي نفعاً وتذهب اقوال المعلمين والمربين هباءً منثوراً ولا ادب يفيد ولا اديب — ونحن نزيد على قولهِ ان الشبان في حاجة عظيمة الى مداومة الرياضة البدنية واستنشاق النسيم النقي وخليق بهم الذهاب والتردد على ما يكسبهم صحة على صحة ونشاطاً على نشاط وخليق بهم ان يتحدوا معاً حقيقة فيؤلفوا نادياً [1] توضع فيهِ بعض الجرائد اليومية والمجلات الشهرية والاسبوعية سواءٌ كانت عربية او افرنجية بدلاً من الجلوس في القهاوي التي تقدم الكلام عنها فانهُ لا شيان اكثر تشتيتاً وتفريقاً من الشبان المصريين ولاسيما المسلمين منهم [2] وكثيراً ما يحتاج احدهم الى آخر فيفتش عنهُ في القهاوي كلها حتى يعثر عليهِ . والشبان مفطورون على تمكين علائقهم ومحبتهم مع بعضهم فاذا أُنشئت لهم الاندية تخلصوا من جلبة الجالسين على المقاعد في القهاوي والهواء المنبعث من دخان " النراجيل " وليس في العاصمة مكان اجدر بهذا المشروع من حديقة الازبكية حيث يخطر بليل الهواء فيها ويسبح الاوز على صفحات الماء . وحيث تتمايل الاغصان تمايل قدود الحسان حتى اذ اشتد النسيم في خطراتهِ حنت رؤوسها اجلالاً وعانق بعضها بعضاً تحبباً وامتثالاً فيسمع لها حفيف يزيل الهموم ويجلي عن القلوب صدا الغموم والاَّ أليس بعار ان تصبح اندية

(١) انشأ الشبان المصريون لهم جملة اندية ولكنها لم تدم. وقد جمع بعضهم اكتتاباً اخيراً بواسطة البنك العثماني ولكنا لا ندري ماذا تم اذ قد مرَّ على هذا الاكتتاب اكثر من سنتين ونصف ولم نسمع عنهُ شيئاً

(٢) ينشأ التفريق بين الشبان وبعضهم من وقت طلبهم العلوم في المدارس. اذ تلامذة الحقوق بمعزل تام عن تلامذة الطب وهؤلاء لا يدرون من امر اخوانهم بالمهندسخانة شيئاً ولهذ السبب بُعد عنهم التآلف والاتحاد وبعدت عنهم المحبة

مصر للاوربيين من انكليز وفرنساويين والمانيين ونمساويين وايطاليين [1]

وليس للشرقيين شيء الاَّ نادٍ واحد انشأَهُ جماعة من افاضل السوريين سموهُ " بالنادي الشرقي " وسنوا لهُ قانوناً ورد في المادة الاولى منهُ

" ان الغاية من تأسيس هذا النادي اجتماع ادباء الشرقيين لقضاء الوقت في ما يلذ و يفيد "

" وفي المادة الثالثة "

" ان المشاحنات السياسية والدينية ممنوعة على الاطلاق

فجاء ذلك وافياً لهم بحاجة نحن احوج منهم اليها . نعم ان الشبان احوج الى ذلك كما هم في اشد الحاجة الى انشاء المكاتب للمطالعة اذ المستقصي دور المطالعة في القطر يجد عددها لا يتجاوز اصابع اليد وهي " الكتبخانة الخديويةَّ " بمصر وكتبخانة المجلس البلدي في الاسكندريةَّ ومكاتب المرسلين الاميريكان و بسبب فقدان ما ذكر من العواصم لم تنم التربية الصحيحة بين الشبان في العواصم واصبحت صحيحة في الارياف عليلة في البنادر والمدن لكثرة ما يوجد في الاخيرة من دواعي الترف والخلاعة

يتبين لك صدق ذلك لو تأملت اولاد الارياف فانك تراهم اوفى كمالاً من اولاد المدن الذين هم اوفى رذيلة فلذا يشب الاولون وقد مارسوا غرس الاشجار وزرع البقول وتربية الحيوانات . والآخرون يشبون على غرس البغضاء في النفوس وزرع الشحناء في الصدور وتربية النميمة والمواربة والخداع وسوء الاخلاق . هذا ومن اهم حاجة الشبان التي لا تخفى على من درس حالة البلاد ان المتعلمين منهم قد ابتعدوا عن الزواج لما علموا ان من يقترنَّ بهم بعيدات الافكار

(1) اول من ابتدأَ بعمل الاندية (الكلوب) الانكليز في اوائل القرن الخامس عشر والكلوب لفظة انكليزية مأخوذة من مادة يراد بها الاجتماع كاجتماع الانجم والاشجار في غيضة او روضة مثلاً

عنهم وان كنّ متحدات الاجسام وقلة الزواج في الامم دليل على انحطاطها والتاريخ وحاضر جمهورية فرنسا اصدق شاهد. هذا وحاجات الشبان المتعلمين لاختيار زواج المتعلمات من البنات تنمو يوماً عن يوم[1] فهلا أدرك اهل البنات ذلك وبدأوا يشعرون بضرورة تعليمهنّ وفقاً لما اشار بهِ العقلاء اذ من الصعب جداً ان يرتقي فريق في الامة ونصف اعضائها غير مرتقٍ او كيف يهنأُ عيش احد الفريقين ما لم يكونا على اتحاد تام في الاميال والاخلاق وعلم التربية اعظم شاهد والواقع اقوى برهان على ما نقول

نسأل الله ان يصلح في هذه المدنة امر هذه الامة ولا تأْخذ باكظامها انهُ السميع المجيب

(١) اقترح احدهم مرة في مجلة "السمير الصغير" على الشبان ان لا يتزوجوا الاَّ بكل متعلمة فصادف اقتراحهُ هذا استحساناً عاماً ممن قرأَهُ من الشبان





القسم الثالث

في الفقراء

من هم الفقراء

الفقراء من الوجه الاجتماعي هم الامة كلها لاحتياج الناس بعضهم الى بعض كما قال المتنبي

الناس للناس من بدو وحاضرةٍ بعض لبعض وان لم يشعروا خدمُ

ومن الوجه الادبي هم مظهر البلاد . عوائد واصطلاحات وعواطف واحساسات ومن الوجه المادي هم معاملتها وعملتها الدارجة . ومن الوجه المعنوي هم سمعها وبصرها وعصبها الحساس . ومن الوجه المدني هم سورها المحيط بها . فتعال معي ايها المصري او ايها الانسان المهذب الغيور على امتك و بلادك او الغيور على بني الانسان في كل بلاد الله والقِ نظرة الى كل وجه من هذه الوجوه واشفعها بنظرة الى حالة الفقير في البلاد المصريّة وقل معي . ولكن في أُذني لاني واثق بانك سترى ما رأيتهُ وتقول ما استحي ان اجهر بهِ امام الناس . شعب ولكنهُ ليس بحي . ومظهرٍ يدل على الجهل . معاملةٌ سيئة . وعملةٌ زائفة . آذان لا تسمع . واعين لا تبصر . وعصب لا يحس . سور ولكن يا للاسف لا يحفظ ما احاط به ولا يدفع عنهُ اذى . اذا وقفت على ذلك فهل من دواء لهذا الداء العضال المهلك للامة باسرها ؟؟ . أَجل ولكن يلزم معرفة السبب حتى يكون

الدواء نافعاً للداء . سبب ذلك هو الجهل ولا دواء لهُ الاّ العلم فاجمل ما فصلت . وقل في تعريف الفقير المصري هو الجاهل ونادِ معي بين ذوي الاموال اصحاب الشهامة والغيرة على الانسانيةّ مستصرخاً مستنصراً لهذا الجاهل لعلّ هذا الجزء الغني الصغير يرحم نفسهُ بالابقاء على هذا الجزء الفقير الكبير الذي هو مظهرهُ وسمعهُ و بصرهُ وعصبهُ وعملته وسورهُ ولاتكون مبالغاً اذا قلت حولهُ وقوتهُ بل حياتهُ

وما أراك بوءمن لي على افتقار هذا الفقير واحتياجهِ الكلي لالتفات اهل الغنى واليسار واعتنائهم بهِ وتسهيلهم لهُ ابواب العلم ليعرف ويستفيد فيستفيدون من وجودهِ اكثر . فاسمع لأقص عليك احوالهُ الاجتماعيةّ واحدة واحدة كما هي بدون زيادة من ساعة ولادتهِ الى حين موتهِ من تربية وتعليم وزواج وطلاق واعراس واحزان وصحة ومرض واوهام وخرافات الى غير ذلك مما ستسمعهُ ونقول ما أنبئت بمثل هذه الجهالات في الغابرين

زواج الفقراء

قال عليهِ السلام " الحلال بينٌ والحرام بينٌ و بينهما امورٌ مشتبهاتٌ لا يعلمهنّ كثيرٌ من الناس "

المصري الفقير يتزوج وهو صغير السن وكذا المصريةّ الفقيرة ايضاً . والدافع لزواجهما في صغر السن اغلبهُ ميل الأب والأم لاسترضاءهما في حياتهما ليطمئن خاطرهما . وهذا سبب ما نراهُ فيهما وهما كهلان من انهما اباء لعائلات كبيرة وافراد كثيرين وفي هذا بحث اجتماعي لا يستخف بهِ " لأن من ورائهِ تكوين العصبيةُ القوميةّ وحبذا هي لو أُدركت بالمعنى الصحيح "

والمتأمل يجد من وراء هذا الزواج ما يدعو للعفة والصون وحبذا ذلك لو تمّ للفقير مع الوفق والراحة

اما طريقة الخِطْبة عند الفقراء فهي كما عند الاغنياء والوسط اي بواسطة تكليف الأُم او الأُخت او احدى الجيران من الحريم ان كان الزوج لا اهل لهُ بالبحث عن ابنة . حيث لا يمكنهُ بنفسهِ ان يخطب لعدم تمكنهِ من نظر البنات فتتوجه المكلفة بذلك الى البيوت التي فيها البنات وتتقدم نقد الصيرفي للدنانير وتشم رائحة فمها وصدرها وتنظر كعب رجلها فان كان مثل المرجله " القبقاب " تكون المخطوبة سعيدة والاَّ كانت بخلاف ذلك . الى ان تستحسن ابنة فتتوجه الى العريس وتبتدي تمدح لهُ قائلة . (لها وجه مدور " كالصينيَّة " وشرطة عين مثل " الفنجال " وأَنف مثل " النبقة " وفم " نخاتم سليمان ") وبناءً على هذا الوصف يرغب العريس في الزواج معتقدًا في من كلفها بالخِطْبة الحق وحسن النظر وطهارة الذمة

اما افراح الفقراء فجميلة على الغالب ولو انها على غير نظام لطيف اذ يظهر على اوجه حاضري الفرح مع بساطتهم السرور واي فرح اشرح لصدر حاضرهِ من ان يرى الرجل الفقير على فقرهِ وبساطتهِ(١) بين اولاده واقاربهِ وانسبائهِ وصحبه من جيرانهِ وغيرهم قائمًا بخدمة مدعويهِ . كما تكون امرأَتهِ كذلك بين النساء هاشة باشة بين صبيَّة وشابة وامرأَة وجدة تعتني بهنَّ ويعتنين بها والكل يخدم بعضهم بعضاً من حمل ملابسهم الى نقل مآكلهم الى رفع ما يغسلون بهِ ايديهم . لا تكليف بينهم بل كلهم في الفرح والسرور منغمسون . وان شاءت المدعوات الرقص ترقص اولاً لهنَّ ربة العرس وان شئن الغناء غنت في مقدمتهنَّ اذ لا يعكر صفائهنَّ سوى ارتفاع اصواتهنَّ وجهلهنَّ بالقناعة التي كثيرًا ما تخرجهنَّ الى

(١) البساطة مصدر بسط . وهي الدالة والسذاجة . فالرجل البسيط حسب التعريف اللغوي المتهلل الوجه الكريم اليدين الطاهر القلب الساذج الاخلاق العديم الدهاء

طريق الاسراف فتخرج بهن البساطة وسلامة النية الى الشره في الطعام والزهو في الملابس وفي انواع الفرش والآنية التي كثيراً ما يجمعون كثيراً منها حتى يضيق نطاق البيت ولو كان رحباً ذا سعة . مع ان اشياء كثيرة يمكن الاستعاضة عنها بشيء آخر نافع للزوجة عند الاحتياج

وامر الزواج لايتم من غير عقد يتولاه احد مأذوني الشرع الشريف ليقيده في دفتر العقود . ويسمع الاشهاد على الطلاق ان كانت الزوجة ثيباً او غير ذلك ان كانت بنتاً بكراً . ولا يكون ذلك الا بعد الاتفاق بين الزوج وولي امر الزوجة على الصداق الذي يدفع ثلثاه ويؤخر الثلث الباقي فاذا تم الاتفاق على الصداق بين يدي المأذون او سمع الاشهاد على الطلاق وحصلت عقدة النكاح حلت الزوجة للزوج شرعاً . واخذت العائلة في اعداد ما يلزم وقدمت الاقارب الهدايا امامهم قبل التوجه اليهم . وهذه الهدايا وان كانت مساعدة للزوج بحمل اثقال بعض المصروف ولكنها دين ووفاء يقوم به عند الفرص المناسبة لذلك ثم يبتدئ الفرح الذي كثيراً ما تدوم مدته اياماً عديدة قبل ليالي الحناء " والزفاف " فان العادة قبل ذلك ان يحيوا ليالي يدعونها " الضم " فيها الغناء والطبل والمزمار على فنون شتى الى ان يكون ليلة " الحناء " فيحيي اهل العروس ليلتهم على حسب مقدرتهم . ثم في ثاني يوم يستعدون " للزفاف " الذي يحضر في ليلته الزوج واهله لاخذ العروس لداره وفي هذا " الزفاف " تظهر حالتهم وتهذيبهم ومقدار ترقيهم " وفي الحقيقة مظاهر الجهل والحماقة " وفي مقدمتها المصارعون الذين هم عراة الاجسام . وما يسمونه بابن " رابية " وجماعته المشهورون بالخلاعة واحط اوصافها ثم من بعدهم جماعة الطبول ممن يسير على الارض وممن هم على جمالهم يقرعون الاذان ومن خلفهم " التختروانات " واحياناً كثيرة تجد جماعة ينشئون قهاوي الحشيش

على عربات النقل معرشاً عليها بسعف النخيل وغير ذلك مما هو دال فيهم على حب الهوى والميل الى التهتك وما يتميز منهُ المرء العاقل ويداري وجههُ خجلاً وحياءً .
لان في ذلك مدعاة لازدراء الغير بنا وحكمهم على مجموع الامة غنيها وفقيرها انها في منتهى الاسراف والتبذير في غير وقتهِ ومحلهِ . هذا ولا نذكر ما يحصل امام هذه " الزفف " من المشاجرات والمشاحنات وغيرها بين الشبان وبعضهم مما يؤدي احياناً كثيرة لتعكير الصفاء وما لا تحمد عقباهُ

غير انهُ اذا سلم الله ووصلت " الزفة " الى دار العريس تستقبل العروسة بالاحتفاء والتكريم والتحية والتسليم من جماعة الاهل والمعزومين " وتزف " العروسة ليلاً بنقلها من جهة الى اخرى داخل الدار . وبعد " الزفة " يوضعون لها وسادة في القاعة التي نقلت اليها اخيراً ويجلسونها ووجهها مغطّى بشيءٍ كثير من " التلّي " ومن اصناف الزينة والجواهر التي ربما تكون قدر اوقيتين او ثلاث او اكثر . ثم تتقدم " الماشطة " وتفرد على حجر العروسة " شاورة " مشغولة الاطراف بالمقصب وتقول " يا حبايب العروسة ومشطتها " فتتقدم ام العروسة وتلقي في " الشاورة " جزءاً من المال وبعدها يتقدم المعازيم ويحذون حذوها وكل يلقي على قدر طاقتهِ فيكون المجموع عبارة عن نقطة " للماشطة " وبعد ذلك تأتي " العالمة " وتفعل فعل الماشطة (١)

ثم تمد الموائد للمدعوين والمدعوات رجالاً ونساءً وفيما هم في وسط الاكل يجيءُ صبي الطباخ ومعهُ " زبديّة خضراء " او " مغرفة " ويوضعها في وسط المائدة فيلتزم الرجال والنساء ان " ينقطوه " كما سبق وتقدم بيانهُ وتنتهي الحالة بان

(١) اسباب جمع نقطة " الماشطة " هي انها تغسل للبنت من يوم ولادتها الى ليلة عرسها مجاناً طمعاً بما ينالها من " النقطة " في هذه الليلة

" يزف" العريس ايضاً بين صحبهِ واخوانهِ بالشموع وغيرها حتى اذا آب العريس من " زفتهِ" بسلام يصعد الى دارهِ فاذا عروسهُ مهيأة لقدومهِ فيدخل عليها ويقبلها وهي تقبل يدهُ وبعد ان يقدم لها هديةً كشف الوجه وتكون نقوداً على الغالب ويعطي " الماشطة حلوانها " يلف " الشورة " على اصبعهِ السبابة وهي خام بوبرها الخشن ويمسكنها لهُ " الماشطة " والاقارب . فاذا ما نعت او جفلت من مطلبهم يستنجد الزوج بهنَّ فيشددنها الى سريرها ويمسكونها قسراً بايديهنَّ من اليدين والرجلين ليتمم هذا الجاهل عادة يحسبها فخراً لهُ وهي في الحقيقة اهانة لهُ وضرر لزوجتهِ وربما كانت سبباً لشقائها الابدي فان كثيراً من النساء يصبنَ من هذه العادة بامراض عصبيةٍ ورحمية تقلق راحة المرأة طول حياتها . واقرب شيء تصاب بهِ العرائس من هذا الفعل الوحشي داء (الهستيريا) " الصرع " وسببهُ الجهل المطبق وتملك العادة وان شئت فقل سوء الظن في بكر يعلم الله انها مصونة العرض . واني اذكر ان عروساً ماتت في الصعيد وهي بين يدي عريسها الفظ الغليظ . وقرأت مرة في رسالة الاسكندريةً لاحد مراسلي الجرائد من امد ليس ببعيد ان العريس دخل على عروسهِ بهذا الشكل فكان آخر عهدهُ بها اول دقيقة من لقياها [1]

وعلماء الطب يقولون ان هذه العادة تكون سبباً للنزيف الدموي ولتمزيق الرحم فمن لنا بمن يعرف الفقراء ضرر ذلك بدلاً من تفهيمهم السياسة التي برعوا فيها حتى لا يتسببوا في مجلبة المرض . ولا يخفى عليك عيشة الازواج لو كانوا كذلك من قبل يحملون في اجسامهم الامراض والعاهات الخبيثة ويقدمون على الزواج قبل برئهم منها . لا شك انهم يلدون اولادهم وهم في حزن وغم دائمين فلا

(١) نحن لا ندري كيف تطرقت هذه العادة الينا معشر الاسلام. ولربما كانت مقتبسة من الدخلاء في الاسلام او من المصريين القدماء حيث لا تعرف الآ بين المصريين فقط

يكونون اصحاء او فيهم الاهليَّة لاعمال تنفعهم في مستقبل ايامهم ولا شك ان هؤلاء في عرف العقلاء اعظم الجناة فان جنايتهم تعم الهيئة الاجتماعيةّ ودون ذلك القاتل والمنتحر

اما المعيشة بين الزوجين الفقيرين فانها اما ان تكون دائمة لتماثل الطباع وائتلاف الامزجة واما ان تكون على ضد ذلك . فان كانت الاولى « وهي القليل» فراحة فطريةّ ومعيشة بسيطة يحسدهم عليها من هم اعلى منهم طبقة حتى الاغنياء . وان كانت الثانية فسكون شهر وقلق دهر — لاسباب كثيرة اهمها عدم معرفة الزوجة القيام بواجبات الزوج مع مراعاة الاحترام لوالدتهِ بنوع اخص واطاعتها في ما تأمرها بهِ . والاستسلام لاوامرها . وان كانت بغلاظة وفظاظة . ثم صغر سن الزوجة ودخول الجيران بينها وبين حماتها وغيرة الحماة على ولدها مشهور امرها . فتختلق الهفوات لها فتضربها وتشتمها وتسبها لاقل سبب واهٍ ولا تألو كلتاهما جهداً من اظهار الاسف والندامة ولعن الساعة التي فيها تناسبتا . كل ذلك يحصل يومياً بدون انقطاع فتربو بينهنَّ الضغينة والكره وتسوء العشرة في زمن قليل فتشكو الام لولدها زوجتهُ وتظهر لهُ نقايصها ومعايبها . وكذلك الزوجة تشتكي الحماة لزوجها فتسوء الحياة بينهم جميعاً ويتمنى كلاًّ منهم البعد عن صاحبهِ . ولا يخفى ان للنساء الضعيفات قوة عجيبة في الدهاء والكذب بهما يبلبلنَ الخاطر ويخفضنَ ما شأنَ في اعين من شأنَ . والرجل الصانع او المحترف الفقير لا تمييز عندهُ ليتلافى هذه الاسباب فيستسلم على الاكثر لارادة والديهِ لانهما هما اللذان زوجاهُ بمالهما فيرضخ لاشارتهما

فاما ان يأمراه بالطلاق فيطيع امرهما او بزواج زوجة أُخرى لتكيد

الاولى ولتكون سبباً لتنغيص عيشتها وهنا تكون سيطرة الجهل على الجهل(١) والفقراء في هذا القطر يميلون كثيراً للاكثار من الزواج وخصوصاً اهالي القرى منهم فان العامل الذي لا يكسب قوت يومهِ الاَّ بشق النفس يجمع بين زوجتين او ثلاثاً او اربعاً واذا طلق واحدة منهنَّ تزوج بغيرها على الاثر فتكثر عائلتهُ وتقل حيلتهُ وتفسد معيشتهُ فيعاملهنَّ بسوء المعاملة وخشونة الطباع حتى ان بعضهنَّ يتمنينَ الموت تخلصاً من شراسة الازواج(٢). وامر الطلاق صعب على النساء كما هو صعب على الرجال وعدم مقدرتهم على التصرف فيه بالحسنى يوَّدي بهم كثيراً الى الاضرار بعض ولهم في امور النفقة من الألاعيب الشيطانيَّة شيء كثير فتلجأ الزوجات المطلقات الى المحاكم الشرعيَّة وكثيراً ما تصدر الاحكام على الازواج بنفقات زوجاتهم واولادهم فتبقى حبراً على ورق ولا تنفذ لضيق ذات اليد. ومداخلات مأذوني الشرع في ذلك مما يستحى من ذكرهِ وعلى الاخص في تضييع حقوق المطلقات

---

(١) من الروايات المحزنة حكاية امرأة حكمت عليها محكمة لاسكندرية بالسجن ١٥ سنة وقد كانت هذه المرأة زوجة فلاح من مديرية البحيرة وللرجل زوجة أُخرى فطلق احداهنَّ يوماً ثم خطر في بالهِ ان يعيدها الى بيتهِ فخافت ضرتها من المناظرة والمسابقة وجعلت تدس الدسائس حتى اذا احست المطلقة بتدابيرها عمدت الى الانتقام منها بوضع شيء من السم في حلوى اعدتها واهدتها لابن الضرة فأكل الولد الحلوى ومات وارادت الثانية ان تنتقم من خصيمتها المطلقة فدست السم في نوع من الحلوى ايضاً وقدمتهُ لابن عدوتها فاكلهُ ومات ايضاً فالقت الحكومة القبض على الجانيتين وحكمت المحكمة على المطلقة بما ذكرنا لانها اقرت بذنبها ولكنها برأت الثانية لانهُ لم يثبت عليها شيء. وهذه الحكاية المؤلمة بموت الولدين وسجن احدى الزوجتين عمراً طويلاً علتهُ زواج الاثنتين وسيطرة الجهل على الجهل

(٢) حدث في سنة ١٩٠٠ في جهة الدرب الاحمر بالقاهرة ان امرأة اشترت جانباً من الكبريت واذابت رؤوسهُ في الماء ثم تعاطتهُ ولما ادركها الطبيب وسألت عن قصدها قالت انها تقصد ان تريح نفسها من سوء معاملة زوجها لها

هذا وفي النساء المطلقات الفقراء حدثت بدعة ترك ازواجهن متى شئن ذلك وهن ليطلقن انفسهن بانفسهن غير منتظرات طلاق الرجل لهن ولداعي قلة الصداق بينهما تبرأ المرأة منهن رجلها وتحمل عفشها ذاهبة الى حيث شاءت وهذه العادة انتشرت بينهن كثيراً ولا رادع لهن من رجال الشرع . وكثيراً ما تمكث احداهن مع هذا اسبوعاً وتبرئه ومع ذاك اسبوعاً وتتركه عابثات بالشرع عابثات بالدين مجلبات للسخط والعار على الامة بفعالهن

ولمعترض يقول كيف يكون ذلك الزواج شرعي وهو لا بد من وقوعه على يد مأذون الشرع . فنقول ان لماذوني الشرع تحليل بذلك وهو ان يتفق مع الزوج والزوجة على كتابة العقد بينهما على يد جماعة من الاسافل ولكن لا يثبته في دفتره الا بعد مضي ايام (العدة). كما حدث ذلك في جهة باب الشعرية من مدة سنة وجهة بولاق من سنة ونصف. ولا يقتصر ضرر ماذوني الشرع على ذلك واليك قصة حدثت في حي من احياء العاصمة . وهو ان ماذوناً شرعياً عقد نكاح امرأة على رجل على صداق دفع عاجله وبقي في ذمته آجله وبعد قليل من الايام قابل المادون رجلاً آخر يهوى المرأة وترامى على قدميه بعد تقبيل يديه شاكياً باكياً مما في قلبه من الهيام والوجد. وطالباً منه ان يرفق بحاله فاجابه المادون لا باس عليك ان صليت على النبي (يعني بذلك طلب الحلوان) او وحدت الله (يعني بذلك ان يحافظ على السر حفظه على توحيد الله) فوعده واغلظ في اليمين انه لا يبوح بالسر ولا يمين فساومه الماذون حينئذٍ على المبلغ المطلوب فاعطاه اياه ثم عقد له عليها فاصبحت المرأة زوجة لرجلين فوقع النزاع واخذ كل منهما يشكو حاله وبلغ الامر المحكمة الشرعية وما فعل الماذون فاستدعت الرجلين والمرأة وسمع القاضي حكايتهم

وبعد ما افرغ القاضي ما في جعبتهِ من الوسائط الشرعيَّة اجاز للمرأة ان تختار احدهما زوجاً لها من الاثنين فاختارت من تهواهُ ويهواها [١] . وكان جزاء المأذون اخذ الدفتر منهُ وتوقيفهُ عن العمل . حصل ذلك في العاصمة واقبح منهُ ما حصل في اواخر شهر نوفمبر في الاسكندريَّة حيث تزوجت وطنيَّة برجل من هالي « حارة الراكشي » وبعد الزواج وجد ان الزوج خدعها بتواطىء مع مأذون الشرع وحقيقتهُ انهُ مسيحي فرفع الامر الى فضيلة القاضي هناك ليفصل اشكالهُ. وارذل من ذلك يتكرر كثيراً في القرى والبنادر بفضل المأذونين

وقد جاء في عدد ٣٤٥٧ من المؤيد الاغر الصادر في يوم الاربعاء ٢٧ جماد الاولى سنة ١٣١٩ في رسالة مكاتبهِ بملوي ما ياتي بالحرف الواحد — بلغ من بعض مأذوني الشرع المفسدين انهُ عقد لرجل على امرأة بعدان طلق ابنتها التي كان تزوج بها ومضى على هذا المنكر السيء ثلاث سنين ولدت المرأة فيها ولداً ولما سئل الرجل عن ذلك ادعى انهُ يجهل حرمة هذا الامر والقضيَّة منظورة بالمحكمة الشرعيَّة

ولقد حقق لنا تواتر السماع ان كثرة الطلاق الفاشية جدًّا في قطرنا السعيد دون قيد تقريباً هي التي تحمل كثيرات من المطلقات الفقيرات على اذلال النفس وارتكاب السوء فيطنَ للتكفف في الطرق العموميَّة . او يضطررن الى سلوك سبل الغواية ودخول بيوت الفجور . وليس من دافع لهنَّ الَّا الفقر والجوع . وبهذه

(١) ومن المضحك ان احد اهالي "سنباط" حضر الى المحكمة الشرعية مستفتياً بانهُ يعشق امرأة هي زوجة لاحد اصدقائهِ الذي هو مفتون بزوجتهِ وقد اتفقا على ان يتنازل كلاهما للآخر عن زوجتهِ على هيئة بدل وعوض الَّا ان زوجة المتظلم حاملة ويرغب عوض حملها "حمارة" زيادة على زوجة المبادل بها فهل يجوّز الشرع اجراء هذا البدل ام يمنعهُ فضحك عليهِ المسؤول . وهذا يدل دلالة صريحة على تقدير المرأة في نظر عامة المصريين — انظر جريدة الوطن ٦ مارس سنة ١ ٩ عدد ١٩١٩

الواسطة يهملن اولادهن في الطرق والشوارع فيربون على المبادىء الدنيئة والاخلاق الفاسدة وتقوى فيهم الرذيلة وحب الشر فيخرج منهم المتشرد واللص والقاتل وغيرهم من محاربي الهيئة الاجتماعية

وقد تنبه رجال الضبط والنيابة العمومية الى كثرة المتشردين الذين لا عمل لهم والمهملين من الاحداث في هذا القطر فقاموا يعالجون ذلك بسن اللوائح للمتشردين وانشاء السجون للاحداث [1] وغير ذلك مما فيهِ مقاومة الضر وتقليل الشر . ولكن فاتهم ان الشفاء الحقيقي من هذا الداء لا يكون الاّ باستئصال اسبابهِ ولا يتم ذلك الاّ بمنع الفقراء من جمع عدة نساء في عصمة واحدة ما داموا لا يستطيعون الانفاق عليهن خصوصاً وان ضرر ذلك لا يقتصر على الازواج واولادهم بل يلحق الهيئة الاجتماعية كلها . ولقد احصى بعضهم الاحكام الشرعية التي صدرت على الازواج بنفقات زوجاتهم واولادهم فوجد ان ما نفذ منها لا يزيد عن ثلاثة او اربعة في المئة والباقي بلا تنفيذ لعسر المحكوم عليهم وشدة فقرهم وعوزهم

ولا تظنن الطلاق الذي هو اكره الحلال عند الله قليلاً نادراً فقد ذكر القاضي الفاضل قاسم بك امين في كتابهِ "تحرير المرأة" ان كل اربع زوجات في مدينة القاهرة ليطلق منهن ثلاث . فهذه حال الزواج والطلاق بين الفقراء في هذا القطر وقد ادرك حضرة مولانا الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده اضرار ذلك ونبه عليهِ في تقريرهِ عن اصلاح المحاكم الشرعية باقوال يجب ان تسترشد الحكومة والامة بها في رتق هذا الفتق فقال ما نصه "انني ارفع صوتي في الشكوى من

(١) سجن الاحداث ببولاق في ارض مجاورة للنيل عدد من فيهِ ١٣٠ ولداً يتعلمون فيهِ القراءة والخط والحساب والقرآن الشريف وصناعة الجلود والنجارة والحديد والصفيح وحبذا لو انشئ مثل هذا السجن في الاسكندرية ايضاً وباقي عواصم المديريات .

كثرة ما يجمع الفقراء من الزوجات في عصمة واحدة فان الكثير منهم عنده اربع من الزوجات او ثلاث او اثنتان وهو لا يستطيع الانفاق عليهن ولا يزال معهن في نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية ولا يزال الفساد يتغلغل فيهن وفي اولادهن ولا يمكن لهُ ولا لهن ان يقيموا حدود الله وضرر ذلك بالدين والامة غير خافٍ على احدٍ " ثم وصف العلاج الشافي من ذلك فقال حفظهُ الله" واما الضرر الذي ينشأ من كثرة الزواج التي ولع بها الفقراء من سكان القرى وهو من الضربات المعطلة لاعمالهم المفسدة لشؤونهم وشؤون اعقابهم فأرى لتلافيهِ ان يلزم كل مأذون ان يسأل قبل عقد زواج اي شخص غير معروف بالثروة هل لهُ زوجة اخرى . فان كان لهُ فما هي الطريقة في الانفاق على زوجاتهِ واولادهِ ويثبت جميع ذلك في ورقة العقد ثم يحدد حدٌّ معين من الثروة لمن يتزوج اكثر من واحدة متى كان غير معروف بانهُ من اهلها على انهُ لو ذكر في كل عقد من عقود الزواج وسائل معيشة الزوج من كونهِ صاحب ملك او تاجراً او صانعاً او عاملاً كان ذلك ادعى الى تضييق دائرة الضرر ولا شيء من اصول الشريعة يأبى ذلك وهو من قبيل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا احق بهِ من القادر عليهِ والحاكم هو اقدر الناس عليهِ

ومن المعلوم في احكام الشريعة انهُ متى تحقق ان الزوج لا يستطيع الانفاق على زوجتهِ وان الزواج يفسد امر معيشتهِ ويلجئهُ للخروج عن الحدود التي حددها الله لهُ حرم عليهِ الزواج بلا خلاف فاذا وضعت لذلك قواعد وجب ان يراعى فيها جميع ما نصت بهِ الشريعة المطهرة وما يقر عليهِ رأي علمائها " فحبذا لو تعير الحكومة هذا النداء اصغائها وتسعى مع علماء الدين في تدبير حميد يقي الامة والبلاد غائلة هذه الآفة التي تعاظم شرها وتفاقم ضررها

الفقراء واطفالهم

اذا تماثلت الطباع وأتلفت الامزجة بين الزوجين الفقيرين ولم يحل بينهما الطلاق المتقدم ذكرهُ وتعدد الزوجات المتقدم بيانهُ عمرًا الى ما شاء ربك وانتجا الذريّة فيلدون اولادهم ضعافاً مهازيل فلا يعيشون الاَّ وتظهر عليهم علامات الكساح او يهلكون صغارًا لعدم الاعتناء بهم الاَّ اذا وهبوا قوة المقاومة وفازوا على الامراض واسباب ذلك وعدم الحنو عندهم على الولد عدم العناية بهِ لديهم الاَّ بالخرافات فان الوالد لا عناية لهُ بولدهِ حال طفوليتهِ والمتصرفة فيهِ هي أمهُ تختار لهُ الاسماء عند تسميتهِ وتطببهُ ان مرض وتقمطهُ وترضعهُ اذا عرى او جاع وهذه الام لاجل تسميتهِ تحضر ليلة الاسبوع ثلاث شمعات وتسمي كل شمعة باسم خاص وتنيرها ليلاً وفي الصباح تسمي ولدها على اسم الشمعة التي تكون قد بقيت اكثر من غيرها . ثم توضعهُ في (غربال وتحتهُ شيءٌ كثير من الحمص والبندق) وتغربله ولا ندري ماذا يلحقهُ من جراء ذلك فنترك ذلك التشخيص لرجال الطب ليبدوا ملحوظاتهم فيهِ

تعليم الام ولدها الكلام

متى ابتدأ انتباه الطفل قليلاً لما حولهُ تبتدي تعلمه أمه الكلام بالفاظٍ بذيئة قبيحة يشب عليها وينمو وتكون سبباً لتأصل الاخلاق والصفات القبيحة فيهِ ومدعاة لميلهِ الى الرذيلة

تخويف الامهات لاولادهم

اذا بكى الولد او اراد النزول من السلالم ليلعب خارج البيت تخوفهُ أمهُ وتحذرهُ من (السماوي) والمغربي لئلا يأخذهُ عندهُ ليعلقهُ من رجليهِ فوق

دست ماء يغلي على النار ويصفي دمهُ « وقصدها بذلك عدم ابتعاد الطفل عن البيت لئلا (يتوه) . ومع ذلك فاولادهم (يتوهون) بكثرة ويطلقون وراءهم المنادين او يبلغون عنهم رجال البوليس [1] » وتحذرهُ من انهُ لو ذهب الى البحر يبتلعهُ التمساح (وتريد بذلك عدم تعويد الطفل على الذهاب الى البحر خوفاً عليهِ من الغرق) ولا يخفى ما ينتج ذلك من الجبن على النفس . والجبن عرّفهُ الفضلاء بانهُ انخذال في النفس عن مصادمة عارض لا يلائم حالها والفقراء لا يتحدثون امام اولادهم الاَّ في النوادر المخيفة ومدار حديثهم على (العفريت) (والمارد) (والمزيرة) وما اشبه . فما يقولونهُ على (المارد) انه يظهر ليلاً للانسان ويسد عليهِ اربع جهات طريقهِ بحائط . وما يقولونهُ عن (المزيرة) انها جنيَّة وكل اجسامها ابر ومسامير وتظهر بزي امرأة جميلة مزينة بالحلي ومرتدية إزاراً ابيض كالثلج اذا قرب منها الانسان تضمهُ اليها وتخنق بهِ . وما يقولونهُ عن (العفريت) فشيء كثير كنا نتخوف منهُ حال الصغر ونسمع ان اشكالهُ متنوعة فتارةً يظهر شبه حمار

(١) جاء في تقرير سعادة هرفي باشا عند ما كان حكمداراً للعاصمة ان عدد البلاغات التي قدمت في سنة ١٨٩٩ م ٢٩٥ وجد منهم ٧٤ قبل تحرير ارايك البحث عنهم و ٢٢١ بحثوا عنهم فما وجدوا سوى ٤١ والباقين ١٨١ لم يعثر عليهم وفي التقرير المذكور حادثة منها يتبين مقدار الصعوبة التي يعانيها البوليس في الاستقصاء عن اقارب هؤلاء الاولاد وهذه الحادثة هي . ان بنتاً عمرها اربع سنوات وجدها البوليس في بولاق فبعد البحث عن اهلها عدة ايام استدل على والدتها التي كانت ساكنة في فم الخليج فلما جيء بها الى المحافظة انكرت معرفتها بالبنت كلية ولكن لما ادخلت البنت في المكان الذي كانت والدتها بهِ ورأتها اسرعت اليها وتعلقت باذيالها فدفعتها المرأة وادعت انها لم ترَ البنت المذكورة من قبلُ واخيراً لما استحضرت تلك المرأة امام سعادة المحافظ وصار تهديدها اعترفت بان البنت هي ابنتها . ويظهر ان المرأة المحدث عنها كانت تزوجت حديثاً ولامتناع زوجها الجديد عن قبول البنت فعلت ما ذكر مرضاةً لخاطرهِ

عال ابيض فيركبهُ الانسان حتى يعلو بهِ ثم يقذفهُ من فوق ظهرهِ فيسقط على الارض مهشماً . وتارة انهُ شبه قط او كلب او قربة · و بعضهم يقول في وصفهِ انهُ اسود كالليل طويل القامة وعيناهُ بالطول يقدح منهما الشرر

بهذه الخرافات التي يخوف بها الوالدين اولادهم ينمو في اذهان الصغار الجبن والخوف والرعب حتى انهم لا يمكنهم الانتقال ليلاً ونهاراً خطوة الاّ مع احد خوفاً من حادث يفزعهم ولو كان شخصاً مقبلاً عليهم من بعيد كما حدث ذلك في السنة الماضية في حي من احياء العاصمة [1] ولا يقتصر تخويفهم اولادهم ساعة دون أُخرى بل قد يخوفونهم وهم يأكلون معهم · ومن ذلك ان لو خطفت القطة من امامهم شيئاً من الأكل وقت العشاء واحب الولد ان يضربها يمنعونهُ من ذلك و يفهمونهُ ان ضرب القطط ليلاً مضر بهِ لزعمهم ان روح القطط مفصول من روح الملائكة · واغرق من هذا في الوهم والخرافات انهُ ان وقع الطفل على الارض سمت عليهِ امهُ وسمت على اختهِ معهُ مفهمة اياه ان لهُ اختاً من بنات الجان

ولهم خلاف ذلك خرافات كثيرة في ليالي المواسم فمن ذلك ما يتحدثون به ليلة العشر من شهر محرم · من انهُ تهبط بغلة من السماء حاملة الجنيهات لصاحب النصيب فيأمر الاب ابنهُ والام بنتها بدعوى الله لتكون من نصيبهم فيحلم هؤلاء احلاماً يقصها بعضهم على بعض في اليوم التالي ولسان حالهم في الحقيقة يقول

اذا صدق الجد افترى العم للفتى مكارم لا تخفى وان كذب الخالُ

(١) حدث في شهر نوفمبر سنة ١٩٠٠ ان خرجت ابنة صغيرة من سكان (حارة الروم) لتشتري شيئاً مع ابنة أُخرى فشاهدت اثناء سيرها رحلاً سقاء ذا شعر طويل مدلى فخافت منهُ البنت واسرعت بالعدو واختفت منهُ في منزل فاتفق انهُ دخل ذلك المنزل فلما رأتهُ هذه المسكينة انذعرت وارادت الاختفاء في مكان فسقطت في بئر المنزل وفارقت الحياة وذهبت ضحية خوفها الذي تربت عليهِ من الصغر بفضل ابائها

وهذه الخرافات تسبب للاولاد احياناً كثيرة الامراض العصبيةً والتشنج اذ لا يخفى تأثير الوهم والخوف على النفوس الصغيرة . اذا عرفنا ذلك وتذكرنا يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٩ الذي تنبأ فيهِ بعضهم بانقضاء العالم لا نستغرب خوفهم ووهمهم الذي حدث وتقوُّلهم الكذب في احياء الوطنيين . فقد روي عن كثيرين من الاقاصيص التي صورها لهم الوهم شيء كثير من فطير نطق في الفرن وطفل ابن يومهِ ابتلع فرخة قبل طبخها وآخر اعلم والدتهُ بصحة النبا وآخر (جادل القاضي مع والدتهِ بطلب النفقة من ابيهِ) الى غير ذلك مما يدل على استيلاء الخوف والوهم على النفوس بسبب التربية المنزليةّ التي ربوا عليها ووجدوا فيها ممتلئي الرؤوس بالوساوس والخرافات

هذا ونختم قولنا على خرافاتهم باعتقادهم حال خسوف القمر وتشاؤمهم من ذلك فانهم يأمرون اولادهم بالقرع على غطاء الحلل والصفايح[1] والشمس ايضاً هي على زعمهم يجرها الملائكة على عجل وهم مسخرون لهذا الامر وانها تغرق في البحر فيبتلعها الحوت

« اهمال نظافة ابنائهم »

الفقراء يتركون اولادهم في الحارات والازقة يتضاربون ويهملونهم الدعارة والعبث بكل ما تصل اليهِ ايديهم . انظر اليهم في الحواري والطرق تجدهم يتمرغون في التراب ويعفرون بهِ بعضهم البعض . حتى اذا اصيب احدهم برمد صعب الاستئصال تعلق الام على عين الابن خرزة حمراء يسمونها (البذلة) . واكثر

(١) يحكى ان فلكياً انبأ احد الامراء عن خسوف القمر في ساعة معينة فلم يعتقد بنبأهِ واتهمهُ بالزندقة والمروق وتوعدهُ بالموت ان كذب خبرهُ وبجزيل العطاء ان صدق نبأهُ فلما خسف القمر كان الامير نائماً فاراد حيلة لايقاظهِ ليشهد لهُ بصحة نبإهِ فقال للناس ان الحوت يبتلع القمر فاضربوا الطبول وضجوا شديداً ليجفل و يعود عن الكوكب فلما بدأ صياحهم وعلت ضجتهم استيقظ الامير ورأى القمر مخسوفاً فكافأ الفلكي والله اعلم

الامراض في الاطفال مسبب عن قذارتهم حتى ان الطفل يصاب بامراض عدة وهو دون الحول من العمر وقد اثبت الاحصاء ان اكثر من تسعين في المئة من هؤلاء الاطفال يصابون بامراض العيون عن غير سبب سوى اهمال النظافة اهمالاً تاماً لجهل الام وخوفها عليهِ من شر العين فيقع في مرض العين

ومن يتأمل في معدل الوفيات في بلادنا المصريَّة يجد ان اكثر من نصيبهُ المنايا من الصغار فتذهب بهم قبل ان يدبوا بارجلهم على الارض . ومن قابل بين هذه الوفيات في بلادنا وبين جميع بلدان العالم وجد ان الموت لهُ الى اطفالنا طرق ومسالك قلَّ ان يجدها في بلاد الله الاخرى ومن بحث عن الاسباب ونقب عن العلل الناشئ منها موت الاطفال الذين ربما كان في القماط منهم من يحمي الرباط لوجد اسباب ذلك وعلتهُ جهل عامة الامهات بابسط القواعد والقوانين الصحيَّة في مساكنهم التي كثيرًا ما يبتدئ المرض منها وينتشر الى البيوت الاخرى حاملاً الموت على منكبيهِ واذ دققنا النظر في عدم نظافة بيوتهم نراها على الاغلب من اهمالهم للنظافة وعدم اعتنائهم بمائهم وهوائهم والاَّ فلو كانوا مهتمين لانهزمت جيوش الامراض والاسقام من بينهم ولاعتدلت صحتهم وآمنوا شر الامراض والحميات التي تطحن اجسامهم واجسام ابنائهم وكفانا تعريفاً عن مساكن الفقراء انها اكواخ حقيرة من الطين قد تراكمت حولها الاقذار وتلبدت على ارضها وجدرانها الاوساخ وهامت الهوام عليها كأنها مزبلة من المزابل واولادهم لهذا السبب صفر الالوان كبار البطون اكتسوا من الوسخ وشاحاً[1] وكلما كثرت الوساحة

(١) ومن الغريب في اغنياء مصر انهم يجاورون هذه المساكن بقصورهم المتيدة وينظرون كل ساعة للفقراء وهم بهذه الحالة ولا تأخذهم رحمة بهم كأن هؤلاء ليسوا من لحم سكان القصور ودمهم. او بالحري كأن قد عدمت الانسانية منهم فهم لا يتأثرون . ولو علموا الواجب لبنوا للفقراء مساكن صغيرة صحية بدلاً من تشييد صروح فخيمة تسكن شهراً وتهجر دهراً

ساءَت الصحة فساءَت الاخلاق . واجسام الفقراء قلَّ ان يبللها الماء فتتراكم عليها الاوساخ ايضاً والادران [1] حيث يجد من وراء ذلك لهم الثقل في البدن والضعف في الادراك والفهم وزد على ذلك وسخ الثياب فانها ايضاً مجلبة للامراض والخمول والصداع اذ هي اعظم واسطة لانتقال المرض من واحد لآخر مثل الحمى القرمزيَّة فانها تنتقل الى العائلة بثياب المرضع وكذلك الجدري والتيفوس

نسأَل الله ان يقرب الايام التي يشعر فيها الفقراء بلزوم التغلب على الفقر بالمعرفة حتى تسعد اوقاتهم · ويصبحوا ساعين في تهذيب انفسهم وتعليمها ما ينفع وما يضر ويعلمون (ان النظافة من الايمان)

تطبيب الامهات الفقيرات

لاطفالهنَّ

الاولاد وهم في سن الطفوليَّة معرضون لجملة امراض تنتابهم من وقت لآخر . غير ان الاعتناء بهم يخفف ويلاتها عنهم اذا لم يكن يمنعها بالكليَّة . وهذا الاعتناء تختلف الطرق المؤَدية اليهِ والوسائل التي تستعمل للوصول الى هذه الغاية باختلاف عوائد الامهات ومعارفها الَّا انهُ بقدر عناية الام بولدها حسب ما توجبهُ حالتهُ بقدر ما تخف وطأَة المرض عليهِ حتى يزول بتمامهِ · وعليهِ نرى ان اهل اليسار لا

(١) يظهر مما كتبهُ الفرنساويين في خططهم ان عدد الحمامات التي كانت موجودة لوقتهم تزيد على المئة والآن لا يوجد بالقاهرة سوى ٥٠ حماماً وهذا بالنسبة لما بلغتهُ المدينة من الانساع وزياد السكان قليل جدًّا · وقد ذكر المسيحي في تاريخهِ ان العزيز بالله هو اول من بنى الحمامات في مصر وقال الشريف اسعد نقلاً عن القاضي القضاعي انهُ كان في مصر الف ومائة وسبعون حماماً وكان اغلب هذه الحمامات موقوف على الفقراء · و باهمالها تخربت وتصرف فيها الملاك واستعوضت بمبانٍ أُخرى (خطط علي مبارك باشا) (جزء اول وجة ٩٥)

يعتري اولادهم المرض بقدر ما يعتري اهل الوسط واهل الوسط لا يكون المرض بين اولادهم منتشرًا كما هو بين الفقراء . وعلى الانسان بقدر طاقته ان يتحاشى كل سبب من شأنهِ احداث المرض وما ذلك بعسير اذ كل انسان ميالٌ بالطبع لدفع ما يؤذي و يؤلم . اما اخواننا الفقراء فانهم حقيقة يخافون المرض ولكن لا يعتقدون بطب ولا طبيب بل جل اعتمادهم في مداواة انفسهم مبني على علم معروف عندهم اسمهُ (علم الركة) وهذا كله مستوصفات منها النافع والضار . وفي كل مداواتهم للامراض يعتمدون على الوهم والظن لا على الحقيقة . مثلاً يوجد بين النساء الفقراء معتقد وهو اذا مرضت اطفالهنّ وحكوا انوفهم فيزعمنَ ان في رؤوس اطفالهنّ ديدان فيستعنّ في اخراجها برجل عالم عندهنّ يمرُّ في الحواري صارخاً بقولهِ (يا فرج) اذا احضرنهُ يرقي الاطفال على زعمهِ ويمرُّ براحتهِ على وجوههم فتتساقط الديدان من انوفهم واذانهم . والحقيقة ان ذلك خزعبلات يموه بها على عقولهنّ لاخذ اموالهنّ وقد تكون الديدان بين اصابعهِ او في كمهِ وقد ادخرها هناك ليلقيها وهو يمرُّ براحتهِ على جبهة الطفل

وكثيرًا ما يصاب الاطفال (بالسعال الديكي) والشهقة فيصف النساء لبعضهنّ ان يأخذنهُ الى جزار ابن جزار لكي يموه عليهِ بجر المدية على عنقهِ فيشفى اما الحقيقة فيعلمها العقلاء والاطباء [1] ولا يخفى ان الاطفال معرضون في صغرهم للحصبة والجدري والحمى التيفوسيَّة او القرمزيَّة فاذا كان شيءٌ من ذلك واعتمدنَ في شفاء اولادهنّ على تجاربهنّ ولم تنجح اشرنَ على بعضهنّ البعض بان يزور

(١) ورد في مجلة (طبيب العائلة) جزء ٨ سنة ٥ ان الشهقة ويسميها العامة (الزغطة) فعل عضلي عصبي خارج عن سلطة الارادة مركزهُ الخيوط الصوتية للحنجرة وهي تاتي بدون علة ولا سبب وتضايق صاحبها كثيرًا بل كلما اظهر تضايقهُ منها زاد فعلها

الاطفال ثلاثة اسابيع متتالية (الطاقة) التي في مقام اولاد عنان (رضي الله عنهم) وهناك اي في اولاد عنان (طاقة) صغيرة يدخلنَ فيها اولادهنّ كل يوم (سبت) لا فرق بين رضيع وفطيم وبعد دفع الرسوم لشيخ المقام يقرأ عليهم ما يأتي بصوت جهور

«يا بركة الطاقة وما فيها تشافيه وتعافيه وان كانت سس تمعوها وان كات كفية تزيحوها وان كانت مشاهرة فكوها يا عنانية تشفعوا له بالشفا والعافية تحفظ بدلك (يا محمد) (مثلاً) قوم هات العافية في كمك واجري كلم امك»

وفي هذا المقام قبلة مهجورة ايضاً يقرأون فيها على الاولاد ما يشبه هذا الكلام وكذلك يوجد بئر (١) يقولون ان بها وليه تدعى ستي سكرة يلقون فيها قطعة من السكر و يقرأون مثل ما تقدم ويداوم الطفل على الحضور ثلاثة سبوت وفي الثالث يلقون بملابسهِ القديمة في الميضة و يلبسونهُ أخرى غيرها جديدة . ولا يخفى على العاقل فتك الحمى وعدواها والحصبة والجدري فان علماء الطب قرروا ان هذه الامراض مستعدة للعدوى من اقل سبب ولربما ظن القارئ ان الذين يذهبون من النساء باولادهنّ عددهنّ قليل . اما نحن فنقول ان اللواتي يذهبنَ الى ذلك من النساء كل يوم سبت من المسلمات والمسيحيات (الاقباط) لا يقل عددهنّ عن المائتين او الثلاثة مئة يحضرنَ راكبات عربات النقل وراجلات على الاقدام من اطراف العاصمة افواجاً . وعندنا ان ذلك سبب مهم في جلب العدوى لاولادهنّ من حيث لا يشعرنَ ولا الحكومة تشعر بذلك . فحبذا لو خصص الاوقاف من امواله الكثيرة جزاء و بنى مستوصفاً لهؤلاء الاولاد في جانب هذا المقام الشريف حتى تطبب فيهِ الاطفال مجاناً والاّ فتكون الحالة المتبعة الآن سبباً يدعو بالاطفال الى الموت عاجلاً والى العدوى وانتشار الامراض فيهم

(١) كان لاخواننا الاقباط الارثوذكس بئر مثلها في كنيسة العذبوية بالقبيلة فابطلتها جمعية التوفيق

وانتقالها من حي الى حي مما لا يرضي هؤلاء الاسياد . والله يعلم ان اولياء الله كانوا يعملون بالحديث الشريف (الناس عيال الله واحبهم اليهِ انفعهم لعيالهِ) ومن تأمل فيما قلناهُ يرَ ضرورة بناء المستوصف بجانب المقام رحمةً بعباد الله ورحم الله من سهل للفقراء راحتهم في ضيقهم وشدتهم

تعليم اولاد الفقراء

كم من صبي ولد فقيرًا لا ذنب لهُ في قلة تربيتهِ وتعليمهِ الاَّ الفقر الذي نشأ فيهِ اذ كان قد وهب النباهة والادراك فقد اهملت فيهِ هذه المواهب . وان لم يكن وهبها فهو لم يستعض عنها بشيء من العلم . ترى ذلك بلا مشقة في الامة المصرية الفقيرة حال مرورك في الشوارع بين ابناء امتك المهملين تربية وتعليماً ولقد انبأنا التاريخ ان كثيراً من الفقراء الذين لم يفتهم حظ العلم قد شبوا نافعين لأُمتهم ووطنهم وخدموا بلادهم الخدم الجليلة . كما ينبئنا البحث ان العقل يبدو كزهرة صغيرة فاما وسائط تنمو بها وتكبر ويضوع عبيرها . واما اهمال تضعف بهِ فتذبل وتسقط الى الحضيض القِ نظرك نحو اولاد الاغنياء والفقراء وهم في المدارس فترى الاولين متأخرين غالبًا والآخرين متقدمين يسابقونهم على احراز العلم والفهم ذلك لان الفقر الذي هم قائمون فيهِ يربي فيهم ملكة الاعتماد على النفس في المطالعة والدرس بخلاف اولئك الذين اكثر ما يعتمدون على الوسائط والجاه. والاولاد الفقراء عندنا ذوو استعداد احسن لقبول العلم لانهم لم يتعودوا عيشة الرفاهيَّة والدلال . وللدلال كما لا يخفى سلطان على اولاد الاغنياء واي سلطان. مثبط للهمم في نضارة العمر حائل بينها وبين ما يسمى التفات واكتساب من كل ما يمر بالشخص في المدرسة او البيت او السوق ومع علمنا الاكيد لتلك المزايا لاولاد الفقراء . فاننا لا نجد

لهم من المدارس ما يسد احتياجهم وغاية ما هنالك منها بعض مدارس للجمعيات الخيرية كالجمعية الخيرية الاسلامية [١] وجمعية العروة الوثقى والمساعي المشكورة و بعض مدارس للاميركان والفرير و بعض المحسنين [٢] من الذين هزتهم الاريحية لتعليم اولاد الفقراء مجاناً . وما عدا ذلك فلا يوجد ثمة مدارس للفقراء بل يوجد لهم كتاتيب واحدها المكتب او الكتاب وهو عبارة عن قاعة ارضية حقيرة لا تصلح الاّ لايواء البقر او الحيوانات الاخرى يجمع فيها العريف او الشيخ كل يوم صباحاً صبية اطفالاً من الحواري والعطف لتعليمهم على زعمهِ وعلى زعم الآباء للخلاص من جلبتهم ولعبهم في البيت طول نهارهم فيجلس التلامذة ومعلوهم في حالة سيئة ركاماً فوق بعضهم ولو كانوا يفوقون الستين عداً . على ارض رطبة قذرة لا منفذ لتجديد الهواء فيها . حتى ان الرائي قد يظننّ لاول وهلة انهم جماد رص في قاعة لحين الحاجة اليهِ لولا صراخهم الذي يبعد الظن و يقرب الى الذهن انهم مخلوقات فيهم دم الحياة وطيب الروح . واكثر الكتاتيب لجماعة المسلمين منا وما بقي من الطوائف فليس لهم الاّ النزر القليل منها

واجرة تعليم هؤلاء الاطفال كل يوم رغيف من العيش وجزء من عشرة من القرش يأخذ نصفها او اكثر العريف او الشيخ وما بقي فطعام الطفل فطوراً وغذاء ساعة الظهر . اما الحقيقة عن اجرة تعليمهم فما يتحصل من تشيعهم الجنازات

وفي هذه الكتاتيب يتعلم الطفل جزءاً من السور الصغيرة من القرآن صباحاً

(١) عدد مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية اربعة لا غير تلامذتها كانوا لغاية السنة الماضية ٣٥٣ منهم فقط ٣٠ دفعوا الاجرة والباقون مجاناً لولا فضل الجمعية لما حصلوا على ثمرة من العلم فاذا كان هذا ثمرة الاربعة مدارس فكم يكون لو عضدها ذوو اليسار باموالهم

(٢) كالمرحوم الخواجه رفله عبيد الذي اوقف على المدرسة العبيدية الفين وخمس مئة فدان وجعل فيها التعليم مجاناً

عن ظهر قلب والاوراد والادعية فيما بقي من النهار . وليس تعليمهم من العريف او الشيخ بل من بعضهم البعض الاَّ من خشي الشيخ سطوة اهلهِ وتعنيفهم . فان ذلك يتلقى تعليمهُ من العريف مباشرة او من ولد متقدماً عنهم قليلاً وما سوى ذلك فمهمل . والولد الذي يُوكل بتعليم جماعة لنباهتهِ قايلاً في زعم العريف لهُ السلطان المطلق على الاولاد كلها فيقضي طول نهارهِ يلطم هذا وينهر ذاك ويخز الآخر او يوغر قلب العريف عليهِ ليضربهُ في " الفلقة "[1] ولذا من صالح الاولاد مسالمتهُ حتى لا يضايقهم بل يلعب معهم طول نهارهم في عمل ما يسمونهُ الاطفال (فريرة او حبك خوص النخيل بما يسمونهُ (بيت النمل) او حبك دوبارة الحصر الجالسين عليها بايديهم وارجلهم وكثيراً ما يجلس جماعة منهم في ناحية من المكان ولا يكادون يقومون الاَّ وخيطان (الحصيرة) كلهُ معدوم فضلاً عن سرقتهم حاجتهم من بعضهم البعض ثم حصول الاتفاق بينهم على أكل لقمة كبيرة مرة واحدة يسمونها " لقمة الزقوم " كثيراً ما تضرُّ بهم

كل ذلك يجرونهُ والعريف متغافل عنهم متمني انقضاء اليوم . واذا اراد نهيهم عن اللعب واتباع القراءة فانهم يقرأون السور المحفوظة في اذهانهم عكساً لطرد . او يهزون اكتافهم بغية ايقانهِ انهم عاكفون على الحفظ الى ان يجيء العصر ويتولى معظم النهار فيجمعهم العريف لقراءة الحزب ويصرفهم غير آسف والخلاصة ان ما يسمونهُ الكتاتيب مفسدة للاولاد في صغرهم مفسدة لتربيتهم وصحتهم . لان في الكتاتيب لا يتغذون جسماً ولا روحا . وفي شربهم يشربون من داخل " بلاليص " من نخار في وسطها غابات البوص يمتصون الماء منها مصاً

---

(١) كثيراً ما يصاب الاولاد بعلل وعاهات يكون سببها ضرب الفقهاء والعرفاء ومن عهد قريب فقأ فقيهٌ عين ولد يتعلم عندهُ في مصر القديمة

وهي واسطة عظيمة ايضاً لنقل عدوى الامراض والعاهات بسرعة واخص ما هم معرضون لهُ من الامراض مرض القراع والبرص والقوبة والجرب وغير ذلك

غير ان لديوان الاوقاف ولنظارة المعارف العمومية كتاتيب ارقى من هذه قليلاً جاء عنها في خطبة الشيخ محمد شريف التي خطبها في ديوان نظارة المعارف يوم ٥ دسمبر سنة ١٩٠١ ما ملخصهُ: ان لديوان الاوقاف كتاتيب تديرها نظارة المعارف عدد تلامذتها في هذا العام ٤٢٩١ وكان في العام الماضي ٣٩٦٦ وزاد عدد البنات المتعلمات بها فصار ٧٦٣ بعد ان كان في العام الماضي ٦٤٣ واما عدد المعلمين الاكفاء فهو آخذ في الزيادة وقتاً فوقتاً فقد كان في سنة ١٨٩٨م ١٩ وفي سنة ١٨٩٩ م ٤٥ وفي سنة ١٩٠٠ م ٦٤ ووصل هذا العام ٩٠ منهم عدد ٤ من النساء وكل واحد من العرفاء الذين نجحوا في الامتحان يقبض مرتباً شهرياً قدره ٧٠ قرشاً واما الفقهاء فيقبض كلٌّ منهم ١٤٠ قرشاً وهذا غير مرتبات التلامذة المعروفة "بالخميس" فانها كلها تقسم بين الفقهاء والعرفاء. وقد عينت النظارة بكل كتاب فراشاً يقوم بنظافتهِ وما يلزم لهُ وما زالت ميزانية هذه الكتاتيب ترقى حتى صارت في هذا العام ٥٥٧١ جنيهاً بعد ان كانت في سنة ١٨٩٧ م ٣٥٢ جنيهاً فقط. اما التعليم والنظافة ودواعي الانتظام في هذه الكتاتيب فقد ارتقت كثيرًا عما كانت عليهِ. ولكن مما يؤسف عليهِ انهُ رغماً عن زيارة اطباء المدارس لهذه الكتاتيب فان صحة التلامذة لم تتقدم كثير هذا العام فقد اظهر الاحصاء الذي عملهُ حضرة حكيمباشي المعارف ان نسبة المصابين بالرمد الحبيبي هذا العام لا تزال ٨٠ في المئة كما كانت في العام الماضي والسبب الاكبر في وقوف التقدم عند هذا الحد هو رداءة اماكن الكتاتيب فان الكثير منها غير صحي بالمرة ولا يصلح لان يكون محلاً للتعليم وهذه هي اكبر عقبة الآن في تقدم الكتاتيب

التي صارت محط الآمال في تربية طبقة كبيرة من الامة . ولذا رأى ولاة الامور من رجال الاوقاف والمعارف انهُ ينبغي ان يبنوا كتاب جديد على نظام صحي حسن يكون مثالاً في البنيان والتعليم والنظام لما يبنى في المستقبل من الكتاتيب في الديار المصريَّة . وهذا الكتاب يشيد الآن بجوار قبة الفدويَّة وسيتم بعد ايام وتدور فيهِ الدراسة . هذا ملخص قول حضرة الاستاذ عن حاضر الكتاتيب التابعة للاوقاف التي تديرها نظارة المعارف بالنيابة عنهُ

اما الكتاتيب الاخرى التي تكفلت بها المعارف وتمدها بالاعانات وتهتم بملاحظتها وتفتيشها فقد قال في خطبتهِ عنها حضرة الاستاذ انها تقدمت في هذه السنة تقدماً ظاهراً كما يعلم من الامور الآتية . اولاً عددها قد زاد في هذه السنة زيادة عظيمة حتى انهُ لم يكفِ لتفتيشها اقل من عشرة مفتشين اذ بلغ هذا العدد ٩٢٥ بعد ان كانت في سنة ١٩٠٠م ٤٨٤ وسنة ١٨٩٩م ٤٠٣ وسنة ١٨٩٨م ٣٠١ التي هي مبدأ التفتيش وقد زاد ايضاً عدد الكتاتيب التي امكنتها لائقة للتعليم فصار الآن ٢٦٨ وكان سنة ١٩٠٠م ٢٤١ وسنة ١٨٩٩م ١٢٩ وسنة ١٨٩٨م ٤٨ وكذلك زاد عدد الكتاتيب التي امتعتها كافية فبلغت في هذا العام ٢٢٠ وكانت سنة ١٩٠٠م ٩٩ وسنة ١٨٩٩م ٧٧ وسنة ١٨٩٨م ٢٧ . ثانياً عدد المعلمين الاكفاء الذين يتولون التعليم فيها قد زاد في هذا العام عن الاعوام التي قبلهُ فبلغ الآن ١٣١ معلماً و٤ معلمات . وكان سنة ١٩٠٠م ٦٢ وسنة ١٨٩٩م ٥٥ وسنة ١٨٩٨م ٤٠ . ثالثاً عدد التلامذة ولاسيما البنات قد زاد عما قبلهُ زيادة وافرة فبلغ ٢٤٦٩١ من البنين و٢١٤٠ من البنات وكان سنة ١٩٠٠م ١١٣١٨ من البنين و٩٩٧ من البنات وسنة ١٨٩٩م ٩٨٣٩ من البنين و٥٦٨ من البنات وفي سنة ١٨٩٨م ٦٩٣٦ من البنين و٥٩٨ من البنات . ومما يحسن ذكرهُ انهُ

فضلاً عن كثرة وفود البنات على الكتاتيب من سنة الى سنة قد أُنشيء لهنّ كتاتيب خاصة بهنّ ومن احسن ما أُنشيء لهذا الغرض المدرسة الخيريّة بدمياط فانها أُسست على نظام بديع يمكن ان يعد من احسن مدارس البنات بمصر. رابعاً فضلاً عن تعليم القرآن الكريم في هذه الكتاتيب قد انتشر فيها تعليم مبادىء اللغة العربيّة والخط والحساب هذا العام بكثرة زيادة عن الاعوام الماضية اذ بلغ عدد الكتاتيب التي تعلم فيها تلك المواد ٣١٢ وكان في سنة ١٩٠ م ٨٢ وسنة ١٨٩٩م ٥٨ وسنة ١٨٩٨ م٣٥ . خامساً التعليم الافرادي الذي كان مستعملاً في هذه الكتاتيب وهو تعليم فرد فرد من التلامذة نقص كثيرًا جداً عن الاعوام السابقة وقام مقامهُ التعليم الجمعي وهو تعليم جمع من الاطفال بعضهم مع بعض وقد استعاض هذا التعليم الجمعي في الكتاتيب هذا العام حتى بلغ عدد الكتاتيب التي يستعمل فيها ٣٩٤ وكان سنة ١٩٠٠ م ١٥٤ وسنة ١٨٩٩ م ٧٧ وسنة ١٨٩٨ م ٣٤ . سادساً تحسن النظام في هذه الكتاتيب هذا العام زيادة عن الاعوام السالفة حتى بلغ عدد الكتاتيب التي يمكن اعتبارها منتظمة ١٠٥ وكان سنة ١٩٠٠ م٣٩ وسنة ١٨٩٩ م٣٧ وسنة ١٨٩٨ م١٧ وجميع اوجه التقدم المتقدمة نتيجة التفتيش وبالاخص منح المكافئات لاهل الكفاءة من معلمي تلك الكتاتيب فانهُ بعث كثيرًا من رغبة الفقهاء في نيل الاعانة واستنهض هممهم الى تحسين احوالهم على قدر الاستطاعة واصلاح امكنة كتاتيبهم والقيام بما يلزم لها من الامتعة على قدر الامكان . ومن اجل ذلك زادت الاعانة التي قدرت هذا العام لتلك الكتاتيب فبلغت ٢١٣٨ جنيهاً مصرياً و٦٠ غرشاً صاغاً وكانت سنة ١٩٠٠م ١٠٠٠ وسنة ١٨٩٩ م٧١٩ جنيهاً مصرياً و٩٠ غرشاً صاغاً وسنة ١٨٩٨ م٤٩٥ جنيهاً مصرياً و٢٥ غرشاً صاغاً وهذه المبالغ بلا شك لا تعد شيئاً

بالنسبة للنجاح العظيم الذي حصلت عليهِ كتاتيب الاعانة في هذه المدة القصيرة التي لا تتجاوز اربع سنين ومثل هذا النجاح يبشر بان مستقبلها سيكون احسن وانها ستخطو خطوات عظيمة في طريق التقدم والارتقاء . وقد تأكدت بهِ ثقة النظارة من نجاح مشروع الاعانة وانهُ كفيل بتعميم الاصلاح في جميع الكتاتيب الاهليَّة فزادت في مبلغ الاعانة للعام المقبل ونظمت للكتاتيب جميعها تفتيشاً عاماً متفرعاً الى تفتيشات محليَّة في القاهرة والوجه البحري والوجه القبلي واعدت لهُ المفتشين ورتبت له ما يلزم من الامكنة والامتعة والعمال وعما قريب تخرجهُ الى حيز الفعل وتستمر في طريق الاصلاح الى ان تصل الى الغاية المقصودة المؤدية الى سعادة البلاد انتهى. باختصار قليل وفي ذلك بعض الاطمئنان على اولاد الفقراء الذين هم اولاد كل الامة

كتب الفقراء

كما للاغنياء والوسط كتبٌ يغذون بها عقولهم ويعلمون منها ما طرأ على العلم والادب من التقلبات . كذلك للفقراء كتبٌ بذيئة يتعلمون منها السفاهة ويعلمون منها ما طرأ على قلة الادب والرذيلة من الطوارئ . وهذه الكتب يؤلفها لهم السفهاء والحشاشون وهي مملوءَة بصور هزليَّة قبيحة يقطر منها القبح وقلة الحياء . وهي المفسدة للاخلاق فيهم على فسادها المتضمنة للهذر والمجون مع كثرته بين الفقراء . ويصدر منها كل يوم شيءٌ جديد كثير حشوهُ قلة الادب والسفاهة والبعد عن المبادئ القويمة . وهذه الكتب يغنينا التفكر قليلاً في اسمائها ككتاب "رجوع الشيخ الى صباه" (وكتاب منعظ العنين ومغني عن المعاجين) والايضاح في علم النكاح وقصة " الفلاح مع الثلاث نساء" (وعفريت الشوام)

"ونوادر جحى "(١) (والقاضي والحرامي) "وبدع بطه" (وراس الغول) "وخضرة الشريفة "(وبئر ذات العلم) و"علي الزيبق" (والمرأة اللي حبلت جوزها) "وقمر الزمان بن الملك شهرمان " (والعمدة اللي إجوز سته) " وبدع خرج من الحمام" (وتسالي رمضان القبيحة) كل هذا يغني عن زيادة الشرح وهو لا يقع تحت حصر مما من شأنهِ افساد الاخلاق والآداب والدين . واغراء الناسك على التهتك في الفسق وتخدير العقول بمخدرات الجهل فوق ما هي عليهِ . ومن الغريب رواجها بسرعة عجيبة حتى انها تطبع مرارًا كثيرة في شهر واحد (٢). ولكن لا غرابة ولا عجب ما دامت نفوس الفقراء مترببة على حب التوغل في الرذيلة والقبح من الصغر

اذًا حقٌّ على العاقل المطالبة بابادة هذه الكتب لما تحويهِ من الغش والخداع خدمة للفضائل والآداب والانسانيَّة . وحق للحكومة ان تعاقب اصحابها وطابعيها ولا يعز عليها ذلك ما دام اصحابها والذين يطبعونها يكتبون اسماءَهم عليها . وهي لو اهتمت بالامر لوقفت على خفايا ما هنالك وعلمت انها محشوة بالاكاذيب في الدين والخداع في الآداب والاختلاق مما يُودع في رؤُوس العوام رذيلة السفه ويولّد بينهم مكروب الفساد وليس أقدر من الحكومة على استئصال ذلك كما ليس احد مسئولاً اكثر منها عما يحفظ ادب الامة ومجدها ونخارها وفي القانون ما يساعدها على العقوبات(٣) والاَّ فصعب والحكومة اصلاحيَّة ان تتخلى عن الفقراء

(١) غاية ما يعلم عن جحى المغفل المشهور انهُ عاش في الكوفة في زمن خروج ابي مسلم الخراساني . ويروى انهُ كان لهُ نوادر كثيرة اغلبها في السفه

(٢) اذكر ان "بدع بطه" طبع في اقل من شهر واحد ستة مرات

(٣) جاء في المواد ١٥٦ و١٦١ من قانون العقوبات ما يأتي "كل من انتهك حرمة الآداب وحسن الاخلاق باشهار رسم او نقش او تصوير او رمز او تمثيل يعاقب بالحبس من شهر الى سنة ويدفع غرامة من مئة قرش ديواني وقرش الى الف قرش"

ونتركهم يقرأُون لهذه الكتب حتى يصيبهم من الضرر والشر شيءٌ كثير يؤثر على ارواحهم فضلاً عن تأْثير الاعتقادات " بالعفريت والخيال والقرين "

المحبة والفقراء

المحبة صلة القلوب بين الناس ويجب ان تكون متينة العرى بين الفقراء ليتخلصوا من شر اهوائهم المتفرقة ومذاهبهم المختلفة . وليقربوا الى ما من شأْنهِ تجنب الفساد وصرف الهمم الى الضار المشين . ولتقطع اعصاب الدسائس التي يدسونها لبعضهم البعض من غير موجب — والفقراء اولى الناس بالمحبة لتضم قلوبهم المتفرقة التي حجبها التغرير والتمويه بسبب فقدهم لها . حتى اصبحوا منبت البغض واشتهرت عنهم آفات الكذب والخيانة والخداع . ناهيك عن احتياجهم اليها لتحليهم بدلاً عما ذكر بالصدق والامانة والمحافظة على جلب الرحمة اليهم والشفقة. وحبذا هي لو عرفت بينهم لتكون سبباً يدعو الاقوياء الى الاعتراف بحقوقهم والنظر في رغائبهم فينالونها بدون بذل ماء الحياة والتذلل الذي يذهب بالشرف الآدمي. اما وقد صارت المحبة بين الفقراء سطحيةً تقع بينهم عفواً عن غير قصد. سعياً وراء منفعة ذاتيةٍ حتى اذا نالوها انقشعت تلك المحبة من قلوبهم وعادوا الى التنافر والتباغض . فلا لوم علينا لو قلنا انهم في كره متزايد وعدوان مستمر وكل يوم لهم في البغض اثر في حاراتهم واختلاطهم مع اهليهم وبني وطنهم وبني ملتهم ينشأُون وينشأُ معهم الشقاق والبغضاء منذ الصغر ويعيشون عاملين على البعد عنها في الكبر. الاَّ جماعات منهم قليلون وهؤُلاءِ ممن رزقهم الله حلية العقل والادراك. وما عداهم فالكل عائشون بالتحاسد والبغضاء . حتى صارت قلة الادب فيهم خاقيةً

موروثة وضاعت من بينهم الشهامة والمروءة والامانة . وعلاهم البربري ببربرته في المحبة لاهلهِ وبني جنسهِ مما لا يخفى على احد . اذ البربري يأتي من بلدهِ ولا يملك ما يسد بهِ الرمق ويستر بهِ العورة . فبالمحبة ينزل ضيفاً عند معارفهِ وبني نوعهِ وبالمحبة يفتشون لهُ على خدمة او حرفة يقتات منها لا فرق بين رجل منهم او صبي بل بالمحبة ينتقون لها ما يصلح شأنها وبها يجمعون لبني جنسهم من بعضهم البعض ما يشترون لهُ بهِ صندوق " البويه " لمسح الاحذية ويعلمونهُ على كيفية الحصول على معاشهِ وطرق الكسب اذ يرافقهُ احد ابناء جنسهِ في البلد ولا يبخل عليهِ بتعليمهِ كيفيةً تنظيف الاحذية السوداء والصفراء . حتى اذا ترك حرفتهُ هذه لكبرهِ واستخدم بسبب مساعدتهم لهُ سفرجياً او خادماً يأتي باحد اخوانهِ ويعلمهُ ويدربهُ على حرفتهِ الاولى مع افهامهِ ان زيداً من الناس يدفع في مسح حذائهِ كذا وعمرواً كذا وهلمَّ جرّاً . واذ انتدبهُ احد لبيته يدفع كذا . ثم يتركهُ داعياً لهُ بالتوفيق والنجاح المستمر . وبهذه الواسطة يتعلم منهم فضل الاتحاد حتى توصل كثير منهم الآن الى احتكار بعض القهاوي . غير تاركين لابن العرب واسطة او سبيلاً بينهم للتعيش وسببهُ علمهم بان اولاد العرب زملائهم يقبلون على مسح الاحذية برخيص الاثمان عنهم وفي ذلك مجلبة للخسارة عليهم لا يرضونها

هذا الامر مشاهد بينهم ومصدرهُ المحبة والاتحاد . يضاف الى ذلك العفة والحشمة والحياء والاعتبار بخلاف امثالهم من ابناء العرب الذين لا يستحون من القبح والفجور حتى انهم بعدوا عن طرق الخير ومسالكهِ بقدر ما زاغوا عن طرق المحبة والاتحاد والسير ضد الحشمة في جميع اطوارهم

اذا عرفنا هذا وتذكرنا حال الفقير في صغرهِ وهو الآخذ عن ابيهِ وامهِ الكثير من القذف والفحش في مجالسهِ بين اهلهِ وجيرانهِ وبين كبرائهِ واهل محارمهِ

لا يصده وازع الحشمة لما اخذته به عوائد السوء في التظاهر قولاً وعملاً حتى اصبح خلق الشر موروثاً فيه أباً عن جد وولداً عن أب لا نستغرب فقدان المحبة التي تمحو البغضاء من نفوسهم وتشد آواخي الاتحاد المتين بينهم . وانت تراهم حتى في صلاتهم بجانب بعضهم متخاصمين ولو في ختام الصلاة ينظر كل منهم لاخيه قائلاً " السلام عليكم ورحمة الله "

لما على بصرهم وبصيرتهم من غشاوة البغضاء والشحناء بسبب فقدان المحبة من بينهم بل غاية ما يدركون الشتائم والسباب لاقل مناسبة حتى يتوصلون للمشاجرة واقتراف الجرائم بالاعتداء بالضرب والجرح . ونكاية بعضهم بعضاً بشهادة الزور وخدش الاعراض بسب الآباء والامهات . ويكفينا اننا نسمع كل يوم ازدياد مشاجرتهم وكثرة جرائمهم من مخالفات وجنح وجنايات رجالاً ونساء وانهم يزيدون كل سنة عن غيرها في قتل الاب ابنه والابن اباه والاخ اخاه او اخته والاخت أختها او اخاها ولا جدال في ان سبب ذلك فقدان المحبة من بينهم حتى جلبوا على نفوسهم العطب في ليلهم ونهارهم

نسأل الله ان يزيل المكروه عنهم ويهبهم ادراك معنى قول المرشد الاعظم " صلى الله عليه وسلم " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخواناً المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره التقوى ههنا واشار الى صدره ثلاث مرات بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه

الجبن

"وضعف عزيمة الفقراء"

الجبن الذي نحن في صددهِ هو قعود النفس عن الاقدام على الامور ولو كانت ممكنة لضعف متسلط عليها وانخذال في النفس عما فيهِ مصلحتها ومنفعتها وهو في الامة المصريةّ عام يتناول الرجال والنساء والاطفال. وهوذو سلطان قوي على العقول والاجسام . اذا تملك وتأصل فيها أفسد نظامها واضعف قوتها وفلّ من حد عزيمتها . وقد سرى داؤُهُ في اعصاب الامة وشرايين جسمها سريان السم في العروق الجسميةّ حتى تكاد لا تجد فرقاً بين طائفة وأُخرى في سيطرتهِ على رجال العلم والجهل فيها . والجبن في الامة المصريةّ وراثياً من قرون مضت وعصور خلت وسبب ذلك الضغط والاستبداد الذي أتتهُ الهيئة الحاكمة في تلك الازمان التي توالت عليها وكثرة تعاقب تلك الحكومات وشدة ما هي عليهِ من التنافر في السياسة والاحكام والقوانين . حتى لقد تنقض دولة كل ما صنعتهُ السالفة من الاحكام والشرائع تقصد بذلك تطلب الغاية التي تسعى اليها بكل قواها ومجهودها ويكفي لنا دليلاً على تغير الاحكام والضرر الناجم عنهُ ان اربع دول تولت امور القطر في المئة سنة الخالية هدمت كلٌّ منها ما وضعتهُ الاولى وابدلت ونسخت كثيراً من الامور وابطلت بعضاً من العوائد المرعيةّ. اما الشعب المصري باختلاف عناصرهِ فهو ذو اقدام وحب للتقدم لو لم تصل ايادي الاقوياء من الاجانب اليهِ

انظر ماذا صنع ابرهيم باشا الفاتح من مدهشات الامور في فتوحاتهِ وكيف انهُ هدد كيان دولة لها بمصر روابط دينيةّ وجنسيةّ وهو لو لم تقيد يداهُ باغلال

القوة من تداخل الدول الاوربيّة وحيلولتها دون كثير من مقاصده لاتى بما لم تستطعهُ الابطال الاوائل والاقيال الاماثل . وهكذا فقد قيض الله ان يكون هذا القطر مطمح ابصار الطامعين ونهبة الناهبين ومحج آمال المستعمرين لكثرة خيراته ودماثة اخلاق شعبهِ التي لشدتها تكاد تقرب احياناً من الذل والهوان

وليس بين الامم امة فعل بها الاستبداد فعلهُ الذريع مثل الامة المصريّة . كما انهُ ليس بين الامم امة اقام فيها الذل والهوان مثلها وهو الذي اورثها الخمول فتأصل فيها مرض الجبن والوهن بامتصاص دمائها وهي رافلة في قيود الاستبداد . حتى اشتهرت بالقهر والغلب على امورها وعلم عنها انها الامة الميتة حياة المندثرة وجوداً وليس من يعجب اذا قلنا انها من جراء ذلك قد بليت بشر التقليد الذي يتولد في نفس المغلوب في كل فكر وعمل وعزيز ورخيص واستحكم فيها داء الجبن الذي يتولد عنهُ كثيرٌ من الخرافات والامور السافلة . لاسيما وقد جهلت الامة باجمعها التربية الحقة وزاغت عن محجة الصواب في الازياء والعوائد الوطنية وبعدت عن الاحساس والغيرة بعداً شاسعاً وعن الثبات والاقدام في اقل الامور كما هو المنظور وافراد الامة ضعاف العقول كثيرو الاوهام حتى ليعتقدوا احياناً ان في اليأس رجاء وفي الحبوط املاً وفي الذل مجداً وعزاً كيف لا وهم لا يدرون الا خزعبلات الكلام وتخرّصات الاوها واضغاث الاحلام التي يحتلمونها في يقظة حياتهم التي هي اشبه بالسبات العميق لاعتيادهم الرعب من لا شيء والتخوف من لا خوف والرهبة والانزعاج من لا قوة ولا صوت

فلا تستغرب اذاً فساد رأيها وحزمها وعدم ثقتها بنفسها . وبسبب الجبن ترقد ولو نهبت اموالها وتسخَّر لاقل الاقوياء باقل اشارة . حتى اذا أكل اولئك

الاقوياء على ظهور افرادها وشربوا ورموا لهم بالفضلات القليلة اكتفوا بها غذاء نعوذ بالله من شر الجبن

نعم ان الجبن في الامة قد اختلفت حاله الآن كثيراً بفضل حكومتنا الحاضرة ونظامها السديد فانحصر ذلك الداء الوبيل في فئة الاغنياء والفقراء دون الوسط وما سبب ذلك الاّ ان هذا الوسط اكثر اقداماً على استطلاع الامور ومعرفة الحقائق ولما عركهُ بهِ الدهر وعلمهُ اياهُ الخبر دون الاغنياء والفقراء

اما الاغنياء فجبنهم مشاهد منظور في سيرهم وحياتهم كلها كما مر بك . والفقراء دلائل جبنهم ظاهرة في جهلهم وخوفهم وتحصيل معاشهم وكلامهم واخذهم وعطائهم وفي مقابلتهم بمن يكون أعلى منهم مرتبة . اذ يعتقدون ان طالب الحق فاجر وتارك حقهُ مطيع والمشتكي المتظلم مفسد والنبيه المدقق ملحد والخامل المسكين صالح . ومما يدلنا باجلى بيان على زيادة الجبن والوهن فيهم هو ذلك اليوم الذي صدرت فيهِ الاوامر بتجنيد رجال العسكريّة من ابناء المدن التي كانت معفاة من تجنيد اولادها قبل صدور الاوامر المذكورة

فان المتأمل في ذلك الحين كان يرى ابناء الاغنياء كلهم يقدمون البدل العسكري عن سعة وانشراح مما اعطاهم الله من بسطة العيش والغنى اما اولئك الفقراء الذين ليس بيدهم شيء يشترون بهِ حياة اولادهم كما يزعمون فقد كان اهلوهم وذوو قرباهم يبكون وينتحبون في الغداة والعشي وكنت ترى الاب يفتدي ابنهُ بما يملكهُ من حطام الدنيا فيصبح صفر اليدين . والام تبيع قرطها او خلخالها (ولو كان خلخال زار) بابخس الثمن حتى تجمع مقدار فدية ابنها من العسكريّة ومع هذا كلهِ لا يذهب الابن للكد والعمل ليعوض على ابويهِ ما فقداهُ بسببهِ بل يعمل على ما بهِ ضعف همتهِ وخمول وجدانهِ . والجبن داء الفقير كما هو سمير الغني

وهو سبب من اهم الاسباب للانحطاط المشاهد في امتنا المصريَّة عموماً وفي الاسلاميَّة خصوصاً . بعد ما كانت ذات بطش شديد وساعد قوي . والاَّ فلو كانت الامة جميعها بعيدة عن الجبن مشهورة بمضاء العزيمة وشرف الهمة المؤدية لترقية الشعور وحب الوطن لتمكن من نفسها تربية نفوس اهليها لدرجة مصاف الرجال والرجوليَّة . بدلاً من ان يصبح الرجل كبيرًا في السن ولكنهُ صغيرٌ في العمل يفوقهُ اقل رجل من الطوائف الاجنبية التي بين ظهرانينا

نسأل الله ان يهدينا طريق النشاط والجد ويبعدنا عما يجلب علينا الموت الادبي بطريق الجبن تحت كنف حكومتنا الحاضرة التي نبراسها منارٌ بالحق ومبدد ظلام الباطل ان الباطل كان زهوقاً

حرف الفقراء

ان فقد التربية وضعف الاعتناء بشأن الفقراء جعل حالتهم التي هم فيها كأنها لا تتأثر بمرور الزمن ولذا ترى فقير اليوم كفقير الامس هو هو يأكل خبزهُ بالكسل ويلبس لباسهُ بالخمول لا يعرف الشهامة والاقدام بل غاية ما يعرفهُ لتحصيل قوتهِ وملبسهِ صغار النفس وقعود الهمة عن السعي لعلمهِ ان ما تسوقهُ اليهِ العناية والقدرة هو رزقهُ لاغير ولا سبيل للاستزادة منهُ . نعم قد وُجد في فقير اليوم بعض من الشعور وعلم انهُ مجبور على تحصيل قوته وملبسهِ بنفسهِ ولكنهُ مع ذلك لم يهتدِ لمعرفة الواجب ولم يعلم احتياج الامة اليهِ ليعمل بما فيه نفعها ونفعهُ ولم يهتمَّ بان يكون جسمًا عاملاً بدلاً من ان يكون جسمًا خاملاً وان عليهِ الاهتمام بمصالح الجمهور حتى يدرك ما قدر لهُ حقيقةً من الرزق بطريق الكد والكدح

كما امر الله الانسان بقولهِ " يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيهِ "
حتى مَ لا يستيقظ الفقير ويعتبر ويستفيد من تيقظ من يعاشرهم من نزلاء البلاد.
بل هو باقٍ على حالتهِ التي كان عليها من سنين غير ناظر الى العمل نظرة العاشق
لمرمى هواهُ والمريض الى الصحة بدلاً من شكوى سوء ايامهِ وشق زمانهِ وتركهِ جل
امورهِ " للصدفة " مستعيباً ممارسة الاعمال لما نشأ عليه من حب الكسل وإيثار
الراحة وفتور الهمة على العمل . والفقير لعمري لو كان على ضد ما ذكر وهدى
نفسهُ الى العمل لكان اقرب لجلب الغبطة على نفسهِ في معيشتهِ . واقرب للفوز
على من يعاشرهُ من الاجانب اذ لا يخفى ما هو متيسر للوطني من المساعدات
والعنايات والاحوال بخلاف ذلك الاجنبي النازح عن بلدهِ المغترب عن اهلهِ
واقاربهِ والمقيم بين قوم ليسوا بقومهِ

اما وقد اقام الفقير على كسلهِ المشاهد ودام على توانيهِ المنظور فلا حق لهُ
في الشكوى من سوء حالهِ الحاضر ما دام هو الكسول في حركاتهِ وسكناتهِ وليس
اهلاً الاّ لان يقصيه ذوو العمل وينبذونهُ عنهم وهو القليل المروَّة نحو نفسهِ
القليل المنفعة لبلدهِ المستعيب وسخ اليدين النافر عن رزق عرق الجبين

وإنّا نذكر للقارئ حرف الفقراء التي يحترفونها والتي يدعونها باشغالهم وفي
مقدمة ذلك حرف البيع والشراء التي يقدمون عليها على امل الربح منها . واهم
ذلك اصناف المأكولات القليلة الثمن والربح يزاحمون فيها بعضهم بعضاً
رجالاً ونساءً حتى امسوا بسبب ذلك في اسوإِ حالة فوضى فاقدي الصبر . يجرون
على انفسهم ملل المعيشة فلذا قلّ من يداوم عليها . والاّ فسرعان ما يتركونها الى
ما يعبث بالامن . وخلوهم من الادب مع اضمحلال عقيدة الدين الآخذة بينهم
بالتلاشي يلجأُون الى السرقة في بيعهم وشرائهم او في غش ما يزينونهُ وما يكيلونهُ

ويكاد يكون بيع الرجال والنساء واحداً . فالرجال بيعهم في الامور الآتية . الكبريت والكتب. والاحذية. والحلوى . وعلائق الثياب . والفستق. والبطارخ والاثمار . والاقمشة . والجبنة والسميذ والجرائد . والفول السوداني . والزيوت والتمر الهندي . (وبيع الصفافير والاساور) وكل " حاجة بقرش صاغ " او بيع الفخار على ما يذكر القارئ

والنساء يبعنَ الازهار والاقمشة وماء الورد والاثمار واللبن والعسل "والمسلي" يطوف الكل رجالاً ونساءً حاملين ذلك طول نهارهم على امل الكسب منهُ

وهنا لا بأس من سؤال القارئ عما يربحهُ ولد اسرائيلي حامل بضع اوراق من ورق النصيب وهي خفيفة الحمل يربح منها بائعها اضعاف ما يربحهُ ذلك البائع الوطني الذي يضع على رأسهِ ما يبلغ احياناً كثيرة زهاء الخمسين رطلاً من البضاعة الدنيئة التي لا قيمة لها لا شك في ان حامل اوراق النصيب يعرف من اين يأتي الربح وذلك الوطني جاهل ذلك ولو كان احدهما ولداً والثاني رجلاً فقل لي بحقك ما مقدار ربح الولد وقت بلوغهِ اشدهُ اذا قسنا ما يربحهُ وهو في سن الحلم على ما يستنبطهُ من اساليب الكسب وطرق الربح اذا استعمل عقلهُ واعمل قريحتهُ واستفاد مما مرَّ عليهِ وهو صغير من الامور والطوارئ. وبينما يكون الفقير وزوجتهُ يكدحان وراء مبيع ما معهما من البضاعة الزهيدة القيمة يتركان اولادهما يطوفون الشوارع والطرقات بهيئة رثة كئيبة واينما مررت او اينما حللت ترى زمراً من اولئك الاولاد منتشرين بحالة يرثى لها وهم بثياب بالية يتراكضون ويتضاربون على كسرة من الخبز او فضلة طعام او عقب سجارة . جالسين على الارض كانهم ليس لهم آباء ولا أُمهات تراهم يملأُون الازقة صراخاً ويركضون صاخبين لاعنين لا يردعهم عن السب والقبائح رادع الادب والتربية لفقدانها

منهم ولذلك تراهم من بنات واولاد كثيري الجرأة والحيلة في مداهمة المارة وسلب ما وصلت اليهِ ايديهم من امتعتهم يدفعهم الى ارتكاب مثل هذه الدنايا دافع الجوع والعرى وحب السلب وليس الذنب في ذلك كلهِ الاّ على آبائهم وامهاتهم لاهمالهم تربيتهم فيشبون على حب ارتكاب المحرمات واتيان المنكرات من الامور فيكونون عالة على الامة وعبئاً ثقيلاً على كاهل الحكومة وهم لو تعلموا مبادئ التربية الحسنة لكانت لهم اعظم وازع عن هذه الامور . واغلب الاماكن التي يلجأ اليها هؤلاء الاولاد هي القهاوي والمطاعم وابواب المعابد ودور الاغنياء ونحوها واذا من الله على فئة منهم بعمل شيء من حرف المعاش اذا كبروا وهم ليسوا باهل لعمل مفيد يباشرون حرفة مساحي الجزم [١] اولاً واذا ساعدتهم الفرص الى حرف المكارين (الحمارة) [٢] والحمالين " الشيالين " [٣] او الحوذية [٤] او يأخذون في حرفة التجوال في الحواري "جعيدية" وقوفاً امام الدور هذا ناقراً على دفهِ ناشداً لقصة " الغزالة والجمل " وذلك حاكياً " قصة خضرة الشريفة " او قصة " صبر ايوب " او نادبين الزمن او ذاكرين ألم الفراق للاهل او متوجعين من ألم المرض وكثرة العلل ولو كان اغلبهم اصحاء الاجسام اقوياء البنية يحتاج اليهم الوطن ليعمروهُ والعمل ليغدق عليهم نعمهُ بدلاً من كسرة يطلبونها بح الصوت او مليم يأخذونهُ بعرق القربة او باستنجاد اهل البيت والتشفع برجاء الاولياء والصالحين

(١) بلغ عدد مساحي الجزم بالقاهرة ١٢٦٢ سنة ١٩٠١

(٢) بلغ عدد المكارين (الحمارة) بالقاهرة ١٤٠٠ سنة ١٩٠١

(٣) بلغ عدد الحمالين (الشيالة) بالقاهرة ١٠٨٧ سنة ١٩٠١

(٤) بلغ عدد الحوذية (العربجية ركوب) بالقاهرة ٢٥٠٠ سنة ١٩٠١

اما عربجية النقل فقد بلغ عددهم في السنة المذكورة ٦٥٠٠ أخذنا ما ذكر من قلم — تنفيذ اللوائح — بمحافظة مصر

الذين لا يبيحون الصدقة على امثال هؤلاء [1] هذا هو العمل المشتغل فيهِ الرجال الفقراء والنساء الفقيرات غير ان للنساء الفقيرات حرفاً أُخرى كغسل الثياب وضرب الرمل ومعرفة الفال وقراءة القرآن في الطرق وغير ذلك من مثل بيع البرتقال او الادرة او البلح او الاستخدام في معامل الدخان وكل ذلك اسباب نتطرق بهنَّ الى الرذيلة من شيء الى آخر ولنجتزئ الآن بذكر شيء عن بائعات البرتقال وشيء آخر عن استخدامهنَّ في معامل الدخان

اما بائعات البرتقال والبلح والادرة فنقول تبتدئ البنت منهنَّ في بيع الاشياء المحكي عنها وتكون في اول عهدها حريصة على ستر وجهها ان يظهر فتضع عليهِ النقاب خجلاً وحياءً ثم لا يمضي عليها قليل زمن حتى تتركهُ وتمشي في الارض مرحاً بغير نقاب ثم تبتدئ في تعليم النكت والهزار فلا يمر عليها عابر طريق من حوذي او حمَّار الاَّ وتناقشهُ النكتة . حتى رجال البوليس في دوريتهم اذكر اني كنت مرة في منتدى عمومي وكانت بالقرب مني امرأة من هؤلاء جالسة على الارض مفرطحة الارجل فجاء اليها البوليس ضاحكاً وابتدأ يخطر في الشارع بين ذهاب واياب وهي ترميهِ بنكة وهو يرميها بمثلها حتى آن وقت ايابهِ للمخفر فجاء اليها واخذ جزءًا مما تبيعهُ واوصى خلفهُ بها . وعلى هذا المسلك تجري بقيَّة البائعات من النساء الى ان يضبطنَ في محال الخنا والفجور

اما عن البنات اللواتي يستخدمنَ في معامل الدخان فهنَّ قسم كبيرٌ كلهنَّ يحضرنَ صباحاً ويذهبنَ مساءً وهؤلاء هنَّ شرُّ البنات سيرة وارذلهنَّ سريرة اذ

(1) من قول المتبولي رحمهُ الله — لا احب الفقير الاَّ ان كان لهُ حرفة تكفيهِ سؤال الناس — وكان رحمهُ الله يعمل في حياتهِ في الغيط ويدير الماء وينظف القناة من الحشيش

يحكى ان منهنّ عدداً كبيراً متزوجات بشبان الاروام زواجاً غير شرعي . هذا وكثيرات من البنات الفقيرات يراهن المارون في شوارع العاصمة وغيرها من المدن جالسات يقرأْن سور القرآن الشريف على مشهد من الجميع ومسمع وأَخص خالهنّ جهات السيدة زينب والسيدة نفيسة وكبري المتبولي وابو العلا . ولا يخفى ان بعملهنّ هذا حطة لنا وازدراء بنا لانهنّ يقرأْن القرآن الشريف بين القذارة والطين وبين ايديهنّ اطفالهنّ يصرخون ويئنون فتختلط القراءة بالبكاء وكأَنهم شاعرون بتحريم دلك فيبكون ويبرأُون والاَّ فما الداعي الى بكائهم وعهدنا بالطفل يحن للصوت ذي الرنة والنغم . هؤلاء اللواتي يقرأْن القرآن في الطرق لو اعتنى بامرهنّ جماعة من اهل الخير وعملوا لهنّ مكتباً صغيراً وجيء اليهنّ بمعلم يحرص عليهنّ في حفظ القرآن وتلاوتهِ مضبوطاً. ثم يذهبن بين النساء في المآتم يقرأْن لفتح لهنّ باب رزق حلال ولاَ ثاب الله محضرهنّ بدلاً من اولئك النادبات الملعونات

هذه هي حرف بعض الفقراء وقد تركنا حرفاً أُخرى كثيرة يطول شرحها ولو كان ما ذكر مع ما لم يذكر لبساطتهِ يفقد النفع المرجو من جماعة هم كل الامة والمجموع يعملون في ايقاف حياتهم على ما يوقف الثروة جبناً منهم لفرارهم من مواقف الكسب بالكد والكدح والاَّ فاين الثروة مع كثرة السكان ما دام اهل البلاد يشتغلون على ما ترى بالتافه القليل وفي العطلة والحزعبلات والشعوذة الشيء الكثير حتى ان المتأَمل اصبح يقرع سن الندم ويصفق صفقة الاواه على ما حاق بامتهِ وما خسرتهُ جماعتهُ بفضل الجهل المرئيُّ المنظور ولله عاقبة الامور

الصناع الفقراء

انهُ مع قلة المعامل والورش الصناعيةّ في قطرنا العزيز بسبب عدم وجود المعادن في بلادنا المصريةّ وقعود الرجال وذوي الاموال عن تنشيط الصناعة فيها فان عددًا ليس بالقليل من الصناع الوطنيين الذين يصنعون للبلاد ما يلزم من بعض الحاجيات ولو كان اغلبها مجلوبًا من البلدان الاجنبيةّ موجود بين ظهرانينا لاينتظرون لاظهار فائدتهم للبلاد الاّ نهوض الاكفاء من الرجال لتعضيد الصناعة والامة في حاجة الى هؤلاء الصناع حاجة هؤلاء الفقراء الى افرادها من الاغنياء والكبراء . غير انك لو شئت ان تعرف حقيقة حالهم فهم ضعاف الميل والعزيمة في اداء العمل الذي يناط بهم . كثيرو الكفر بنعم مستخدميهم لاقل سبب ولو انها نصيحة من ولاة امورهم . اذ يعكسون الغرض من ذلك الى حقد عليهم وعدم رضى باعمالهم فيتولد لذلك في نفوسهم حب الانتقال من حرفة الى اخرى ولو لم يكونوا قد مارسوها من قبلُ

وعدم الاطمئنان هذا مجلبة لقلة نجاحهم في اعمالهم فضلاً عن انتفاء الثقة بين الصانع منهم وزميلهِ اذهم كلهم مبغضون بعضهم بعضاً لما ظهر منهم من حب التعريض والنميمة والسعاية التي تكون عقباها وخيمة عليهم اجمع واذا علمنا ذلك شعرنا بانهم لا يذوقون لذة العمل ولا يحرصون عليهِ حتى يبلغوا فيهِ الاجادة وكل هذه اسباب تجلب الفشل عليهم والتأخر المستمر وتوجد فيهم حب الرضوخ لسلطان الصانع الاجنبي . فلا تستغرب بعد هذا لو قلنا ان الصانع الوطني يكون مستسلماً للصانع الاجنبي مقبلاً على طاعتهِ يتصرف بقوتهِ وقوة زملائهِ كيفما شاء علماً منهُ ان لهُ من قوة هذا التضاغن فوزًا مبيناً وسبقاً اكيدًا في نجاح عملهِ

وبلوغهِ الغاية القصوى من اتقانهِ وحصولهِ على الشهرة الطيبة . وهذا الامر غريب من الصناع الوطنيين . وهم مع ذلك كلهِ بعضهم يدرونهُ ويعلمونهُ ويشاهدونهُ متأكدين من ان في اختلافهم هذا انحطاطاً وضعفاً وذالة يجرونها اليهم عن غير قصد واختيار . ولا ريب في ان ذلك يستمر ويزداد ما دامت في قلوبهم لكراهة والميل الى الشقاق والنفور والفوضى وحقَّ للاجنبي ان ينتصر عليهم ويسود . واصدق شاهد على ما نقول الحالة الرديئة التي وصل اليها اصحاب الصنائع الوطنيين من حدادين وبرادين ونقاشين ونجارين تضمهم جامعة الصناعة والاخوة والوطنيَّة . ولنا على ذلك مثال في عنابر بولاق وورشها والورش الاخرى اذ ترى كل هؤلاء الصناع لا يحافظون على الوقت بينهم ولا يعرفون لهُ قيمة وكثيراً ما اقدموا على الشروع في عمل قبل ان يتمموا الذي قبلهُ واخلوا بترتيب اعمالهم وهو من اشد الامور لزوماً للصانع عند تكاثر الاعمال

زر احدى المعامل المذكورة او ورشة من ورش الوطنيين واقترب منهم تراهم يتركون ما بايديهم ويقبلون على التكلم معك بكلام طويل غير شاعرين بقيمة الوقت الثمينة . نعم لا ننكر ان هممهم عالية وعزائمهم ماضية يتحملون مشاق الاعمال ويكابدون اشد الاهوال ولكن ذلك لا يكون منهم الاَّ دفعاً باليد خوفاً من سيطرة مسيطر عليهم

تأمل فيهم ترَ ان اخص صفات الصانع منهم الجرأة على الكذب والغش والاحتيال . او فوض اليهم عملاً تراهم كثيري الاخلال بالمواعيد كأن العامل منهم لا يحسن عملهُ الاَّ بالخداع والمواربة . تفرس فيهم جيداً تراهم ينظرون الى العرض في اعمالهم تاركين الجوهر . ظناً منهم ان الغاية الحقيقيَّة هي في البهرجة

والطلاوة لا في احكام الصناعة ودقة الاحتراف وقد يعم فيهم هذا الحكم على كل اعمالهم

هذا وطريق الاقتصاد في مؤونة الاعمال الصناعية غير معروفة بينهم بل المعروف فيهم أخذ "المؤونة" ازيد من مطلوبهم وهم مشهورون بالخفة والطيش في العمل وعدم اتخاذ التروي ديدناً لهم واعمال الفكرة دليلاً في ما يعملون وما ذلك الا لفقدانهم فائدة الصبر والاعتماد على النفس ولذلك كان هذا الاهمال والقصور في احكام الصناعة ضاراً بهم مادياً وادبياً مضعفاً اجسامهم كما يتبين ذلك لمن عاملهم

دين الفقراء وتعصبهم

ان كل المصائب التي لحقت بالاسلام واهلهِ منذ ابتداء تقهقرهِ الى الآن لمصيبة صغرى تلقاء منشإِ تلك المصائب وكبراها وهي جهل فقراء المسلمين بحكم اوامر ونواهي دينهم الحقيقية. وعندي ان سبب ذلك هو عدم وجود رابطة عامة في مركز الخلافة الكبرى لاكابر ائمة الاسلام تجمع كلمتهم على حقيقة المراد من تلك الاوامر والنواهي بالبحث والاجتهاد والتفسير بكل اخلاص . ونرسل فتنشر نور تلك الحقيقة في العالم الاسلامي ليهتدي بهِ وتتوحد افكارهُ فتكون وجهتهُ واحدة في كل احوالهِ الدنيوية والاخروية . اما وهذه الرابطة " التي هي امر جوهري " غير موجودة . ففي كل قطر من اقطار الاسلام بل في كل بلد بل في كل حارة من دعاة الضلال المدعين التفقه في العلم المشتغلين بالدين حرفة للتعيش الناصبين اشراك البدع والفتنة للاغواء على الرذيلة والانطواء لاحكام السفاهة المفسرين آيات الكتاب الكريم على ما تدعو اليهِ اغراضهم العالمية السافلة

الملفقين عن الرسول "صلى الله عليهِ وسلم" من الاحاديث ما تروج بهِ مصالحهم ونقضى حاجاتهم ما تنوء تحت حملهِ الانسانيةُ وترزح لثقلهِ الارضون . وتهتز لهُ السموات جزعاً وينشق بهِ فؤَاد الفضيلة فرقاً (١) هذا ما اضل عقول المسلمين وازاغ ابصارهم وفرق اهواءهم وغلبهم على ارادتهم وانتزع من قلوبهم الرحمة وقطع منها علائق الاتحاد والائتلاف حتى اصبحوا شتيتاً لا يرجى جمعهم اذا استصرختهم لا يجيبونك واذا هضمت حقوقهم واهنتهم استسلموا اليك صاغرين يرون لجهالتهم ظلمات بعضها فوق بعض فيقولون نور على نور حتى اصبح المنصف العادل من المسلمين لا يرى وجهاً واحداً للحكم بان هؤلاء من المسلمين الاَّ اذا كفت شهادتهم باللسان . هؤلاء هم المسوغون لاخواننا المسيحيين ان ينعتونا بالتعصب وحبذا هذه الكلمة لو كانت فينا بمعناها الحقيقي . لان التعصب لا يخرج عن حد غيرة المرء على دينهِ ومحبتهُ لهُ والدفاع عنهُ اذا اقتضى الحال . وأتمنى في هذَا المقام من الكلام لو كان الذين ينعتوننا بالتعصب من المسيحيين يفهمون ما يقولون لاننا ما سمعنا ان احداً من عقلائهم قال بذلك وما سمعناهُ الاَّ ممن يتضرر العقلاء المتنورون من وجودهم مثلما تتضرر الفئة المتعلمة منا من جهلائنا الذين ذكرناهم

اما وقد يظهر للعارف جهل المسيحيين والمسلمين لحقائق دينهم ودخول البدع فيه وتمسكهم بها ووضعهم اياها موضع الدين الصحيح فلا تعصب عندنا معاشر المصريين بل هو جهل عم الكل يرمون بهِ بعضهم مزيناً بحلى الدين والدين بريء منهُ لانهُ من دعائم التوحش ومن دواعي الجفاء بين اهل الوطن الواحد لا توجد

(١) ويسدد هذه الضربات كساد اسواق العلم والعرفان بين عامة المسلمين بل في الشرق على العموم بحيث لا يمكن ان يدرك افراد العامة شيئاً من الحقيقة بنظرهم او ببحثهم

المحبة حيث يوجد وتتعالى الانسانيةّ عن ان تحتل ارضاً يمثلها الجهل وتأنف المصالح ان تحط رحالها في ابواب اصحابها

والاَّ فلو علم الناس عموماً والمسلمون خصوصاً قواعد شريعتهم السمحاء واركانها الحقة لما جهلوا ولا جرُّوا المصائب عليهم وعلى قومهم. كما لو عرف المسيحي الفرق بين لفظة تعصب ومغالات في الدين ما نعت اخوته في الوطنيةّ بهذا النعت ولا تجاوز المقصود ورمى باوهام باطلة وافكار عاطلة. والاسلام ديانة تهذيب وآداب واخلاق مرضية. وهو الدين الذي يأمر اهلهُ بالمعروف وينهاهم عن المنكر واساسهُ مكارم الاخلاق (١) وهو سلامة وسلام لا مشاغة ولا خصام. اذا عرفنا هذا وعرفنا جهل عامة المصريين فقد بطلت اقوال القائل بالتعصب ومحقت مفترياتهُ البعيدة عن الذمة والشرف. مادام ديننا يعلمنا ان من كان على نصرانيتهِ او على يهوديتهِ فانهُ لا يرد عنها وان للمسلمين دينهم والآخرين دينهم

والمطلع على التاريخ يعلم ان المسلمين والنصارى صلوا معاً في جامع الامويين بدمشق وجعل كل بينهُ وبين الآخر حاجزاً (٢) مدة سبعين عاماً ولطالما أُؤتمن المسلم أخاهُ المسيحي على مالهِ واهلهِ. وما وجدت الفتن ووقعت بواعث الجفاء بينهما الاَّ في الازمنة الاخيرة لجهل الجميع بمعرفة الدين ومقصدهِ اذ طالما عاش الفريقان بسلام ومحبة وإلفة ووداد. ونحن نناشد كل مسيحي يرمي المسلمين بالتعصب بذمته وبقيتهِ ان يقول الحق ويعترف بهِ. هل توجد بلدان تكثر فيها جمعيات التبشير مثل بلادنا المصريةّ فيها حريةّ التبشير والمجامع الدينيةّ ولا يعترض

(١) قال الفيليسوف آرنست رينان " ان الاسلام هو اول ناشر للحضارة في ربوع اوربا وان الفضل في هذه المدنية الحاضرة لهذا الدين الذي من اصولهِ حرية الفكر والارادة"

(٢) راجع تاريخ دمشق للقساطلي

عليها معترض مثل ما يفعل اهالي البلدان الاخرى حتى نفس المسيحية التي من مذهب مخالف لمذهب آخر هل يلحق بدعاة الدين المسيحي بالديار المصرية اذى او اضطهاد وحيف مثل باقي بلدان العالم التي كل يوم نسمع عنهم اضطرار حكوماتهم ان تدافع عنهم بالقوة والسياسة . أليس المرسلون يفعلون في مصر وفي جميع الممالك الاسلامية ما يثير النفوس ويجلب الظنون بنشراتهم وتعاليمهم . فهل بعد ذلك التسامح والتغافل يرمى المسلم بالتعصب ونفس الطوائف المسيحية هي التي تولد التعصب بعضها بين بعض ولاختلاف المذاهب تلعن الطائفة اختها وتحرمها وتحكم بضلالها وكفرها (١) يرمون المسلمون بالتعصب لسبب اسلام شخص واظهار معتقده بالاسلام لاغراض سافلة فتقوم الطوائف بسبب اسلامه ترمي الدين بما هو بريء منه ويتمادون في سب المسلمين والمسلمات بما هم براء منه ولو كان الذي اسلم حلاق دنيء او صبي صائغ لا شرف عنده ولا علم . لا المسيحية تبكي عليه ولا الاسلام في حاجة اليه . ألا يكفي حجة على خطاء امثال هؤلاء قولهم انهم اطلعوا على ما في الديانتين فرأوا انفسهم في خطاء فاتبعوا الصواب باسلامهم ولو سلمنا جدلاً وقلنا بصحة مدعاهم وانهم اطلعوا على الدينين واتبعوا ما اتبعوا فهل ذلك صحيح ؟

والمسلم نفسه حاضره كما تقدم لا شك ان امثال هؤلاء هم من السفلة الفاقدي الرشد لانهم تركوا الدين الذي ولدوا فيه وليس من دافع لهم الا غرض في النفس . ويقولون اسلمنا حباً بالمسلمين . والدين لا يتبع حباً بالاشخاص بل حباً بحقيقة مبدإه وشرعه . فاين لامثال هؤلاء معرفة المبادىء والشرائع وهم المتبعون شرع اهوائهم بسوء التربية وسقم الادراك . والعاقل مسلماً كان او مسيحياً لا يهمه شيء من ذلك ما دام يعلم ان للاديان جميعاً رباً يحميها ان كان

(١) راجع ما تكتبه مجلاتهم الدينية بهذا الخصوص

حقيقة يرضاها والاَّ فلا دين محمد يعتز بنفرٍ او نفرين ولا تخور همة دين السيد المسيح من ذلك. فاذا كان هذا من امثال هؤلاء الجاهلين يوغر دائمًا الصدور بين الطوائف المتآلفة منها الامة المصريةً . فنحن ننشر داءنا منهم ومما يجرونهُ وينسبونهُ للدين لعلَّ الطوائف الاخرى تحذو حذونا وتشهر دائها وتطلب شفاءهُ من عقلائها والمآل كلهُ لله فيثيب برحمتهِ من يشاء ويعذب من يشاء وهو رب العالمين

حاضر اهل الطرق

والاذكار

قال الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر بن محمَّد السهروردي رحمهُ الله " ان الصوفي من يضع الاشياء في مواضعها ويدبر الاوقات والاحوال كلها بالعلم . يقيم الخلق مقامهم . ويقيم امر الحق مقامهُ . و يستر ما ينبغي ان يستر. ويظهر ما ينبغي ان يظهر. ويأْتي بالامور من مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق واخلاص اه. وقال المرحوم علي مبارك باشا رحمهُ الله في خططهِ بعد ان ذكر ذلك " اقول فمن كانت هذه صفاتهُ يستحق ان يقتدى بهِ بقولهِ وفعلهِ ونحن جميعًا نودُّ ان تكون هذه الصفات لصوفية عصرنا المغمرين في نعم خير بلادنا " اه . اما نحن فنقول حبذا لو ردوا الى اصل دينهم بقوة القائمين على حفظ الشريعة ليرجعوا الى نقاوة في دين وطهارة في معتقد. والاَّ فما حملة الرايات في هذا الزمن الاَّ قوم ملئت نفوسهم بالتلاعب في اصول دينهم لينظرهم الغير وهم في " سياراتهم " التي تدور في الطرقات وامامهم " الزي منير " وخلفها جماعة اهل الاذكار واهل الطرق وهم مشتغلون بالصياح والتصفيق فيعدون عملهم من

مباني الدين الاسلامي . والله يعلم انها اضاليل عامية ما انزل الله بها من سلطان وترى الاجانب يعدون موكب الرؤية والمحمل في مصر من اكبر الاحتفالات الدينية عندنا ويكتبون عنهُ في كتبهم وجرائدهم ما نخجل لو قرأناه

ويا ليتهم على ما تقدم متفقون بل اصبحوا وهم طوائف يضعون القوانين والمغالط ليجعلوها مصايد لاهل العقول المستضعفة ليعتريهم خلل الخروج عن حالتهم التي نشأوا عليها واليك بعض اعمالهم في حاضرهم نقصهُ عليك لتعلم نفاقهم وكذبهم على الله والناس

جماعة المتصوفة واهل الاذكار قوم خبثاء ولو كانوا بهاليل يغشون اطواف البلاد للتجر بالافتراء على الدين الكذب وكسب حطام الدنيا بذكر الله ممزوجاً بدق الدف وقرع الكاسات . بلي بهم الاسلام فاحدثوا فيهِ بدعة الجدال في العقائد وخالفوا الله ورسولهُ في النهي عن الخوض في القدر . يخدعون عامة المسلمين ببهرج القول وزور الكلام حتى كان من فضلهم تفرقهم شيعاً واحزاباً فمن كانت طريقتهُ رفاعية لا يميل ولا يصبو الى من عهدهُ بيومياً ومن كان عهدهُ احمدياً يخالف من كان برهامياً وكلٌّ لهُ اقوال يؤيد بها طريقهُ ويوهن بها طريق الآخر ولو كانت اوهاماً لا نسبة لها بين اصول الدين الصحيح والحق الواضح . كلها يا للاسف اعمال مجلبة للخزي والعار تصيب سهامها الدين والمعتقد لو رآها الغير ومن الغريب انهم يرضون بتمثيلها عند الغير لمبلغ من المال . فيمثلون اركان الدين على زعمهم في اشنع صورة واقبح مثال [1] لتملك الجهل منهم وفشوهِ بينهم وكثرة جماعة البهاليل والكل مدعٍ معرفة اسرار آلهيةً وهم في الحقيقة معتوهون ساقطو

(١) لا ينسى القارئ الذكر الذي كتب عنهُ المؤيد الاغر في منزل البارون او بنهايم قنصل المانيا بالاسمعيلية وكان حاضراً جماعة السياح نساء ورجالاً واهل الطرق يرقصون ويقولون لترجمانهم ان عملهم هذا من اس الدين وقواعدهِ

التكاليف الشرعيّة ودليل ذلك فيهم الرضى بالذهاب الى المعارض الاوربية (١) بغية عرض خزيهم ووقاحتهم التي جروها على دينهم وأُمتهم بفعالهم مثل رقصهم ودورانهم وانكسار الوسط منهم . واشكال ملابسهم التي يلبسونها مما لو رآها اي انسان لضحك واستغرق في الضحك من مرآهم اذ منهم من لهُ زنار وحزام ومن لهُ شعور كشعور النساء وبيدهم العصي المضببة بالنحاس او الحديد مما يشبهُ كل الشبه لجماعة اخوة تبع السيد المسيح عليهِ السلام (٢) وهذه الاذكار اصبحت مفسدة للاخلاق

(١) ذكرت جريدة عثمانلي التركية ان بعض الادنياء منْ اهالي سوريا ومصر اتوا الى معرض باريس ودخلوا جنينة الحيوانات بهيئة دراويش يمثلون عوائد المسلمين وصلواتهم بطرق شنيعة مضحكة وكان الباريسيون يتقاطرون لمشاهدة تلك المساخر الجارة السخرية والهزء بدين الاسلام . فيا لله

(٢) كتب المسيو فيكتور شاربونيل مقالة في مجلة المجلات الانكليزية سنة ١٨٩٩ زعم فيها ان قانون اليسوعيين ونظام رهبنتهم منقولان عن بعض الطرق الاسلامية . ثم قابل بين نظامهم ونظام تلك الطرق وادعى ان اغناطيوس لوايولا مؤسس الرهبنة اليسوعية (ولادة هذا الراهب في عام ١٤٩١ ووفاته عام ١٥٥٦م) اخذ عن تلك الطرق ونسج على منوالها وانهُ سجن اياماً في سجن التفتيش لعلة الاسلام اه

فاذا صح ذلك ولا نخاله الاَّ صحيحاً ظهر معنا ان محاسننا التي كانت فينا ولم تكن في امة اخرى قبلنا قد ضيعناها ونسيناها بفضل رجال الطرق عندنا وفقهائنا . نعم ذلك صحيح فان الملتفت الى طغمة جماعة اليسوعيين يرى بعض الشبه لما لا يخالف سير وسلوك اهل الطرق منا والاَّ فهذا البناء العظيم وذاك الاساس المتين الذي اتى بفضل سيرهم وسلوكهم على طريق نغبطهم فيهِ لا يبعد ان يكون بني على شبه ما بنى عليهِ اهل الطرق بنايتهم قبلُ وكتاب مجاني الادب المجموع من شتات الكتب الاسلامية دليل فان كان هؤلاء اخذوا ما كان لنا وجروا عليهِ ونجحوا هذا النجاح الوافر فلمَ لا نرجع الى ما كنا عليهِ . ولِمَ لا نبعد تلك الاضاليل والاكاذيب التافهة التي في مخيلة اهل الطرق والاذكار . ونبعد تلك الاقاصيص التي نقصها عن اوليائنا واهلينا ونتبع سير من سلف حتى ننجح بعض النجاح الذي نجحهُ من هم ناقلون عنا وآخذون منا

مجلبة للخزي والعار على أمة تأبى الضيم وتنفر من الاذى · والانكى مما تقدم بيانهُ ان الذين ينشدون عليهم الانشاد ينشدونهم من الادوار والمواويل الغرامية مثل "عزيز حبك" (وكان عقلك فين) وهم كل امرد جميل افرغ على نفسهِ الحلل المزركشة والثياب المعطرة

واغلب اذكارهم تكون في الموالد التي سيأتي الكلام عليها والتي فيها يستعمل الحيل والبطالة والدعابة والمزاح وتفقد العفة والزهد والطهارة حتى ينعكس قول ابو نصر السراج لضدهِ

ليس التصوف حيلةً وبطالةً وجهالةً ودعابةً بمزاحِ
بل عفةٌ وفتوةٌ ومروءةٌ وزهادةٌ وطهارةٌ بصلاحِ
وتيقنٌ وتصبرٌ وتوكلٌ وتذللٌ وتكرمٌ وسماحِ
فالى الصلاح غدوهُ ورواحهُ والى الرشاد مساؤُهُ بصباحِ

ولاهل الطرق والاذكار اوهام كثيرة وخرافات عدة منها ما ينسبونهُ الى الاولياء من الكذب والنقص كقول بعضهم ان السيد احمد البدوي "رحمهُ الله" استنكف اخذ العهد من الشيخ الرفاعي وصعد الى السماء مؤملاً اخذ العهد من الرسول "صلى الله عليهِ وسلم" فسبقهُ الرفاعي ومدّ يدهُ اليهِ فتناولها البدويُّ واخذ العهد منها ثم قابلهُ الرفاعي عند نزولهِ وسألهُ ممن أخذ العهد فقال لهُ من الرسول "صلى الله عليهِ وسلم" فقال لهُ اتعرف اليد التي قبضت عليها قال نعم فمد يدهُ اليهِ قائلاً · أمثل هذه اليد فلما تأملها البدويُّ كظم غيظهُ

ومنها ان في الركن الخراب مقاماً للسيد احمد الرفاعي (١) وانهُ موكلٌ بالحيات

(١) الحقيقة ان مقام السيد احمد الرفاعي في ام عبيدة بالعراق في لواء عمار . ورم اخيراً على نفقة جلالة مولانا السلطان عبد الحميد بمبلغ ٣٨٣٧١٧ قرش

والثعابين وسائر الهوام الى غير ذلك من الكذب والافتراء الذي يسوءنا ذكره. هذا
ومما يحسن نقلهُ عن جريدة "مصباح الشرق" الأغر على ذكر الثعابين ان المرحوم
الشيخ البكري الكبير كان جالساً مع الشيخ الغلبان امين الفتوى والشيخ علي الدرويش
شاعر ذلك العصر واسمعيل افندي الخربتاوي من الادباء فخرج عليهم ثعبان ففزعوا
منهُ فقال لهم الشيخ كيف تفزعون من ثعبان وانتم في حضرتي وكان الخدم قد
عاجلوا على الثعبان فقتلوهُ فقال لهُ الشيخ الدرويش " ان الثعبان لم يخشَ جدك في
الغار و بقي أثر ذلك فيهِ وفي ذريتهِ " فتنحنح الشيخ البكري وضحك الحاضرون .
ومن اوهام مشايخهم انهم " التزموا " بعض البلاد وصار كل صاحب طريقة منهم
لا يقول بقبول ذكر الله في البلد الذي هو فيهِ الاَّ اذا كان على طريقتهِ . اذ كر مرة
انهُ لما كنت في بوستة قليوب أُقيمت حلقة ذكر وذكرت جماعة بطريقة البيومية
فجاء شيخٌ كان جالساً عن بعد ونبه القوم لكي لا يذكروا الاَّ طريقة الرفاعية فوقع
الخلاف بينهم حتى كاد يصل الى ما لا تحمد عقباهُ لولا توسط نجل سعادة الشواربي
باشا في المسئلة فانتهت بسلام. ويذكرون ويأْتون في المساجد كل ما هو منهى عنهُ
حتى باتت المساجد مثل حانات او ملاهي لعب ترتفع فيها الجلبة والصياح عدا اتيان
النقائص التي لم تكن تعرف قبلاً وهم بما يأْكلون من لب البطيخ والقرع
وما يلقونهُ من قشور الترمس وجذور الكراث وفتات الخبز يصير بعضها كأنهُ
مستودع للزبالة ونحن ذاكرون في عجالتنا هذه قول علماء المذاهب الاربعة نقلاً
عن جريدة "الحياة" الغراء عدد ٢ سنة ٢ قالت

استفتى بعضهم في سنة ٦٦١ للهجرة علماء المذاهب الاربعة الاستفتاء الآتي
"ما قول السادة الفقهاء ائمة الدين وفقهاء المسلمين وفقهم الله لطاعتهِ واعانهم
على مرضاتهِ في جماعة من المسلمين وردوا الى بلد فقصدوا المسجد وشرعوا يصفقون

ويشطحون فهل يجوز فعل ذلك شرعاً افتونا مأجورين يرحمكم الله "

فقال الشافعي

السماع لهوٌ مكروهٌ يشبه الباطل من قال بهِ ترد شهادتهُ والله اعلم

وقال المالكية

يجب على الحاكم زجرهم وردعهم واخراجهم من المساجد حتى يتوبوا و يرجعوا والله اعلم

وقال الحنابلة

فاعل ذلك لا يصلي خلفهُ ولا تقبل شهادتهُ ولا يقبل حكمهُ ان كان حاكماً وان عقد للنكاح عقداً فهو فاسد والله اعلم

وقال الحنفيةً

لا يصلي على الحصر التي يرقص عليها حتى تغسل والله اعلم

ذلك حكم الشريعة الغراء في اهل الذكر وارباب الطرق منذ ست مئة سنة فما قولك الآن بعد مضي نيف وسبع مئة سنة أُخرى لا شك ان الحالة اسوأ من ذي قبل . ونذكر الابيات الآتية من قصيدة لابي بكر المقري التي قالها قديماً ولكنها تنطبق على من ذكرناهم ايضاً حديثاً وهي

برغم سنة خير العجم والعربِ　　اضحت مساجدنا للهو واللعب
ما كان صلى عليهِ الله يأمرنا　　بضرب دفٍّ ولا زمرٍ ولا قصب
بل سدَّ عن مزمر الراعي مسامعهُ　　صوناً لها ولنا من هذه اللعبِ

ومنها

فضحتمونا وصيرتم مساجدنا　　وهي المصونة كالحانات للعب
شوشتم الدين غيَّرتم محاسنهُ　　فعلتمُ فيهِ فعل النار في الحطب
صيرتم دينهُ هزءًا ومضحكةً　　لكل ذي ملة من قوم كل نبي
هيهات والله ما في دينهِ عوجٌ　　ولا بملتهِ نقدٌ لمحتسب
ولا دعانا الى شيء نعاب بهِ　　ولا الى فعلهِ تزري بذي حسب

ومنها

سألتكم بالذي لا تكفرون بهِ والطائفين ببيت الله ذي الحجب
هل استدار حوالي احمد خلق فيما مضى من ذوي الاسلام والصحب
وقام فيهم مغنيهم كمثلكم للضرب بالدف والتزمير بالقصب

تا لله انهم لو رجعوا الى الحقيقة من دينهم لكان عملهم هذا السخري يتحول الى عزة وجنونهم المشاهد وهزلهم المرئي الى حكمة وعلم

الفقراء والموالد

قال المرحوم علي مبارك باشا في خططهِ ان الموالد التي تعمل في السنة في مدينة القاهرة وضواحيها ما يقرب من الثمانين مولدًا موزعة على اشهر السنة هكذا

٧ في شهر شوال
٥ في شهر القعدة
١٠ « « ربيع اول
١ « « ربيع ثاني
١١ « « جماد اول
٧ « « جماد ثاني
١٠ « « رجب
٢٨ « « شعبان

منها موالد سلطانية كبيرة ومنها بسيطة قاصرة على احياء ليالٍ بسيطة ولقد بين رحمهُ الله اسماء اصحابها فمن اراد احاطة العلم بها فليراجع الجزء الاول وجه ٩٠ من الخطط المشار اليها

وبعض هذه الموالد يلزم زمنهُ وشهرهُ العربي الذي يعمل فيهِ ولا يتحول شتاء وصيفاً فتارة يكون في الشتاء واخرى في الصيف هذا بخلاف ما يعمل منها

في بلاد الارياف مما لا يعلم عدده الاَّ الله. وفي الموالد تكثر الحركة ويكثر الاخذ والعطاء والسلام والكلام لما يأتيها من الخلق الكثير من كافة البلدان كمولد النبي "صلى الله عليهِ وسلم" ومولد سيدنا الامام الحسين" رضي الله عنهُ" والسيدات والامامين والعفيفي والشيخ يونس بمصر وكبار الاولياء كالرفاعي والبيومي وغيرهما وفي الارياف كمولد السيد احمد البدوي[١] وسيدي ابراهيم الدسوقي[٢] فلذا يكثر فيها فعل الموبقات من سرقة وخطف وشرب المسكرات وتعاطي المخدرات اذ تجار المسكرات "السبيرتو" يجتهدون في عرض مسكراتهم ويحببون اليهم تعاطيها باية واسطة كانت حتى انهم يعلنون عنها في الجرائد السيارة[٣] وبسبب الموالد يخترق العوام حدود الدين ويهدمون حصونهُ بترهاتهم الكاذبة. يذكرون الله بألسنتهم ويغازلون النساء المارة النظرة بعد الاخرى وافواههم تقبل صغار الاحداث بينهم والمنشدون يجرئونهم على امرهم ويزيدونهم حماسة في ميلهم بنشيدهم (اذا امتنع بوس الخدود) (وكان عقلك فين). وبديهيٌّ ان اكثر من ثمانين في المئة من زوار الموالد مسوقون اليها بقوة الاعتقاد في اصحابها ولذا من عاقهُ عائق يمنعهُ عن الزيارة يتشاءم جداً من قطع عادتهِ ويتوقع شراً. وهذا الاعتقاد القوي لو وجد لهُ من يستطيع ان يستخدمهُ في طرق الخير كل سنة لكانت الموالد كلها بركات على اهل القطر كافة

(١) ولد سيدي احمد البدوي في مدينة "فاس" بالمغرب سنة ٥٩٦ هجرية وقدم مصر من الحجاز سنة ٣٧ - وادركتهُ الوفاة سنة ٦٧٥ بالغاً من العمر ٧٩ سنة ولقد بلغ عدد زوار مولدهِ سنة ١٩٠١ زهاء الثمانمائة الف زائر

(٢) وبلغ زوار مولد سيدي ابرهيم الدسوقي في السنة المذكورة مائتين وخمسين الف زائراً

(٣) واليك صورة اعلان منهم

ولكن من الاسف ان هذا الاعتقاد في نفوس العامة كلهُ خيالات باطلة واوهام ساقطة تجعلهم يرقبون الاولياء ويخشونهم اكثر مما يرقبون ويخشون الله

ومثل هذه الاوهام التي ترسخ في الاذهان الى هذا الحد تضر غالباً بالاخلاق وتبعدها عن أس المعتقد الصحيح · ونموذج الفضيلة والكمال الادبي.

وهذه الموالد السلطانيةً التي هي مجتمع لاصناف الناس على ازياء شتى ومقاصد متنوعة اكثرها مضرٌ بالاخلاق والآداب بما لا يتصورهُ عقل عاقل. من خلط اوهام بحسن اعتقاد وفساد نيةّ مع سذاجة اخلاق وطباع

نسأل الله ان يبعث من يجدد للعامة دينهم ويثقف عقولهم ويحوّل بساطتهم ووساوسهم الى عقائد حسنة تصلح بها اخلاقهم وآدابهم ففي ذلك فوز عظيم لهم ونجاح باهر اذا تحقق امرهُ . والله يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء . وهو على كل شيء قدير

الاعياد والفقراء

ابهج الايام واجملها ايام الاعياد . اذ تكثر فيها اسباب الهناء والالفة . وتروج فيها سوق المحبة والعشرة . بعد اداء فرض اكرام الرب . وسنة توثيق عرى المودة بين ابناء الجنس . يخلد فيها المرء الى الراحة بعد التعب وتروّح فيها النفوس بعد عناء الاشغال ولا غرو فالاعياد يلبس فيها الجديد وتزين فيها النفوس بثوب الزينة

(صورة الاعلان المشار اليهِ في الوجه السابق)

سيحتفل محل سبتية بار امام المحطة باحياء ليلة باهرة احتفالاً بمولد سيدي الاستاذ المدبولي وقد زين المحل بانواع الزينة وستقام الالعاب النارية من الساعة السابعة مساء الى الساعة الثانية عشرة وذلك مساء يوم الجمعة اي ليلة السبت . وقد احضرت مشروبات من احسن نوع وعلى كل ستكون هذه الليلة من الطف الليالي وابهجها . قسطندي نعوم

والاعياد عندنا معشر المصريين كثيرة جداً ولا يكاد يمر شهر من دون عيد عند طائفة من الطوائف المتكونة منها الامة المصريّة · ولكن لتعدد المذاهب المسيحية لا يعلم ابن طائفة بعيد ابن طائفة أخرى وكثيراً ما يعيّد احدها الآخر فيسمع منهُ قولهُ ان العيد ليس بعيدهِ . وكأنهُ يلزمهُ عند مصاحبتهِ لصاحب ان يعلم مذهبهُ ايضاً حتى لا يقصر في معايدتهِ ابان عيدهِ ولهذا فالاعياد المسيحية تمر ولا يدري بها أغلب المسلمين حتى واغلب ابناء الطوائف المسيحية ولذا لا بهرجة للاعياد ولا تأثير لها مع كثرتها ولا تزاور ولا تواصل فيها وان علم شيءٌ من واجبات الاعياد فاعياد المسلمين في مقدمتها . يذكر الصديق صديقهُ الغائب عنهُ والاخ اخاهُ النازح عن بلادهِ · والمرء اهلهُ وذوي قرباهُ . فتتبادل رسائل الود والهناء حاملة ارق العواطف واحر الاشواق واخلص الادعية واذكى التحية . ولكن الزيارات الشخصية متعذرة عليهم جميعاً كأنَّ كل فرد منهم في بلدة او في مكان بعيد وليسوا عائشين في بلد واحد لاستبدالهم عوائدهم القديمة بعوائد وسنن الغربيين من ارسال رقاع الزيارة اشارة الى المعايدة تقليداً للافرنج في اعيادهم ولو كانت المعايدة على هذا النسق اقل شعوراً بالواجب في ايام ما اصفى مسراتها وابهج حفلاتها

هذا قولنا بالاجمال عن الاعياد بين الامةّ المصريّة واغلب ما ذكر معمول بهِ بين الطبقتين العليا والوسطى . اما الفقراء المقصودون بالذات والذين هم تقريباً كل الامة . فلا يعرفون شيئاً عن الاعياد ولذا لا يعبأون بها ولو كانت تمر عليهم تباعا فاغلبهم ينتهزون فرصتها للانغماس في الملذات والشهوات واعطاء النفس مشتهاها من انواع المجون والانكباب على المسكرات والمخدرات ومحلات الفحش والبغي والعقلاء منهم يسكنون مدة ايام الاعياد في " القرافات " بين الاموات وقليل منهم من يعرف الواجب منها فيتبادل مع اهلهِ واقاربهِ وصحبهِ عبارات

المودة والاخاء مما يدعو الى توفير اسباب الالفة . غير ان الدلائل دلت في هذه السنوات الاخيرة على ان الامة بدأت تدخل في دور اليقظة وتعلم فضل الاعياد المليَّة كما بدأت تعرف فضل الاعياد الوطنيَّة فتحييها وتسرُّ بها وتشترك العناصر المؤلفة منها الامة المصريَّة باحتفال عيد سمو مولانا الخديوي المعظم . مما يدل على ان الاعياد في مستقبل الايام ستظهر بمظهر الابهة والجلال وتأخذ معناها الصحيح المقصودة بهِ . وما احلاها اذا كانت الالفة موطدة والامن معززًا والرغد ناشرًا لواءَهُ والسلام ضاربًا اطنابهُ والجميع عائشين في ظل الرحمة والعدالة مرتبطين بعرى المحبة . كما يعيش الآن المصريون في ظل خديويهم المحبوب اطال الله عمرهُ واعلى في الخافقين بنودهُ وعزز كلمتهُ

سهر الفقراء

كان الفقراء لا يعرفون السهر قبلاً الاَّ في بعض ليالي الافراح او المآتم وكان جل سهرهم قبلاً في بيوتهم او في بيوت جيرانهم بين نسائهم واولادهم يقضون ساعات السهر بسماع قراءة القرآن الشريف او بالافتكار في حل الحوازير او سماع الحكايات . والبحث في الحوازير هذه ملذ مفيد لانها مدعاة لاحتكاك الفكر فيهم ومجلبة لتولد النباهة بينهم والحوازير كالالغاز والاحاجي تكون في الأكل او اللبس وغير ذلك ولا ضرر منها عليهم اذا انتهت من غير كدر بل نفعها عظيم في صرف وقت السهرة في ضحك وسرور (١) . اما الآن فقد تعود الفقراء السهر

(١) منها سؤال — ان كنت حدق ولبق وتعرف الذوق تفسر الجلد من جوًّا واللحم من فوق — جواب — (قونصة الفرخة)

ومنها سؤال — شيء مسكنه من ايديه يحلق لي عينيه — جواب — (برقع)

ومنها سؤال — شيء قد النمنمة يجيب الخيل ملجمة — جواب — " الكتابة "

في القهاوي البلديّة وتركوا عادتهم هذه لسماع القصص من القصاصين او لسماع الرباب من الشعراء الكذابين الذين يقصون عليهم قصص زناتة [١] وسيرة بني هلال وقصة سيف بن ذي اليزن او السلطان حسن [٢] او "دون چوان" [٣] او لسماع الاغاني التي يسمونها "الصهباء" في قهاوي الحشيش ومحال المسكرات او الفرجة على الرقص في مجالس الحناء والفجور على افظع انواعهِ من الحركات المرذولة على جملة معانٍ . وهذه تزرع في نفوسهم التأثيرات السيئة وتوجد في اميالهم واخلاقهم شيئاً كثيراً من المضار والمعايب وبالاجمال ان سهر الفقراء مضر بهم جالب

(١) غاية ما يعرف من مطالعة التاريخ عن جماعة (زناتة) انهم كانوا قبيلة من اعظم قبائل افريقية لبلوغ كتيبتها سعمائة وخمسين فارساً . التجأ اليهم الامير عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام الاموي من ذبح السفاح فقابلوهُ بالترحاب ودخل مدينة اشبيلية وبقرطبة الرئيسان من طرف العباسية يتنازعان قيادة العسكر والسلطنة . فلا يبعد ان تكون قصة زناتة هذه وضعها القصاصون لان في زمن هذين الرئيسين وقعت حرب ظفر احدها علي الآخر وبايعهُ اهل اسبانيا سنة ٧٥٦ للميلاد ونتج من ذلك الوقت انفصال الخلافة المغربية عن الخلافة المشرقية ببغداد . كما يعلم ذلك المطلع على تاريخ الاسلام

(٢) لا يبعد ان يكون السلطان حسن هذا هو الذي تولى سلطنة غرناطة سنة ١٤٦٥ ميلادية وقد كان معروفاً بالشجاعة وحب الوطن ولو رماهُ اهل غرناطة في زمانهِ بالتكبر والقسوة وتغلب حب جارية نصرانية على عقلهِ واختيارهِ ولدها لان يكون خليفة دون ولده ابي عبد الله ابن السلطانة زوريا . ومن المأثور عن السلطان المذكور ان ملك مملكة نواره والوارث لمملكة اراغون اللذين كان لهما التصرف في الممالك الثلاث طلب من السلطان حسن الجزية الذي كان والدهُ يؤديها . فأبى قائلاً للسفراء اذهبوا فقولوا لاسيادكم ان غرناطة ليس لديها ذهب بل حديد لاعدائها ثم دهم مدينة زهرة واخذها سنة ١٤٨٠م وبعدها التهبت نيران الحرب الداخلية الى ما جاء في كتب التاريخ والسير والله اعلم

(٣) غاية ما يعرف عن "دون حوان" انهُ كان رجلاً قائداً نمساوياً حضر الى حصن جوليطة بعد واقعة لينته فاخذ تونس بلا ممانع ونأى عنها سنة ١٥٧٢ ميلادية ولعلهُ هو المذكور في القصص التي تقرأها العامة

الشقاء عليهم في معاشهم ومعادهم اذ لا يخفى ما وراء السهر من فقدان القوة خصوصاً للفقراء الذين هم في حاجة اليها في صنائعهم وحرفهم . والذين لا يمكنهم النوم نهاراً بل ملزومين بالبكور على العمل وليس مثلهم كمثل الاغنياء الذين ينطبق عليهم قول القائل

ينامُ الفتى حتى اذا يومهُ استوى تنبه مثلوج الفؤاد مورما

الفقراء والمسكرات والمغيبات

لا يمنع الفقر والاعسار الفقير من تعاطي المسكرات بل الفقراء اكثر من الاغنياء في تعاطي الخمر ما دامت معامل الخمر كثيرة. والشيطان قد اضلّ الفقراء بالمسكرات فقد استولى فيها عليهم الشر والمرض وهي معهم لا تذر شيئاً من الامل يرجوهُ لهم مشفق عليهم . فلا تعجب يا من هداك الله واجتنبت الخمر من اشقائك في الانسانية وقد اوقعهم الشيطان في معاطب المسكرات والمغيبات يتعاطونها طوراً بحلاوة وطوراً بمرارة واوجد فيهم تخيل انبساط في الاولى ولذة في الثانية فاصبحوا لا يبالون بما ينشأ عنهما من الاضرار ما داموا فيها كليهما صريعي نشوات الغي يعطلون صفايا اعمارهم لامر الشيطان وهو وليهم يحثهم ويشوّقهم منهُ الى ذلك يأمرهم بترك الجد واتباع الهزل فيصدعون بالامر ويسيرون باقدامهم في طريق احزانهم اعوان الشيطان يرمون ببصرهم نحو حانات الخمر ومعاملها الكثيرة فيروا من الوسائل التي تسهل عليهم تعاطي الخمر بل تجرع السم شيئاً كثيراً في مخازن اعدت لهذا الغرض يسمونها " المعامل " داخلها (خبايا) براميل الالكول (الاسبرتو) والسائل فيها اما احمر "وهو الكونياك" واما اسود وهو (الروم) واما

بين ذلك وهو (الويسكي) يحلون مرارتهُ بشيء قليل من السكر و يعطرون رائحتهُ بشيء من الارواح الطيبة يملأُون الزجاجات الكبيرة منهُ بالثمن القليل فيشربها السكير الفقير بقليل من الدراهم متوهماً انهُ يشرب خمرة طيبة مثل التي يشربها الاغنياء . فيحرق كبدهُ ويذبل نضارة شبابهِ ويفسد دمهُ ودمَ سلالتهِ ويسلب حياتهُ بتقصير عمرهِ واقلاق راحتهِ بالسقم والاوصاب وجهل الفقير بفائدة الحياة ولذة الصحة مهدٍ مع الشيطان لتلك المعامل مرشد اليها

ومن مروّجات باعة الخمر انتهاز الفرص لشهرة خمرتهم ومعاملهم . فما تمّ حرب الدولة واليونان الاخير الاّ وتم عمل كونياك (ادهم باشا) . كما انهُ ما تم حرب السودان الاّ وتم عمل ويسكي (كتشنر باشا) . ووضعوهُ في القناني عليها صورة من ذكرنا . وهي نباهة وسياسة عقليةٌ لجر المغنم الكثير من الفقير العسير . حتى لا يكون محور كلام الشاربين الاّ على الحرب ومهارة القائد الذي يشربون خمرهُ . ولا يخفى اتساع باب السياسة سياسة حفظ الوقت عند الاوربيين وسياسة ضياع الوقت عند المصريين فهم الاخذ والعطاء في القول لا يقوم احدهم الاّ وينطبق عليهِ قول القائل

وكل شيءٍ رآهُ ظنهُ قدحاً وانْ رأى ظل شخص ظنهُ الساقي

في مثل هذا الطريق يتعاطى الفقراء المسكرات ولهم خلاف مشروب الخمر مشروب (البوظة) وهي كائنة ايضاً في محال حقيرة رطبة وكثيرة العدد تبلغ في مصر وحدها اثنتي عشرة بوظة اهمها ما كان في بولاق يشرب فيها الفقراء الى ما يوصلهم الى درجة السكر . اما المغيبات فمن اهمها الحشيش الذي لهُ قهاوي عديدة والحشيش هو عصارة نباتيةٌ من نبات يسمى بالقنب الهندي وهو نوع من التيل تاريخهُ في المشرق قديم وقد ذكر المؤرخ الشهير المقريزي ان الذي اكتشف هذا

النبات شيخٌ من الفقراء اسمهُ (حيدر) اكتشفهُ اتفاقاً وأكل من اوراقهِ فحصل لهُ نشاط وسرور فاخبر اصحابهُ بهِ فاخذوا من اوراقهِ وأكلوا فحصل لهم من السرور والطرب ما حملهم على كتمان امرهِ وصيانة سرهِ عن باقي الفقراء . وقال لهم ان الله خصكم بهِ ليذهب همومكم الكثيفة ويجلو افكاركم وامرهم بزرعهِ حول ضريحهِ بعد وفاتهِ سنة ٦١٨ للهجرة . وكان قد اوصى اصحابهُ ان يوقفوا ظرفاء اهل خراسان وكبرائهم على هذا النبات فاعلموهم بسرهِ فاستعملوهُ وشاع امر الحشيش في بلاد خراسان وفارس ثم حمل الى العراق والشام ومصر . هذا غاية ما يعلم من امر تاريخ الحشيش . والحشيش محرَّمٌ شرعاً بلا نزاع . ولقد افتى الامام المزني تلميذ الامام الشافعي رحمهُ الله بحرمانهِ على مذهب الامام الشافعي (رضي الله عنهُ)

ومما يذكر من نوادر الحشيش ما جاء في كتاب خلاصة تاريخ العرب من ان رجلاً يسمى حسن الصباح سافر كثيراً وتبحر في العلوم وعرف فرق الدين المحمدي اخذ في القرن الحادي عشر من الميلاد يعظ الناس ويحثهم على اتباع مذهب جديد يغلب على الظن انهُ قريب من مذهب (الكرمانية) فتبعهُ خلق وجموع ملك بهم عدة قلاع وحصون واستوطن (حصن الموت) المشيد على هضبة قرب قزوين فلقب بشيخ الجبل واعلن العداوة للسلمين والنصارى ورأى نفسهُ بمنزلة الاله الثاني الذي شغلهُ الاقتصاص من الظالمين للمظلومين ونفذت اوامرهُ فيمن معهُ . فكان اذا امر بقتل احد منهم بادر بالقاء نفسهِ من شاهق الجبل على أسنة الرماح او طعن بطنهُ بخنجر او امر بقتل احد من غيرهم بادروا بقتلهِ ولو وزيراً او سلطاناً او خليفة عباسياً . اخبر قومهُ ان شارب الحشيش يذوق جميع لذات الفردوس — فكانوا كالبهائم بسبب السكر بالحشيش مستعدين لارتكاب اكبر الجرائم — ولذا سماهم المؤرخون بالحشاشين لا بالحساسين اي

القتالين كما زعم الافرنج — وأذن لهم في النهب فنهبوا وجالوا باسلحتهم في الشام حتى بلغوا جبل لبنان وبنوا في الشام اماكن محصنة ونهبوا جميع القوافل التي تمر بارضهم وقطعوا الطرق وملكوا في غرة القرن الثالث عشر من الميلاد كثيراً من المنازل في العراق والشام وحصوناً أُخرى قرب دمشق وحلب وتوطنوا من ابتداء سنة احدى وستين ومائة والف ميلادية بالعراق الفارسي فبذل الملك شاه عزائمهُ في اعدامهم فلم يبالوا بذلك . بل يقال ان نظام الملك الذي كان الوزير الاعظم لهذا السلطان قتلهُ احدهم لشدة تعصبهِ وغيرتهِ على مذهبهِ الديني . وكان هؤلاء الحشاشون مع الفاطمية لحزب واحد لشدة مخاصماتهم وادمان مشاجرتهم مع اهل السنة (١) ونحن نذكر ذلك وهو غاية ما وصل اليهِ علمنا ومن شاء زيادة معرفة اصل الحشيش وتاريخهِ فليراجع ما كتبهُ المؤرخون الثقات يجد المجال فيها متسعاً والحشيش تأثيرهُ يقرب من الافيون بالنسبة لفعلهِ السام ويزيد عليهِ انهُ يحدث التسمم بالتدخين او الاستنشاق فاذا دخنهُ شخص في السجاير او في النرجيلة او وجد في محال تدخينهِ فاستنشقهُ حصلت لهُ اعراض التسمم بدرجات متفاوتة يعلمها الاطباء . كما يعلمها من شاهد الفقراء الحشاشين في مصر اذ هو المتصف بانهُ المجلب للنحافة بالتدريج واصفرار الوجه والجسم وارتخاء الاجفان واحتقان العينين حتى لا تحمل الضوء . كما انهُ يكثر السعال وتنتهي حال شاربهِ بالبله وضياع الاحساس والعمر . فلذا قلّ جداً المعمرون من المدمنين على تدخينهِ . والحشيش بين الفقراء علة متأصلة فيهم تذهب بنضارة شبيبتهم وبنشاطهم ونفع البلاد المرجو منهم . فلذا هو آفتهم وعلتهم الكبرى التي دونها علة الخمر . واقدام الفقراء

(١) راجع وجه ١٣٨ من كتاب خلاصة تاريخ العرب للاستاذ (ستيد) المترجم بامر المرحوم علي مبارك باشا

على تعاطيهِ ناتجٌ عمّا يجدونهُ فيهِ من الفرح والانشراح عند حلول الكدر والكآبة فتراهم يدلون بعضهم البعض بالاقدام على استعمالهِ في التراجيل حتى يزول ما بهم من الاسف والأسى وجهلهم بحرمانهِ سبب ثانٍ لاقدامهم على تعاطيهِ اذ في امثالهم — ان الحشيش لايمنع ولاية — ولو كان مخالفاً لما بيناهُ فيما تقدم الاَّ ان الاقتداء والجهل العام بينهم المنتشر فيهم جعلهم عمياً عن معرفة حقيقة ما يضر وما ينفع • وتكاد تكون النفس ميالة فيهم الى تعاطيهِ بكميَّة تزيد كل يوم حتى يشتهروا على زعمهم بامكان حل المشكلات وايجاد سرعة الخاطر بالتكلم بالالفاظ وبالنكت المضحكة التي تضيع الزمن بحيث لا يشعرون • ولقد جرب مفعول الحشيش كثيرون من العلماء وكتبوا عنهُ وحكموا بضررهِ وانهُ سبب مهم لافساد نظام الصحة وتعب الجسم والعقل والامراض العاصية (١) زيادة عن الامراض التي تبتلي بها الفقراء والحكومة المصرية تمنع دخولهُ وتفرض العقاب الشديد على من يتجر بهِ او يسهل على الناس تعاطيهِ في القهاوي ولكن جماعة الحشاشين لم

(١) تناول بعضهم مقدارًا كبيرًا من الحشيش بقصد التجربة العلمية ولما انقضى فعل الحشيش بهِ وثاب اليهِ عقلهُ وصف ما شعر بهِ في اثناء فعلهِ فقال

تمكنت الهواجس من نفسي ثم جعلت تحل قيودها وتنهال على عقلي انهيال السيل وتتشكل في اشكال هندسية بالغة حد الاعجاز في احكامها والوانها وكانت هذه لاشكال تمر سراعاً امام بصيرتي حتى يتعذر عليَّ وصفها وصار رأسي اتوناً تنبعث النيران منهُ وتتفرع نجوماً لم أرَ في حياتي ما يشابهها في بهاء الوانها وشدة اشراقها وضاع مني حكم الزمان فلم ادرِ افي دقيقة حدثت تلك الحوادث ام في مئة عام • واستولت عليَّ الكآبة كأن قدمي غارتا في الارض وغرقت فيها الى الخناق لثقل ما علق فيَّ برجليَّ من الاثقال ثم وجدتني صرت خفيفاً كالاسفنج فامسكت شجرة كانت بجانبي لكي لا اطير في الهواء ثم اخذ جسمي يرتعد كأن مجرى كهربائياً جرى فيهِ وشعرت كان طوقاً من الحديد طوّق راسي وضغطهُ حتى كاد يسحقهُ فاغمي عليَّ من شدة الالم • وحتى الساعة ترتعد فرائصي حينما أُفكر بما كنت فيهِ من

منتهى البراعة في جلبهِ من الخارج ومنتهى التفنن في تعاطيهِ من غير ان يشعر بهم احداً[1] وهم يتعاطونهُ ضمن المعاجين والملبس وغيرها او قد يذهبون لتدخينهِ في الجهات الغير مأهولة بالسكان مثل جهات مدافن الاموات البعيدة عن نظر رجال الضبط · وترى شاربي الحشيش مع هبوط قوتهم وارتخاء مفاصلهم يهرعون الى محال شرب الحشيش · وانت لو كلفت احدهم بامر من ورائهِ نفع لهُ لا يقوى على عملهِ ويعتذر بضعفهِ · واكثر اقدام الفقراء لتعاطي هذه الاشياء المسممة لاجسامهم يكون في الايام الاول من ايام الزواج · فانهم يوصون بعضهم بعضاً بأخذ المقويات للجماع من مثل المعجون المسمى بدواء المسك والمعجون الهندي والرومي

العذاب · ولا يقاس رعبي حينئذٍ الاَّ برعب من رمي من حالق أو ربط بالسلاسل ووضع تحتهُ الحطب وأُضرمت فيهِ النار وحسبت ان الحالة التي كنت فيها لا تنقضي مدى الدهر فاستولى عليَّ القنوط ووددت ان اترك نفسي و فرَّ منها لانجو من هذا العذاب · ثم شعرت كأني أخذت أطول بسرعة حتى علوت فوق الافق ونطح رأسي قبة السماء وانقطع فعل الحشيش فثاب الرجل الى نفسهِ وعاد الى بيتهِ . و بعد قليل خرج منهُ فعاودهُ فعل الحشيش وقال في ذلك · شعرت كأن جدران الكون انبسطت حولي وصدرت اصوات مطربة ازالت ما في نفسي من الغم والخوف وفتح امامي فردوس النعيم وخضت في بحر من البهجة والحبور جسداً وعقلاً ونفساً وطفح الحب والسرور على نفسي و بعد ساعات قليلة اخذت هذه المناظر تقل وضوحاً وشعرت بجوع شديد فدخلت فندقاً اكلت فيهِ كل ما قدم لي من الطعام وانا احسبهُ ألذ ما ذقتهُ في حياتي · ثم عدت الى مخدعي وانطرحت الى سريري فنمت الليل كله ونهضت في الصباح ولم يبقَ من تأثير الحشيش سوى اصفرار وجهي وتعب جسمي والاسف على ما فات اه (مقتطف جزء ٩ سنة ١٨)

(١) جاء في تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٠ م بلغ كل الحشيش الذي ضبطتهُ مصلحة خفر السواحل في القطر المصري ١٣٥٥٥ كيلو غراماً والذي ضبطهُ البوليس ١٥٦٦ كيلو غراماً والذي ضبط في الجمارك ٥٠٤ كيلو غراماً والمجموع ١٥٦٢٥ كيلو غراماً فهو يزيد عما ضبط سنة ١٨٩٩ م ٦٤٧٧ كيلو غراماً و يزيد ٥ اطنان عما ضبط في اي سنة من السنين السابقة

والجراوش والمنازيل الاخرى التي منها الباهنج المستعمل في الهند والجانجاه التي تستعمل على هيئة سجاير في بلاد كلكته والشيرة التي هي مادة راتنجية مختلطة مع اوراق الحشيش وغير ذلك من الاصناف العديدة

هذا وكهول الفقراء يتعاطون الافيون المحتوي على المورفين الذي قد يحدث الهلاك لمناسبة انهُ من المواد السمية . وعلى ذكر الافيون يدعون من يتعاطونهُ منهم انهُ غير مضر بسبب انهم يتعاطونهُ من زمن مديد ولم يمسهم بسوء . اللهمَّ الاَّ مايوجب الكيف وهم يحللونهُ ويحرمون الخمر ولعمر الحق ان الشيطان يزين لهم اعمالهم ويزيدهم طغياناً حتى يسوقهم الى اسبتالية المجاذيب ومن اوضح الادلة على ما يصيب الفقراء من كثرة الضرر لتعاطيهم المسكرات والمغيبات وما يجلب على نفوسهم من التعاسة والويل وضروب الخسف وجهد البلاء ما نذكرهُ من المخازي للعشاق الاحصائيين عن قوم يتعللون من فرائس الجهل الذي هم قائمون فيهِ رجالاً ونساءً على اسوإٍ ما يتصورهُ الخيال من سوء الحال مما يستدعي بكاء الحجر الاصم نذكرهُ نقلاً عن تقرير اسبتالية المجاذيب الذي عملهُ جناب المستر ورنوك مدير الاسبتالية المذكورة في سنة ١٩٠٠ م قال

قد بلغ عدد الذين دخلوا الاسبتالية المذكورة من الذكور سنة ١٩٠٠ م ٤٥٤ وقد تبين ان ١٢٥ منهم جنوا من تعاطي الحشيش وان ٢٧٤ مريضاً خرجوا في السنة المحكي عنها مع انهم لم يزالوا مرضى لايجاد محلات لمن هم في اصابات عظمى عنهم . وفي التقرير المذكور بيَّن جناب المدير عدد الموجودين في الاسبتالية من المجانين الغاية آخر سنة ٩٩ م وبيَّن اجناسهم واديانهم فقال بعد ان شكى كثيراً من ضيق المحلات

عدد المجانين واجناسهم واديانهم

الجنس	عدد	
مسلمون مصريون	٤١٣	مسلمون
اتراك	١٤	
برابرة	١٧	
سودانيون	٣٥	
احباش	٣	
هنود	٠١	
مراكشيون	٠٣	
اقباط	٢٥	مسيحيون
احباش قبط	٢٥	
سوريون	١٩	
فرنسويون	٠٣	
طليانيون	٠٧	
مالطيون	٠١	
يونانيون	٨	
انكليز	٠٢	
نمساويون	١	
سويسريون	٠١	
ارمن	١	
اسبانيول	٢	
يهود	١٩	

عددهم بالنسبة للحرف

وظائف	عدد
علماء	٩
كتبة	٠٣١
معلمون وتلامذة	٢٥
تجار	٢
عساكر بوليس وتراجمة وخفراء	١٥
نجارون وحدادون وقماشون	٨٩
بناؤون وسقاؤون وفحامون	٢٢
خدم وساقة ومكارون	٢٩
مغنون وشحاذون و باعة	٥٩
حرف مختلفة	١١٩

عددهم بالنسبة لاسباب الجنون

	المجموع	ذكور	اناث
حشيش	٢٠٥	١٨٧	١٨
الكحول	١٦	١٢	٠٤
داء الزهري	٢٧	١٩	٠٨
« السل	٠٢	٠٠٠	٠٢
« الصرع	٣٩	٢٩	١٠
قلة غذاء	١٣	٠٦	٠٧
حمّى تيفوئيدية	٠٣	٠٢	٠١
اغماء	٢٤	١٥	٠٩
نزيف دموي	٧	٠٧	٠٠
بالوراثة	٢٩	٢٤	٥
جنون دماغي	١٠	٠٧	٠٣
تقدم في السن	١٠	٠٣	٧
افراط في الجماع	٠٣	٠٣	٠٠
حزن وفقر وشقاء	٣٤	٣١	٠٣
اسباب غير معلومة	١٨٨	١٢٩	٥٩

ثم بيّن في جدول نمرة ١ ونمرة ٦ من التقرير المحكي عنهُ الجهات الوارد منها المجانين من محافظات ومديريات فمن المحافظات مصر وهي الاهم ثم تليها الاسكندريَّة ومن المديريات مديرية الغربيَّة ثم تليها المنوفيَّة فالدقهليَّة فالشرقيَّة فجرجا

وبالجملة ان ضرر المسكرات والحشيش والمغيبات على الفقراء اشد نكالاً من الفقر بل هم بالحقيقة مرضى في عقولهم داءهم شهواتهم علتهم ضعف ارادتهم تنصرف قوتهم فيما يضر سفهاً وجهلاً فهل للانسانيَّة من نصير ينظر لهذا الامر الخطير بعين

الرأفة ويقوم بعمل نتيجتهُ انتشال هؤلاء الفقراء من وهدة البلاء والفقر وما تلك الوهدة الاَّ الجهل

اوهام الفقراء وخرافاتهم

قال حكيم اتركوا الجهالات فتحيوا وسيروا في طريق الفهم

الاوهام هي صورة المرئيات او المحسوسات او المسموعات يكبر حجمها او يصغر بقدر اشتغال الفكر لقبول الخرافات او رفضها . فهي اذًا صورة مأخوذة عن حقيقة بواسطة منظار عدستهُ تكبر الاجسام او تصغرها بعامل الميل الشخصي الى تعظيم الامور او تحقيرها فعليهِ لا تعتري الاوهام الاَّ ذوي العقول الضعيفة وقلما تعتري غيرهم الاَّ اذا كان عندهم ضعف في الدماغ او انحراف في الجهاز العصبي . فنستنتج مما تقدم ان الاوهام مرض عامٌ منتشر مكروبهُ في كل مكان الاَّ ان العاقل المتعلم يقوى عليهِ فيضعفهُ . والجاهل غير المتعلم لا يقوى عليهِ فيصبح مرتعًا لهُ فيسرح فيهِ ويمرح . واعظم شاهد على ذلك ما هو مرئيٌّ بين العامة لشدة استعدادهم لقبول تأثير الاوهام والخرافات عليهم . وما ذلك الاَّ لشدة انغماسهم في الجهالات . واكثر اوهام العامة في المسائل الدينيَّة وخرافاتهم في المسائل العموميَّة

اما الاوهام الدينيَّة فنقتصر على ذكر شيء منها غير السابق ذكرهُ في الفصول السالفة اذ عندهم الاوهام معتقد آخر لا يمكن امالتهم وزحزحتهم عنهُ . فمن ذلك الاعتقادات الوهميَّة فيهم في الحجب والاحراز الكثيرة التي يعتقدون فيها البركة والشفاء من الامراض (والارياح) والآلام والاسقام . ويعتقدون فيها النفع حال الدخول على الوزراء وارباب الاقلام . ويعتقدون فيها انها مجلبة المحبة والقبول . وانها تمنع عنهم كيد الاشرار في سرى الليل وسفر النهار . وتنفع من لدغة العقرب

والثعبان . وهي كثيرة منها " حرز الفاسلة " "وحرز الاسقام " "وحرز الاندرون" " ودعاء عكاشه " " والمخلفات " " وحرز الجوشن " " والسبع عهود السليمانية " وغير ذلك

هذا عدا عن ادعية كثيرة تتلى او تكتب في أوعية اما بماء الورد او الزعفران ثم يشربونها على امل الشفاء من اسقامهم واوجاعهم . ومن قبيل ادعيتهم هذه دعاء أوله " لخيثا وشمخيثا " الخ وهي وأيم الحق دعوات مجهولة لا تعرف لها حقيقة ولا اصل ولا معنى في اللغة العربية الا عندهم فيزعمون انها من الاسماء العظام والادعية المستجابة . وهي لا تزيدهم الا بعداً من الله وقرباً من الشيطان وربما كان في اعتقادهم فيها ما يخرجهم عن دائرة الايمان الصحيح . ومن أدعيتهم التي يتلونها سبع مرات بعد صلاة الصبح الدعاء الذي اوله (يا كشهشطليوش كشهشطليوش) أقمني وأقم صورتي وذاتي ووجهي عدك وعند خلقك آمين يا ارحم الراحمين

وبخلاف الادعية لهم عزائم نقرأ كثيراً بعضها يعزمون بها لوجع الضرس او لتسكين الصداع وآلام الرأس . وللصداع دواء آخر وهو ان الزعفران اذا حلَّ بخل ولطخ بهِ الصدغان يسكن الألم ولباقي آلام الجسم عزائم . ولهم جملة كتابات لطرد النمل وباقي الحشرات منها انهُ لو كتب على جريدة خضراء او خوصة خضراء " اطلع الرب فنظر والعيوب فستر وللذنوب فغفر ارحل ايها النمل كما رحلت الرحمة عن شيوخ القرى الذين باعوا الجفن باللقم عنسج منسج نمرا " يهرب النمل ولا يوجد لهُ اثر . وجملة كتابات لمنع الحبل وما يكثر النسل منعنا عن الاتيان على وصفة منها قلة الأدب فيها . وللعامة خرافات واعتقادات جمة في نسبة الولاية لكل مشعوذ اومشعوذة او مهبول او مهبولة . فلذا كثر المجاذيب في هذه الايام من المدعين

الولاية وكثيراً ما نسمعهُ كل يوم عن اتيان البدع والمنكر التي تمس الدين وتشين الشرع الشريف لان ظهور هؤلاء بهذه المظاهر امر يدعو الى فساد العقيدة وافساد عقول الناشئة والعامة . هذا بخلاف ما في نفوس العامة من الاعتقادات حتى في الجنازات فانهم ان اسرع حاملوها في المسير ظنوا في الميت الولاية فيفرحون ويؤمنون بكرامتهِ ويقلبون لهُ النعال ليبطئ في سيرهِ

وكثيراً ما تتجاوز اوهامهم الخرافيَّة سنن العقل حتى انهم قد ينسبون الولاية الى الحيوانات والنباتات فالجمل لو رأوهُ يرغي ويزبد ينسبونهُ للولاية ويلتمسون منهُ البركة . وشاهدنا على ذلك جمل المحمل وأهم النباتات التي يعتقدون فيها الاشجار الضخمة والاجذاع النخرة فان هذه لو رأوها يقرأون لها الفاتحة ويقبلونها . مثال ذلك الشجرة التي (تدعى الشيخه خضره) في جامع الحنفي رحمهُ الله فان الزائر يجدهم يتبركون بها ويقبلونها فضلاً عن ترك اثرهم عليها معلقاً بمسمار . كما ان كل شجرة غليظة الساق تكون من مدة سبقت يطلقون عليها لقب "سيدي الاربعين" واغلب هذه الاشجار من شجر الجميز [1] وكثيراً ما يقومون بعمل الموالد لهذه الاشجار [2] وكما يعتقدون بالاشجار يعتقدون بالابواب الاثرية القديمة ويتبركون بها ويقرأون لها الفاتحة لو مروا عليها ولدينا شاهد "بوابة المتولي" فان عليها رجلاً درويشاً يأخذ النذور وهو معلق راية بجانبهِ وفي نوساً في النهار حتى اذا مرَّ عليهِ السياح

---

(١) في خرافات المصريين القدماء انهُ كان في الصحراء شجرة جميز يسكنها ثلاث من معبوداتهم وتأوي اليهِ ارواح الناس بعد الموت . ولعل هذه الخرافة باقية بين العامة من خرافات المصريين القدماء حافظوا عليها وبقوا ينظرون الى شجرة الجميز نظراً ترجمهُ الوقار الديني

احمد بك كمال مقتطف جزء ١٢ سنة ٢٤

(٢) في دائرة المرحوم جلال باشا شجرة جميز يعمل لها مولد في غرة مارس من كل سنة واحياناً يحضر مولدها انجال المرحوم جلال باشا

الاجانب يشاهدونهُ ويأخذون منهُ شاهداً على تأثير الاوهام الفاسدة في عقولنا والجهل المتسلط على افكار المسلمين في دينهم .

وفي جامع الامام الحسين " رضي الله عنهُ " عمود من الرخام يشكو الى الله من فساد اعتقاد المتمسين لهُ المتبركين بهِ وهذا العمود يدعي العامة وبعض من الخاصة بان السيد البدويّ يحضر اليهِ في كل ليلة « حضرة »

وللعامة وهمٌ واعتقاد في بئر « غير البئر التي في جامع اولاد عنان » في صحن جامع السلطان الحنفي وانها موصلة الى بئر زمزم ويروون رواية كذبها ظاهر من أول مرة وهو ان رجلاً كان مرة في مكة المشرفة يشرب من بئر زمزم فسقطت فيها الطاسة التي كان يتناول الماء بها فلما حضر الى مصر وجدها في هذه البئر .

هذا بعض من اوهام العامة الدينية الذين هم كل الامة تقريباً ذكرناها ولا نرجو الاَّ الاجتهاد في صرف افكارهم عنها فقد كفاهم باقي حاضرهم الشاهد المعيب وقد ضجت الارض الى بارئها مما ينتهكون بهِ حرمات الله وبهِ يجحدون « ومايؤمن اكثرهم بالله الاَّ وهم مشركون»

اما خرافاتهم على العموم فشيءٌ لا يعد ولا يحصى . ومن أهمها اعتقادهم في العرافين بان في امكانهم قتل الانسان او قلب صورتهِ الآدميَّة الى اية صورة ارادوها بكتاباتهم السحرية وبتكليفهم ارهاط " الجن " عمل ما يريدون عملهُ لانهم في عرفهم مسخرون لقضاء اغراضهم وهم في استطاعتهم " ربط " الرجل عن امرأتهِ حتى ازالة اعضاء تناسلهِ . وتعويق المرأة عن الحبل وفك المشاهرة منها او اغاظة زوجها ان لم يكن طوع ارادتها اوكان في عزمهِ التزوج عليها . وكل ذلك بما يسمونهُ " الشبشبة وحلب النجوم " (١) ومن خرافاتهم عدم غسل الملابس في يوم الاربعاء آخر الشهر

(١) انظر الكتاب الثاني من طب الركة وجة ٦

او تفصيل الملابس يوم الجمعة. ولهم في الاحلام تفاسير كثيرة يتخوفون منها او يفرحون . وللكابوس تأثير مخيف جداً على اذهانهم صغيرهم وكبيرهم وهم يعتقدون بانهُ روح شيطاني يفاجئ النائم ويسومهُ اشد العذاب فيتقونهُ بالاحراز التي تقدم الكلام عليها . او بعمل الاحجبة من اولئك المتخذين الشعوذة والتدجيل حرفة لهم للتحصيل والاكتساب [1] . وعندهم خرافة ان في كل بيت ثعباناً يسمونهُ "عامر البيت" ولذا هم لا يؤذونهُ لو نظروهُ حتى لا يؤذيهم بل يحضرون لهُ احد "الحواة" لاخراجهِ [2] . ولهم اعتقادات جمة في الطير من حمام وغراب وغير ذلك من باقي الاشياء التي ضربنا صفحاً عنها خوف الاطالة المملة. هذا بعض من اوهام العامة وخرافاتهم على العموم التي يأخذونها من صور المرئيات او المحسوسات او المسموعات التي تكبر فيهم بقدر ميلهم الشخصي وعلى قدر عقولهم الضعيفة ذكرناها للقارئ مثالاً ليستعيذ من شرها ويسأل الله البعد عنها انهُ اكرم مسأول

الزار والفقراء

لم يكتفِ الزمنُ بما حاقَ بالمصريين من المصائب والاخطار التي تنازعهم وينازعونها بل اخذ يجرّهم كل يوم الى هوة التأخر والاضمحلال مستعيناً بالنساء على قضاء لبانتهِ بابتداعهِ كل يوم بدعة جديدة تسقط بها الامة المصرية في اعين الامم الحية الشاعرة بواجباتها

«١» ان شئت ان تعلم حقيقتهُ وعوارضهُ وقول العلماء المحققين عنهُ راجع وجة ٢٢٨ من السنة الثامنة عشر من المقتطف الاغر

(٢) الحواة قوم يحملون الاجربة على اكتافهم وينادون في الشوارع والازقة بقولهم يارفاعي مدد غرضهم بذلك التعيش بمسك الثعابين ولهم مهارة وحيل في القبض عليها

فمن أهم هذه البدع بدعة الزار الذي هو عبارة عن جمعية نسائية تشترك الجارية والسيدة فيها ثم يأخذنَ بدق الطبول دقات مزعجة ويتبادلنَ فيهِ الرقص والتمايل والبكاء الهائل. والركوع والسجود وضرب الخدود وحل الشعور وقرع الصدور في وسط تتلى فيهِ الاكاذيب على الله ورجاله الصالحين. فكم من وليٍّ بعد حياتهِ وصلاحهِ أُتهم بالكفر والشيطنة ونسبت اليهِ كرامات لا يرضاها ومعجزات يأباها من قوم يدعون بان الشياطين تركبهم متخذين هيئة ملك او سلطان او جواري وغلمان. مجرد حيل وترهات دونها حيل ابليس لقضاء شهوات رديئة لا يمكنهم نوالها الاّ بهذا الكذب والافتراء حتى ان الزار اودى بالعائلات الى حضيض المسكنة والهوان. والزار مع انهُ عام بين المصريين كافة الاّ انهُ يكاد يكون خاصاً بالمسلمين واسبابهُ الحقيقيةّ عدم التربية وتهذيب الاخلاق بفهم الدين كما مرّ

والأَضعف التربية وعدم تهذيب الاخلاق يزري بالمرء الى اكثر من ذلك وقلة فهم المعيشة الزوجيةّ من أهم مسببات الزار. والمتأمل يعلم ان اسباب الزار هو سيطرة الرجل على المرأة ومعاملتهُ لها بالقسوة والحدة والغضب فتعمد الزوجة الى الانتقام من زوجها بواسطة تعللها بالزار وبأن عليها "ريحاً" من الجن لا تستريح منهُ الاّ بزيارة الاولياء

ومكر النساء وحيلهم اكبر من ان يدركهُ الرجال وجهل الاهل بالتوفيق بين الزوجين يساعد الزوجة على توفير مبتغاها في هذا الطريق السافل

ولذا تاخذ من ادعت بالزار بالاستعانة باهليها في امرها حتى اذا اكتسبت مساعدتهم ضد زوجها فاما ان تجري مشتهاها من الزار في بيتها او في الاماكن المعدة لهُ. وكم من عائلة اتاها الزار وهي مطمئنة فخرّب بناؤها وجعلها في اسفل الدرجات والزار لهُ نساء مخصوصات تدعي واحدتهنّ "بالكدية" ولهُ اعوان من النادبات.

وله مطالب من عال ودون فتذهب فيه الاموال جزافاً واسرافاً. ولوكان في شيء تافه من مثل دجاجة بيضاء ونعجة سوداء تاخذ دماؤها في اناء وتدلك به المفاصل وله رقى يرقى به صاحب الزار حتى يجاوب "العفريت" على حقيقة حالته ومقصده وهؤلاء "العفاريت" لهم اسماء كثيرة بعضها اسماء تشبه الاسماء التركية او العربية وبعضها غير مفهوم لها معنى مطلقاً. واهم محلات الزار في مصر واغلب جهاته المساجد ومقامات الاولياء الذين لا يرضون بهذا العمل ويغضبون منه

وقد شاهدنا الزار في مساجد كثيرة ومقامات عديدة في اغلب ايام الجمع ساعة صلاة الجمعة وهو في "جامع البيدق" جهة العشماوي "والشيخ يونس" "وابو السعود". "والشيخ نجم الدين" "وسيدي عوف"

ولا يقتصر الحال فقط على ذلك فان له نقطاً كثيرة ايضاً كجهات السبتية وسوق العصر ومقابر باب النصر كل هذه الجهات هي مأوى الزار وعشه الذي يبيض ويفرخ فيه يجتمع فيها الرجال والنساء مختلطين بدعوى الزار فيضربون على الدفوف ويدقون على كؤوس النحاس وينفخون في عيدان الغاب حتى انه من كثرة هذا الاختلاط لا يصعب على الرجل لو شاء ان يهوى الى اذن المرأة فيوحي اليها ما يوحي بلا حياء من امام او شيخ مقام فان هذا لا يهمه شيئاً سوى اخذ الرسم وهو قرش

هذا والزار محظور عمله شرعاً بفتوى صدرت من مشيخة الجامع الازهر. ومحظور عمله قانوناً بامر من الحكومة فانها فرضت العقاب على من يقدم عليه. ولكنه يعمل في الاماكن المتقدم ذكرها الى الآن وليس هناك من يواخذ عنه من رجال الاوقاف ولا من يخبر عنه الحكومة من مشايخ الحواري لان الاولين لهم منه مغنم والاخرين يعود منه عليهم بربح وناهيك بحقيقة مشايخ الحواري فانهم من

الرجال المفقودي الذمة المتغافلين عن عملهم بالاستقامة وحقهم ذلك ما داموا مسخرين لقضاء اغراض لا ينالون عليها اجرة فيلتزمون اخذ الرشوة والتغافل عما قضتهُ الشريعة وقرره القانون

الفقراء المرضى

"يقول الله ان كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي" فالسعي بدرء ما يعتري اخواننا من المرض مأمور بهِ في ديننا عدا ما في سجية المرء العاقل من الحنان والشفقة على الفقراء المرضى دون ان يذكرهُ مذكر ليشعر بالالم فيدرأهُ بالوسائط الممكنة . وما الانسانية الأ شعور بمحبة تسكن القلب واللب وتندمج في فطرة الانسان نحو اخوانهِ وبني جلدتهِ . وما دامت هذه العاطفة عاطفة حنان شريفة وحمية سامية تأخذ بالمرء لمشاطرتهِ بني طينتهِ آلامهم ومصائبهم وتحدو بهِ الى السعي في مؤاساتهم . وما دام الواجب على العاقل ان يسدي من هم اقل منهُ ثروة وجاهاً صحة وعقلاً ويمنحهم ما يتأتى على يدهِ من الخير ويوفق بين نسبة سعادة حالهِ وسعادة احوالهم لعلمهِ ان المرءَ كثير باخيهِ قليل بغيرهِ . فليذكر الانسان حينما يرى فقيراً مريضاً انهُ احد اخوتهِ وان السعي في مؤاساتهِ ومداواتهِ واجب عليهِ وانهُ متى اسدى اليهِ خيراً فقد اتصف بصفة العقلاء الذين يجرون على قول قائل مشهور

"كل رجل في الدنيا نسيب لغيرهِ غير غريب عنهُ لعلمهِ انهُ رجل"

وهؤلاء فقراء المصريين كافة والمسلمين خاصة محتاجون الى ما يدرأُ عنهم المرض بواسطة انشاء المستشفيات والملاجىء ويقيهم ما هم معرضون لهُ بفضل جماعة

المتطببين الجهلاء الذين ان ارادوا ان يفيدوا اضروا "والمريض اجهل من المتطبب طبعاً "بواسطة الحبوب التي يعطونها وكثيرًا ما يكون فيها الزئبق فتزيد المرض وتؤدي الى الموت

علم الله ان اهم حاجة لهم المستشفيات اولاً والتعليم ثانياً . وما التعليم ازاء المستشفيات بشيء يذكر لما في المستشفيات من شفاء الجسم وتقوية الابدان. والجسم بعد شفائهِ من امراضهِ يقبل العلم ويتلقى الصنائع ويستعد للحرف لانهُ يكون سالمًا وفيهِ طاقة الادراك وقوة العزم وقد قيل ان العقل السليم في الجسم السليم وما اصح هذا القول

لا يرضى العقلاء بمرض الفقراء لانهم كل الامة وكيانها افلا يأسفون اذ يرونهم مرضى الاجسام متحملين كل انواع المرض بين بُرص ومجذومين وعرج ومشلولين ومقعدين وخرس وصم ومسلولين

أيظن المصريون ان مستشفيات الحكومة تكفي لمرضى الامة وتفي بحاجاتهم. واقل طائفة من نزلاء البلاد قد تعاونت وشادت لطائفتها المستشفيات والملاجئ او لا يأسفون اذ يرون فقراءهم يلقونهم في طريقهم او في نزهتهم ويحومون عليهم طالبين الدرهم وحقهم ان يطلبوا الدواء لو عقلوا لان الناظر اليهم يقرأ على وجوههم علامات المرض في قلوبهم والرمد في عيونهم ام يظن عقلاء المصريين ان الاطباء منهم يقبلون تطبيب الفقراء مجانًا بناء على ما هو مكتوب على باب كل منهم " للفقراء مجانًا " تالله لا طبيب منهم يطبب فقيرًا بغير اجرة ولا رأينا في حياتنا من واحد منهم فعل ذلك غير المرحوم الدكتور دري باشا الذي كان مستوصفهُ شبه مستشفى مجاني للفقراء المنهوكين بالامراض والعاهات وكان يجتمع فيهِ من

كل الطوائف ذكوراً واناثاً فلما توفاه الله انقطع عن الفقراء كل هذا الخير العميم

واصبحت مستشفيات الاجانب فيها ملاذ المرضى وعياذ ذوي الادواء ولولاها لعدم الفقراء حياتهم وساء مصيرهم وكفانا تحدثاً ببراتهم انهم يلتقطون اولاد الفقراء وقد نبذهم اهلوهم نبذ النواة فيربونهم ويعلمونهم حتى يبلغوا اشدهم ويقووا على تحصيل معايشهم . لقد كثر اللوم وتعدد المنددون وكل يوم نسمع الاجانب يعيروننا بكثرة مرضانا وقلة اهتمامنا بانشاء مستشفى لهم حتى اصبحت احوالنا تحزن العقلاء وتبكي المؤمنين

ولكي يكون القارئ على علم بحالة امتنا المصرية نأتي على ذكر بعض مآثر الاجانب ليتبين له حالتهم الخيرية لقاء حالتنا التعيسة المحزنة فنقول

قامت النزالة الفرنساوية في العاصمة بعمل مستشفى خاص لها في العباسية صرفت عليهِ ما ينيف على المئة والستين الف فرنك وساعدت الحكومة الفرنساوية القائمين بامرهِ بمبلغ ٣٠ الف فرنك فهل لنا شيء من ذلك نحن المصريين وعددنا زهاء التسعة ملايين والفرنساويون عندنا لا يبلغون الخمسة عشر الفاً افلا نخجل ونتحب على سوء حالتنا وطول تقاعدنا وتقصيرنا

وفي عزم الايطاليين التشبه بالفرنسويين في بناء مستشفى لهم ايضاً وقدروا المبلغ اللازم لذلك بمئتي الف فرنك وقد تبرع لهذا العمل الخيري جلالة ملكهم بمبلغ ٥٠ الف فرنك والخواجات روفائيل وفيلكس سوارس بمبلغ ١٨٠٠ فرنك ومحل كوجيني بمبلغ ١٥٠٠ فرنك وتبرع باقي اغنياء الطليان بالمعدات والادوات اللازمة لذلك . هذا بخلاف ما تنفقهُ جمعيتهم في هذه العاصمة فانها تنفق كل

سنة على فقرائها زهاء ٨٠ الف فرنك وتشاركها في ذلك حكومتها بخمسة عشر الف فرنك سنوياً . وكفاهم فخراً انهم المؤسسون لمستشفى داء الكلب[1] فاين عملنا نحن التسعة ملايين من عملهم وهم اقل من الخمسة وعشرين الفاً وفي عزم النمساويين بناء ملجإٍ لليتامى بالاسكندرية بدل الدار المستأجرة الآن لهذه الغاية فأين ايتامنا من أيتامهم

وفي الاسكندرية ملجأ رودلف العظيم تحت رئاسة المستر كرفو يطعم فيهِ الفقير المسكين وقد ظهر من تقريرهِ عام ١٩٠٠ ان ادارة هذا الملجإ آوت في العام المذكور ٥٣٨٣ نفساً او يزيدون. وفي قليوب ملجأ لليتامى ايضاً وهو تابعٌ للارسالية الهولاندية فيهِ على ما بلغنا نحو العشرة من اليتامى. ولليونان مستشفى بالاسكندرية وآخر من تبرع لهُ من اليونان المسيو جورج يوانيدس فانهُ تبرع بمبلغ خمس مئة جنيه عن روح قرينتهِ ولما توفي المسيو اكيلوبولو التاجر اليوناني الشهير بمصر وقرئت وصيتهُ في دار القنصلية اليونانية بالاسكندرية وجد انهُ اوصى بمبلغ ٩٠٠٠ جنيه لانشاء مستشفى لبني جنسهِ في القاهرة

هذا ومن الملاجئ العظيمة في مصر ملجأ العجزة بشبرا والفجالة تقام لهُ سوق

(١) بلغ عدد الذين جاؤُوا مستشفى الكلب في هذه العاصمة سنة ١٩٠٠ م ١٦٠ فصرف منهم ٢٠ اذ تبين بعد مجيئهم ان الكلاب التي عقرتهم غير كلبة وعولج الباقون فبلغوا ١٠٩ من الوطنيين (تامل) و ١٢ من اليونان و ٧ من الايطاليين و ٥ من الفرنساويين و ٣ من الانكليز و ٢ من الترك و ١ من الالمان و ١ من البلجيكيين وقد جاء اكثرهم من مديريتي الشرقية والقليوبية وجاء كثيرون من بلاد أُخرى وخصوصاً من سورية "بيروت" والبلدان القريبة . هذا وقد تيسر للمستشفى ان يحسن اثاثهُ ويتقن عددهُ وآلاتهُ في سنتهِ الثانية بالمال الذي تكرمت بهِ عليهِ الحكومة المصرية وقدرهُ ٢٥٠ جنيهاً والجمعية الخيرية الايطالية بهمة جناب مديرهِ الدكتور تونين المشهور في معالجة داء الكلب

كل سنة تدعى بسوق الشفقة وتباع فيهِ الادوات والهدايا النفيسة [١] وفي اصوان ملجأ لمبعوثي اخواننا المسيحيين من الكاثوليك بذلوا جهدهم في انشائهِ للايتام وفيهِ الآن ما يقرب من المئة وخمسة وعشرين طالباً و٦٠ طالبة. وللشركة الانكليزية التي نالت عمل الخزان ملجأٌ للمرضى تعالج فيهِ عمالها وفيهِ ما يقرب من العدد الاول من ابناء العبيد. وقد قررت اللجنة التي تألفت لاقامة اثر للمرحومة اللادي كرومر ان يفتح ملجأٌ للقطاء في جهة القصر العيني وسيسع هذا الملجأ نحو مئتين لقيطاً والخلاصة انهُ لاينقضي شهر الاَّ ونسمع لهم مآثر حسنة تجعلنا نغبطهم ونتمنى لنا بعض مالهم من الملاجىء الخيرية

قال عمرو بن العاص "رضي الله عنهُ" "ان اهل مصر اعقل الناس صغاراً وارحمهم كباراً" فلم لا نجعل لهذه الشهادة بيننا اثراً ونسمع انين المرضى الفقراء ونخفف عنهم آلامهم في ضيقهم وشدتهم وخصوصاً التي ينالنا منها ضرر بالعدوى ولنا بمحوها واستئصال شأفتها حاجة ماسة

لقد سئمت النفوس من تكرار طلب الاعانات على الدوام ومن عهد قريب فتحت اكتتابات كثيرة حتى ان البعض كان يتبرع بثمن كتب ألفها و ما يجمع من ثمنها يقدمهُ اعانة . فلم لا ندع قول عمرو يتحقق فينا نحن المصريين فنشمر عن ساعد الجد ونقوم كل طائفة منا بعمل مستشفى لفقرائها خاص بها كما قال جناب اللورد كرومر في فندق "سافوى" حينما اجتمع بعض الانكليز والاميركان للمداولة في بناء مستشفى لنزلاء الامتين "ان المستشفى الاوربي في العباسية سوف

(١) بلغ ما جمع في هذه السوق سنة ١٩٠١ م ١٨٠٠٠ فرنك بخلاف ما جمع من احياء ليلة خيرية في الاوبرا الخديوية

يبطل لان كل امة صار لها موضع خاص لنزلائها في مصر" وحتى لا يقال انهُ لو ترك الافرنج اهل مصر لا يبقى لهم صحة ولا تجد فيهم عافية ولو كانوا كثيرين

مآتم الفقراء

قال علي" كرم الله وجههُ " ان الموت طالبٌ حثيث لا يفوتهُ المقيم ولا يعجزهُ الهارب

ان ما يجري في مآتم الاغنياء يجري عند الفقراء مثلهُ او يزيد مما لا يرضى بهِ عاقلٌ ولا يجوزهُ شرعٌ ولا تأمر بهِ عدالة فان الفقراء يفوقون الاغنياء في احزانهم لكثرة ايامها وتعدد اوقاتها . ويكاد " يوم الخميس "عند الفقراء ينعت بيوم الاحزان . اذ تجول فيهِ النساء من حي الى حي نهارًا ويجاريهنَّ الرجال في ذلك ليلاً لحضور المآتم بعضهم عند بعضٍ فترى النساء مبكرات بكور الزاجر للتعزية قاطعاتٍ المسافات المترامية مشياً على الاقدام اوركوباً على عربات النقل متزاحمات متسابقات لادراك هذه الغاية ومنطلقات من الجماليةَّ الى بولاق او الى النصريةً من الاحياء الوطنيةً ولا يرجعنَ الى منازلهنَّ حيث تركنَ اطفالهنَّ الاَّ عند العصر او بعدهُ . وليس لهذه العادة اثر عند نساء بقيةً الطوائف

اما حديثهنَّ وهنَّ ذاهبات الى المآتم فمقصورٌ على مدح النادبات وتشويق بعضهنَّ بعضاً الى ما سوف يسمعنهُ من ندبهنَّ الذي يثير الشجون ويحدر صيب الدمع من سماء العيون . ويتمادينَ في تفضيل احدى النوادب على الاخرى حتى يفضي بهنَّ الامر الى الخصام والمشاحنة وقد يأخذ من بعضهنَّ ذهول ينسينَ عندهُ انهنَّ ماشيات على قارعة الطريق فتزاح عنهنَّ الستور ويظهر ما في اعناقهنَّ من المناديل المطرزة بالسواد علاوة على ما في ايديهنَّ من المناديل التي يغطينَ بها

وجوههنَّ عند ذرف الدموع وقتما تلقي على مسامعهنَّ النوادب الادوار الشجيةَ الباعثة على النوح والانتحاب والداعية الى الحزن والاكتئاب ومن غريب امر المعددات انهنَّ يعرفنَ فقيد كل حاضرة في المأتم فيعدّدنَ اوصافهُ على حدة و يشغلنَ بذلك وقتاً طويلاً. ولا عجب فان هذا العلم الذي تحذقهُ النادبات فيهِ من متنوع اساليب التأبين والرثاء . ما تعجز عنهُ خواطر الادباء وقرائح الشعراء . فلذا لا يصعب عليهنَّ ان يقلنَ ما يؤثر في نفوس السامعات ما دمنَ قادراتٍ ان يبكين الحاضرات على الشيخ الهرم كما على الفتى اليافع ولكن من العجيب انهنَّ يبكين من حولهنَّ وهنَّ خاليات من الشجو فلا تسمع لهنَّ زفرة ولا ترى في عيونهنَّ دمعة . والنساء الفقيرات يفقنَ الغنيات في الحزن اذ ليس لهنَّ رادع من اهل ولا من جيرة يعلمون ضرر ذلك بهنَّ صحيًّا فيسرفنَ في لطم خدودهنَّ والضرب بارجلهنَّ امام رجالهنَّ على المقابر ولو فوق الموتى الذين يبكينهم تحت التراب . والفقراء يتكبدون مع شدة فاقتهم نفقات طائلة في مآتمهم قياماً بما يحيون من الليالي وما يعدون من المآكل مدة الاربعين يوماً ولهم في التعزية أُمور مغايرة للسنة فيعزون الاب الذي فجع بابنتهِ بما يقرب من التهنئة بوفاتها كقولهم " ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكرمات" ومن يتأمل يرَ ان هذه التهنئة في صورة التعزية كانت معروفة في الجاهليَّة الاولى عند ما كانوا يئدون البنات اي يدفنونهن حياتٍ. والغريب ان المشايخ وبعض العلماء يعزون اصحابهم ومعارفهم بمثل القول المتقدم ذكرهُ قولاً وكتابة ولعل هذا سبب كرهِ الآباء للبنات .

اما زيارة القبور المقصود منها التذكر بمن سلف والترحيم عليهم والتصدق على المساكين استراحاماً لهم .فهو عند الفقراء جارٍ على وجهٍ نخجل من ذكرهِ اذ انهم يقيمون ليلاً ونهارًا على المقابر طابخين وآكلين وشاربين وقد احضروا معهم الاولاد

والنساء والفرش والاغطية على عربات النقل او على ظهور الحيوانات وفي ذلك دليل على ان لا احترام عندهم ولا اكرام لمدافن الموتى وكفاها امتهاناً انهم جعلوها اشبه بفنادق السياح يجلسون فيها فتمتل لهم انواع العاب " الحواة " ونعرض على ادهانهم اقوال " الادبتية "

والمقابر في القطر المصري كثيرة لا تكاد تخلو منها قرية حقيرة وفي القاهرة وحدها ست " قرافات " لدفن الموتى وكلها خارج المدينة وهي قرافة " السيدة . والامام . وباب الوزير والمجاورين . وقايتباي . وباب النصر" وجميعها أُعدت منذ ايام الفتح لدفن اموات المسلمين واوقفت على ذلك بحيث لا يصح فيها تصرف بيع ولا شراء فيذهب اليها الاهالي في ايام معينة من السنة مثل ايام العيدين ويوم اول جمعة من رجب ويوم نصف شعبان وايام الجمع على مدار السنة لمن توفى لهُ اهل او اقارب ولم يحل عليهم الحول . يتعهدها المرء فيراها مأوى لجماهير كثيرة من انحاء العاصمة وغيرها من المدن من جميع طبقات الشعب الاسلامي على اختلاف الهيئات والازياء من غني وفقير وغرض الجميع زيارة قبور موتاهم وحبذا هذه الزيارة لو كانت وفق الشرع الشريف او لو كانت مجردة عما نهى الشرع عنهُ وعمل الكل بما يعود على الاموات بالبر والاحسان ذاكرين ما قالهُ ذلك الفيلسوف الحكيم العربي

خفف الوطء ما اظن اديم الارض الاّ من هذه الاجسادِ
وقبيح بنا وان قدم العهد هوان الآباء والاجدادِ
سر ان اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العبادِ
رب لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكاً من تزاحم الاضدادِ

نعم حبذا ذلك لو خلا من معايب اللهو واللعب والقذف باقبح الشتائم

وارذل الاشارات . حتى ان " القرافات " تكاد تكون مجتمعاً يغشاهُ لفيف الشحاذين اصحاب الامراض والعاهات . ومنزلاً لعصابات المتشردين واللصوص كلٌّ يحتال على اخيهِ لاجتناء الصدقة منهُ وهو لا يستحقها . ولامندوحة لنا عن ذكر شيء من اعمال الحفارين " التربية " وهم الذين يحفرون اجداث الموتى ويوارونهم التراب وقد ورثوا هذه الحرفة عن آبائهم واجدادهم ولهذه الطائفة اعمال مرذولة وامور تجلب السخط عليهم من جميع طبقات الامة اذهم الناهبون السالبون الذين يتلقفون ماتصل اليهِ ايديهم ويوزعونهُ سهاماً بعضهم على بعض بعد ان يريشوا في قلوب منكسري القلوب من ذوي الميت سهاماً لا تشفى جراحها الى يوم العرض . فان الجنازة لاتصل اليهم محمولة على اعناق الرجال مشيعة بدماء العيون ووراءها النساء يبكين وينحن بما تتفطر لهُ الاكباد ويذوب منهُ قلب الجماد إلا ابتدأ هؤلاء التربية بطلب اجرتهم بالمنازعة والخصام بما يخمد جذوة الحزن على الميت "ولا يخمد جذوة الحزن على الميت الاَّ شيء أصعب منهُ" ويحل محلها الغضب اولاً ثم الاسف ثانياً ثم الحزن مع الغيظ على ما ينال الاعراض من الشتائم والقذف والكلام البذيء لانهم اذ لا يرضون بالقليل ولا بالجزيل من الاجرة يضجون ويجلبون ويصيحون ويصخبون ويوغلون في عرض ما عندهم من بضاعة سفالة الاخلاق وحطة الشأن فيقع ولي امر الميت بين مصيبتين مصيبة اولئك الطاعين وهي شديدة على النفس الابيَّة ومصيبة الخجل من اخوانهِ واصدقائهِ المشيعين معهُ وهي اشد وقعاً في مثل هذا الحال . وهو لا يرضيهم الاَّ اذا افرغ جيوبهُ امامهم . فاذا تيقنوا ان لاسبيل الى الزيادة رضوا بما أخذوهُ ولهم عليهِ الفضل . وليس لهؤلاء اجرة معروفة ولا جعل معين فكلما رأوا الخجل يزداد ظهوراً على وجه صاحب الشأن زادوا خفة وجراءة وعلى قدر مايزيد لهم الاجرة ليترضاهم

ينفرون منهُ كأنهُ لم يدفع لهم شيئاً . وقد تدفعهم الجرأة والقحة في اكثر الاحيان الى ان يمسوا كرامة الميت بالشتيمة والقذف. تلك حال "التربية" عند وقوفهم على قبور الاموات وهو الموقف الذي يجب ان يكون منزهاً عن كل خصام على حطام الدنيا. وهي حال قد شاهدناها وعرضت لنا في هذه السنة ثلاث مرات وكثيرون غيرنا يشاهدون مثلها كل يوم بل كل ساعة ما دام "الموت طالبٌ حثيثٌ لا يفوتهُ المقيم ولا يعجزهُ الهارب"

وفي الظن انهُ لو كان المقام مقام شكوى واذنت الحالة للناس في رفع دعاوٍ واختصام الى البوليس والنيابات والمحاكم لاقتضى لنا عشرة امثال ما عندنا من رجال البوليس والمحاكم لفصل تلك القضايا والحكم فيها. ولكن المقام مقام احترام وفي الوجوه بقية حياة وخجل تحول دون شكوى وليّ ميت رجلاً دفن لهُ ميتهُ . ولما كان الامر على ما ذكر وكل يوم تشعر الامة باجمعها بهذا الالم ولاسيما الفقراء الذين يتجرعون اكثر من غيرهم غصص التقريع والتنغيص ويهانون على مسمع من نسائهم واولادهم واصدقائهم آن للامة باجمعها ان تطالب رجال الحكومة بالضرب على ايدي اولئك الطغام الاوباش ضربة تعلمهم قليلاً من الادب وجزءًا صغيراً من مراعاة الانسانية ولها الحق بهذا الطلب ما دامت الحكومة هي المسؤولة عن راحة الشعب . وهي القادرة على كبح جماح كل معتدٍ يعبث بأقدس شيءٍ لدى الناس ويهين الكبير والصغير بلا موجب سوى قلة الادب والاستطالة على عباد الله. وليس من وسيلةٍ تصلح بيننا وبين من لا مفر لنا من وقوعنا في ايديهم يوماً ما الآن تجمع الحكومة رجال هذه الطائفة الباغية فتنتخب منهم اهل استقامةٍ وادب وتسن لهم لائحة موافقة وتعين لهم رواتب شهرية يتقاضونها من خزينتها وتفرض هي رسماً يسد تلك الرواتب او يزيد عليها وتأخذهُ من الاهالي

عند اعطاء ورقة التصريح بالدفن من مكتب مفتش الصحة ومهما يكن ذلك الرسم فالاهلون يقبلونهُ بكل ارتياح اذ يتخلصون بهِ من تلك المعاملة الوحشيّة والاطماع الاشعبيّة ويقوم التربية بوظائفهم ولاجناح على من شاء ان يدفع لهم شيئاً على سبيل الهبة من الاهالي .وبهذا تلجم السنتهم فلا يعود في وسعها الانطلاق على الناس بالقدح والسباب . والبذاءة التي يندي لسماعها جبين الآداب ولا نظن الحكومة تغفل مثل هذا الاقتراح ولنا في اهتمام عطوفة نظر الداخلية الأكرم وسعادة المحافظ ما يحقق لنا الرجاء وينيلنا الاصلاح المطلوب . اذ لا يصح ان يكون لأحقر حرفة مثل "مساحي الاحذية" "والحمارة" "والعربجية" لائحة يجرون عليها ولا يكون لهؤلاء "التربية" قانون ولا لائحة ليعلم الناس حقيقة من سيلحدهم ويلتقطهم فرادى ومثنى الى ملاقاة رب كريم مستقبلين من الكرام البررة "يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربكِ راضية مرضيةً فادخلي في عبادي وادخلي جنتي"

الاوقاف الاسلامية وحاضرها

قد رأينا بعد اتمام فصول كتابنا هذا وترتيبها ان لا بد للقارىء عند وصوله الى كلامنا عن الفقراء ان يسأل عن حالة الاوقاف الاسلاميّة المحبوسة على ما فيهِ تيسير بعض الضنك الموجودين فيهِ ولذلك نختم كتابنا بذكر حقيقة حاضر الاوقاف حتى يتبين للقارىء مقدار نفع الفقراء من ايراد اوقاف أقل ما يقال عنهُ انهُ يزيد عن ايراد كثير من الممالك الصغيرة في العالم[1] ومما سنذكرهُ يعلم

(١) نذكر لك واحدة وهي مملكة سان مارينو في جبال ايطاليا في الجهة الشمالية الشرقية منها عدد سكانها ١٥٠٠٠ نفس ودخلها يقارب مدخول ديوان الاوقاف المصرية وغيرها كثير تراجع في قوائم البلدان المطولة

علاقة الاوقاف بسكان القطر ونفعها من عدمهِ . فيقلان ما عندها الحبيب الغابط والعدو الحاسد ويترك محبوا الاصلاح الآن النظر في زيادة الايراد ونقصانهِ ما دام باب الانتفاع بهِ مسدوداً

الغرض من الاوقاف

الغرض من الاوقاف امداد ذوي الضعف الذين عجزوا عن الكسب ووقف بهم الزمن عن العمل لعاهة او آفة . ونشر العلم والادب والدين وحبذا القصد والغرض

واول من نظر الى الاوقاف المصرية نظرة حكيم عاقل وأصدر امرهُ بتشكيل ديوان لها خاص هو ساكن الجنان " عباس باشا الاول " لما شاهدهُ وقتئذٍ من سوء التصرف . وقرَّر رحمهُ الله حق مرجع النظر في أمورها اليهِ ولمن يتولى الخديوية من بعدهِ وقد مضى من عهدهِ للآن ما يزيد عن الاربعين سنة والاوقاف يغل سنويًّا مبلغاً كبيراً كلهُ مرصود لعمل الخير حسب شروط الواقفين التي حصرت الحق في ديوان الاوقاف هذا . وجعلت لهُ حق الاشراف على كل ما هو موقوف من املاك وعقارات في المحافظات والمديريات وحق اتخاذ الطرق الشرعية المؤدية الى تحسين الاطيان والعقارات ونمو ريعها . وهو متولٍ ذلك برضى الامة الاسلامية . فلذا كان الواجب على من وليَ الامر ان لا يألو جهداً في اتخاذ الذرائع لانجاح ما أتمنتهُ الامة عليهِ طارفاً كان او تليدًا . ولبعض الناس حق على الاوقاف مثل الاشراف وغيرهم وهذا الحق يختلف باختلاف درجاتهم . فمنهم المتصل نسبهم بالرسول " صلى الله عليهِ وسلم " والعلماء والفقهاء الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة ومنهم الصوفية والفقراء والعميان والمرضى والمجانين وما اشبه ذلك حسب شروط الواقفين التي قصدوا بها التقرب والزلفى

الى الله تعالى . ولعمارات الاوقاف حق وللمساجد حق تجديدها . حتى ان للمصابيح حق معلوم اذا كسرت ومثل ذلك يقال عن المكاتب والمدارس

هذا هو الغرض من الاوقاف وهذا هو الحق الذي لهُ والواجب الذي عليهِ اذا عرفنا ما ذكر عن الاوقاف لزمنا البحث عن حالتهِ الحاضرة لنرى هل ديوان الاوقاف قائم بالغرض الذي جُعل لاجلهِ وافاد او لم يفد فنقول

بلغ ايراد ديوان الاوقاف في سنة ١٨٩٩ ٢٣٠٦٦٢ جنيه والمصروف ١٨٢٧٧٧ جنيه ونسبة المنصرف منهُ على الابواب الآتية هكذا ٤١٢٩٣ جنيه على مستخدمي ديوان العموم وفروعهُ اي ١٨ في المئة من الايراد العمومي

١٠٢٧ على مستخدمي لجنة الآثار اي ١/٢ في المئة من الايراد العمومي

٤٦٢٤٤ جنيه على المصاريف العقارية والزراعية بما يشمل مستخدميها الداخلين الهيئة والخارجين وغير ذلك من عوائد املاك وحفظها وترميمها ومال وعشور اي ١/٢ ٢٠ في المئة من الايراد العمومي

٢٨٧٨٥ جنيه على المساجد والاضرحة اي ١/٢ ١٢ في المئة من الايراد العمومي

٢٧٥٢٥ جنيه على التعليم منها ٦٥٩٢ جنيه مقررة لنظارة المعارف نظير ادارتها لمكاتب الاوقاف ومنها ٥٠٠ جنيه لمكاتب يديرها الديوان نفسهُ و١٤٤ جنيه اعانة لمدرسة دمياط الاهلية وهذا المبلغ معهُ الريع الناتج من تفتيش الوادي مع فرضنا اياهُ انهُ عشرين الف جنيه اي ١٢ في المئة من الايراد العمومي

٦٨٠٠ جنيه على التكايا سواء كان يديرها الديوان بمعرفتهِ او بمعرفة مشايخها اي ٣/٤ ٣ في المئة من الايراد العمومي

١٥٦١٠ جنيه على عمل الخير مثل مرتبات واعانات للكتبخانة ومعاشات

ومصروفات متنوعة اي ٦ في المئة من الايراد العمومي

١٠٦٨٠ جنيه على اقامة شعائر اي ٤ ١/٢ في المئة من الايراد العمومي

هذا هو ايراد ديوان الاوقاف ومقدار صرفهِ على الابواب المتقدمة . ولعمري انهُ يظهر من اول وهلة ان الديوان يصرف على جماعة المستخدمين الذين يأكلون خبزهم كما تعودوا جالسين على الارائك في ظلال السجوف خوفاً من حرارة الشمس والسعي في معترك الحياة أعظم مما يصرف في السبل التي أُوقفت عليها هذه المنافع من عمل الخير ولبيان ذلك نأتي على حالة كل باب من الابواب المتقدمة فنقول

"مستخدمو ديوان العموم وفروعه"

هم أظهر عضو في جسم الاوقاف اهل الحل والعقد فيهِ . وهم اكثر المستخدمين علاقة بمن يتصل امرهُ بالاوقاف ويسوءنا ان نذكر هنا كثرة الشكوى منهم ومن اعمالهم وقلة الرضى عنهم ويسوءنا ايضاً ان نقول بانحطاط معارفهم وان اغلبهم استخدم في الديوان وكان الفضل باستخدامهِ للمحسوبية والقرابة عند من سلف وتولى نظارة هذا الديوان . ومع ذلك هم ارقى خدمة هذه النظارة واحسن عملاً من امثالهم في المحافظات والمديريات . ولا بد ان سمع القارىء ببعض اعمال تسيء الظن فيهم . اما عددهم فعلى ما يقول الخبيرون زيادة عن حاجة الديوان ولذا يقول العارف بامرهم انهُ يلزم لهم نظرة من اولي الامر . واخرى يمتنع بها عنهم ما يرمون بهِ من التهاون بالاعمال ومن تعطيل الامور وتصعيبها ولو كانت منجزة سهلة

"مستخدمو الفروع الاخرى"

هؤلاء مستخدمو المحافظات والمديريات واغلب اشغالهم بعد العقارات

المزروعات وهم يعدون في الطبقة التانية بعد مستخدمي ديوان العموم . الاّ انهم اكثر منهم فائدة ولو كانوا اقل منهم مرتباً . غير ان في سير بعضهم ايضاً ضرباً من الفوضى وضعف الادارة والكسل وكثيراً ما تؤدي بهم اطماعهم الى ما فيهِ دمار كثير من الاوقاف المزروعة والعقارات المؤجرة وسوابق ذلك كثيرة يعلمها الديوان نفسهُ

" المساجد والاضرحة والزوايا ومستخدموها "

قال المرحوم علي مبارك باشا في خططهِ الجديدة اما عدد الجوامع الآن في مصر فهي مائتان واربعة وستون جامعاً اه .

والله اعلم بعدد الجوامع في باقي داخليّة القطر وبعدد الزوايا المبثوثة في انحائهِ التي تقام فيها الصلاة . وبعض هذه الجوامع تابع مباشرة الى ديوان الاوقاف وبعضها تابع للاوقاف الاهليّة . يصرف عليها وعلى مستخدميها مما خصص لها من الريع الموقوف عليها وبعضها يمتد تاريخهُ من عهد دخول الاسلام في مصر كجامع "عمرو" وبعضها تاريخهُ من سنتنا الماضية او الحاضرة ولكي يكون القارىء على علم من حقيقة حالتها وحالة مستخدميها نقول

حالة الجوامع كحالة الافراد تسعد حيناً وتشقى احياناً حتى تندثر معالمها وعفو لعدم اعتناء الخلف بما تركهُ منها السلف وكرور السنين وتقلب الايام اوجد كثيرين ممن كانو ياخذون من عمارة هذا الجامع وانقاض ذلك المسجد ومخلفات تلك الزاوية ليبنوا بها عمارة أُخرى لهم يسمونها باسمائهم فينقرض عمل الاصل ويظهر عمل الفرع وأنت لو سألت الاعمدة في المساجد لانبأتك عن كثرة تنقلها من مواضعها في سنين عدة . والميل لحب الافتخار في من حكم الديار المصرية محى أثر الكثير من الجوامع فهدمت بالمرة او بقيت ذكراً ناطقاً بسوء عمل

الخلف لما تركهُ السلف . غير انَّا لا تنكر ان بعض هذه المساجد حفظت ورممت أخيرًا و بالاخص الاثرية منها اذ لولا زخرفها ونخامتها لمحيت بالمرة كما محي كثير منها وكما محيت آثار دور التعليم وملاجىء الخير والمستشفيات التي كانت بجوانب الجوامع المذكورة في كتب السير واسفار التواريخ ولا يزال بعض تلك الجوامع مهملاً إمرهُ متروكاً يعمل فيهِ ضد الغرض المنشأ لهُ كجامع الظاهر(١) وجامع قلاوون وغيرها

الاول منها خالف القصد الذي بني لاجلهِ واضحى مخزنًا ومذبحًا ومخبزًا توقد فيهِ النيران بدلاً من اقامة الصلاة . وثانيها تلعب فيهِ الاولاد وتمرح وقاعتهُ مؤجرة مخزن آواني النحاس وبضائع التجار وليس فيهِ مكان لاقامة الصلوات سوى غرفتين مع ان سعتهُ عظيمة ولا يبعد ان يصير مصير الاول بعد زمن . وأنى يرضى المسلمون عن الاول وهو بين مبانٍ نخيمة باذخة جميلة ولا يمرّ

(١) "جامع الظاهر" قال المقريزي رحمهُ الله . هذا الجامع خارج القاهرة بالحسينية انشأهُ الملك الظاهر بيبرس البندقداري العلائي وكان موضعهُ ميدانًا يعرف بميدان قراقوش وكان منتزه الملك ومحل لعبهِ بالكرة. فلما اهتم بعمارتهِ اختارهُ فرسم الجامع في قطعة منهُ ورسم بان يكون بقية الميدان وقفًا على الجامع بحكر (تأمل ما حولهُ الآن) ورسم بين يديهِ هيئة الجامع واشار ان يكون بابهُ مثل باب المدرسة الظاهرية وان يكون محرابهُ قبةً على قدر قبة الامام الشافعي "رضي الله عنهُ" وكتب في وقتهِ الكتب الى البلاد باحضار عمد الرخام وكتب باحضار الآلات من الحديد والاخشاب النفيسة برسم الابواب والسقوف وغيرها وولى عدة مشدّين على عمارة الجامع وشرع في العمارة سنة ٦٦٥ هجرية ثم في سنة ٦٦٦ سافر السلطان الى بلاد الشام فنزل على مدينة يافا وتسلمها من الافرنج وهدم قلعتها وقسم ابراجها على الامراء واخذ من اخشابها جملة ومن الالواح الرخام التي وجدت فيها ووسق منها مركبًا سيرها الى القاهرة ورسم بان يعمل من ذلك الخشب مقصورة في الجامع والرخام يعمل في المحراب فاستعمل كذلك وكملت بناية الجامع سنة ٦٦٧ اهـ . فتأمل حاضرهُ الآن

عابر سبيل بقربهِ إلاّ ويأسف على ما حاق بهِ . ولو درى بانيهِ رحمة الله عليهِ بانهُ سيأتي يوم يصبح فيه الجامع مخبزاً لما وضع فيهِ حجراً

"خدام الجوامع"

خدام الجوامع جماعة ممن جمعتهم جامعة الفشل في تعلم علم الدين ولم ينجحوا فيهِ ولكسلهم وخمولهم وحبهم للحياة خالية من التعب وأكل الخبز بلا تعب ولا عمل التزموا مساجد الله باسم خدمة . فاحتكروها او التزموها قل ما شئت عنهم يورثونها ابنائهم من بعدهم واحفادهم من بعد ابنائهم . وهؤلاء خَدَمة المساجد تُدفع لهم مرتبات قليلة من قِبَل ديوان الاوقاف لقاء خدمتهم فيها ومباشرة نظافتها ومع كل فترى كثيراً من الجوامع المذكورة مهملة فيها شروط النظافة بالمرة . ونحن نقص عليك شيئاً من حالة الجوامع الكبيرة ونترك لك القياس عليها في المساجد الصغيرة . نذكر لك جامع ابنة البتول وبنت ابنة الرسول وبنت ابن "عمهِ رضوان الله عليها جميعاً" ففي كل يوم احد من كل اسبوع تُفرش ارضهُ بقشور "الفول" وفتات الخبز وجذور "الكراث" وهنـاك يمرّ المار حافياً فيزلق بالاوساخ ويجد بفضل خدمة هذا المقام الشريف عكس الآية الشريفة "فيهِ رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين" فيهِ يسحب البق بعضهُ بعضاً على جدرانهِ من فضل الجالسين مطمئنين وهم بثياب رثة ولباس قذر نتن وليس من يزجرهم او يجبرهم على النظافة اومن يعمل بالحديث الشريف "ابنوا المساجد وأخرجوا القمامة منها فمن بنى لله بيتاً بنى الله لهُ بيتاً في الجنة" يتعلقون باذيال الزائر عند الزيارة ويتجاذبونهُ من كل جانب رجاء ان يعطيهم شيئاً لله وغرضهم ان ينشلوا منديلهُ من جيبهِ وما شاكل ذلك وما من رادع يردعهم ولا عجب إن يكون ذلك كذلك ما دام خدمة الجوامع يدركون معنى "وثيابكَ طهر

والرجز فاهجر" ولا يعملون . او كيف يرجى ممن جمعتهم جامعة الفشل رجاء وهم اذا ارادوا الكنس كنسوا بسعف النخيل مع علمهم ان ذلك لا يزيل وسخاً بل يزيد الطين بلة وهم لاهون عن مباشرة النظافة باستقبال الوفود من اصحاب النذور وملاقات الاصحاب والاحباب بالطبع تلهي المحب

وجامع السيدة نفيسة رضي الله عنها يأتي اليهِ الناس من جهات متعددة بحجة الزيارة والتبرك غير ان بعضهم يتفقون مع خدمة الجامع للنامة فيه ولا حاجة للاطالة وغير ذلك في مصر من امثال هذه الجوامع الشهيرة يجري فيها الامور المخالفة للسنة والدين والادب والنظافة على خطٍ مستقيم فهل لا يعلم بذلك ديوان الاوقاف او يمكنهُ ان ينكرهُ . او لا يعلم ان في جامع الامام الحسين "رضي الله عنهُ" يباع ويشترى ما يباع ويشترى في الاسواق من قصص وحكايات ومساوك وسبح وسعوط وكحل وعلب داخلها الافيون . ذلك كلهُ يراهُ خدام الجوامع الكبيرة امثال من ذكرنا ويتعامون عنهُ ما دام الود بينهم متواصلاً. فيتركون البائع على هواهُ مع علمهم بقولهِ تعالى "أفرأيت من اتخذ إلههُ هواهُ" هذا وفي علمنا اكثر مما ذكرنا فنحول الانظار اليهِ . واما الجوامع الصغيرة فليس لها اعتناء بالنظافة على الاطلاق . واذا سألك سائلٌ ما الذي لا يغيرهُ الدهر ويخالف المثل "الدهر بالناس قلب" قل لهُ حصر هذه المساجد التي من اليوم الذي تفرش فيهِ لا تقام منهُ ابداً اللهم إلاَّ ما يعلق منها في ارجل المصلين وسببهُ ان من يستخدم في هذه المساجد هم من الفقراء المتقدمين في السن وبعضهم من العميان ويأخذون المرتبات القليلة جداً . حتى ان المكلَّف منهم بالاذان وان يكُ يصعد خمس مرات في اوقات مختلفة متعددة من النهار والليل حتى يبلغ عنان السماء يعطى ثلاثين غرشاً شهرياً . والمكلَّف بملء الميضة والخلايا مستقياً من البئر يعطى كذلك

وعليهِ ان يباشر نظافتها وشؤون خدمتها؟ فكيف يعتني امثال من ذكرنا بالنظافة ويعملون بالآية الشريفة للمصلين الذين لا تصح صلاتهم الاَّ طبق ما جاء فيها "يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم للصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين الآية" وبعضهم لو تركوا خدمة الجوامع وعملوا مع الفعلة لتناولوا اجرة لا تقل عن المئة والخمسين غرشاً في الشهر او كيف يأتمن امثال هؤلاء على ما يصرف لهم من الزيت ونحوهِ لانارة هذه المساجد وهم لا غنى لهم عن بيعهِ ليعيشوا بثمنهِ وفي باب الشعرية بمصر زيات يبيعهُ خدمة الجوامع زيوت الجوامع ليقتاتوا بثمنها. ويا ليتهم يعرفون ثمنهُ فيقبضونهُ ولكنهم يبيعنهُ بأقل من نصف الثمن ومثل تفريطهم في الزيت تفريطهم في انقاض الجوامع ومخلفاتها من من شبابيك وحجارة فسيفساء. وبعض هذه الجوامع الصغيرة ايضاً قد تحولت لضد الغرض المنشئة لاجلهِ وعددها من الاسف كثير في كل بلد وحي نذكر لك منها الجامع الذي في اول باب البحر في رأس حارة "درب الجامع" فان هذا الجامع وان كان ايرادهُ على ما يقال يبلغ العشرة جنيهات شهرياً فانهُ من مدة قريبة أُجر لبعضهم وعمل "بوظة" يجتمع فيها الاوباش من رعاع القوم. ولما تشكى الجيران "واغلبهم من النصارى" أُبطلت منهُ البوظة وجُعل مغلقاً للخشب. ويوجد ايضاً في الجهة المذكورة زاوية وقف العنانية أُجر بعضها مخزناً لاحد الاروام فجعل ميضتها مخزن تصافي الخمور وقد قُدمت شكوى في اواخر سنة ١٩٠٠ للديوان من بعض سكان تلك الجهة المسلمين فلم يُلتفت اليها. وفي جهة الصليبة وجهات بولاق جوامع عدة بعضها فيهِ ورش للحدادة والنجارة وبعضها لعمل الحصر ولخزن اصناف التجارة من سمن وعسل. كما ان بجانب البوستة في الازبكية جامعاً فيهِ اسطبل لسواري بوليس العاصمة. هذا ولا يذهب عن فطنة القارئ ما تقدم

بيانهُ من عمل الزار في بعضها . ذلك حال الجوامع وحال خدمتها وهو القول الحق الذي لا مراءَ فيهِ نذكرهُ مع الاسف الشديد . ولو كان ذكرهُ يؤلم عواطف البعض من رجال الاوقاف

" الاضرحة وحالتها "

قال المرحوم علي مبارك باشا . الموجود الآن بالقاهرة من الاضرحة مائتان واربعة وتسعون ضريحاً بعضها داخل مزارات ولهُ خدمة والبعض داخل بيوت وفي زوايا الحارات "(١) ونحن نترك الكلام عن الاضرحة الموجودة في البيوت والحارات اذ الله اعلم بحالها ونقتصر على المزارات التي لها خدمة مخصوصة من طرف ديوان الاوقاف فنقول . انهُ لسبب تعيين الاوقاف مستخدمي هذه المزارات من جماعة المشايخ الجهلة غير حسني السلوك قد اصبحت محال هذه المزارات كبيوت الاصنام ولسبب جهل مستخدميها شروط الزيارة الشرعية يتركون الزائر يتبرك بالاضرحة ويتوسل بمن فيها الذين صعدت ارواحهم لبارئها وبقيت عظامهم البالية (وفي حكم العقل ان تلك العظام لا تغني شيئاً) وكذلك كانت عبدة الاصنام يفعلون تماماً(٢) ولو كان الله امر المؤمنين بقولهِ "واذا سألك عبادي عني فاني قريب أُجيب دعوة الداعي" الآية يحصل ذلك ويراهُ خدمة الاضرحة من الزائرين

(١) خطط جزء اول وجه ٨٩

(٢) ومما يزيد الانسان اسفاً تهاون الكثير من علماء الدين بالانكار على ما يفعلهُ هولاء مع علمهم ان هذا ان لم يكن شركاً فقريب منهُ وهم يشاهدون هذا باعينهم ويسمعون بآذانهم ولا يتحركون فاذا صح السكوت هذا فعلى اي شي ينكرون اصلحهم الله هل غاب عن علمهم ان الاسلام ما جاء الا لمحاربة هذه الاعمال الوثنية وتطهير الناس منها فكيف يرضى رجال الدين بان تفعل هذه الاعمال المنكرة وهم المطالبون بازالتها وتفهيم الناس انها من الشرك الذي لا يجتمع مع الدين وهذا الواجب ملقى على عاتقهم لا يمكنهم التنصل منهُ مطلقاً

وبالاخص من النساء وهنَّ في داخل الاضرحة حيث يتوسلنَ اليها كآلهة تفعل ما تشاء ينظرونهنَّ وهنَّ يهززن الاضرحة ويصحنَ بالفاظ الكفر ولا يمنعونهنَّ بل يصرحون لهنَّ بعمل ما يريدون عمله. ولقاء مبلغ تافهٍ يتركونهنَّ يكنسن بمناديلهنَّ ارض المقام ويقلبنَ حصيره على من يردنهُ صارخات بالاستغاثة بالضريح وصاحبهِ دون الله الآمر رسوله والمؤمنين بقولهِ "قل لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعاً" الآية وكيف يلتفت الخدم الى واجباتهم وهم في شغل شاغل مع بعضهم إما في مشاجرة او سباب ومخاصمة

"تكايا الاوقاف"

العرض من التكايا ايواء ذوي العاهات والاسقام والامراض من فقراء المسلمين . وغاية مايمكننا القول عن تكايا الاوقاف ان اكثر من فيها الآن هم من جماعة الترك الاصحاء الابدان الاقوياء العضل يراهم الرائي في تكيتي طره بمصر والقباري بالاسكندرية فيعجب لصحتهم كما يعجب السياح الذين يتفرجون عليهم. وبالاخص لو علم ان امثال هؤلاء لهم الحق بالاعتناء بهم وتوفير شروط المعيشة لهم كالعجزة والضعفاء والمنقطعين الذين هم في الحقيقة المقصودون بهذا الخير من اصحاب هذه المبرات وقعد بهم الدهر فاصبحوا في الفقر والخصاصة ومما يلاحظ على تكايا الاوقاف غير ما تقدم انها تحتاج للنظر ومضاعفة العناية من اولي الامر لتغل أيدي الخدمة عن الطمع في ارزاقهم . نعم وان كانت نظارة الاوقاف اظهرت اخيرًا بعض اعتناء بشؤون التكايا ولكن لا تزال الشكوى كثيرة وخصوصاً من الصعوبات التي تقام امام الفقراء الذين يرغبون الانضمام الى التكايا اذ هؤلاء لا يقبلون الاَّ بعد كثرة التردد بين المحافظة والاوقاف على انهُ ينبغي أن يُلاحَظ في التكايا انها ملجأ العجزة والفقراء الذين لا يقدرون على الكسب فلذا يلزم ان يكون لها

نظام لا يتعدى حدوده ومع ان التكايا التي من هذا القبيل قليلة عندنا فلا يزال نظام الملاجئ التي انشأها ابناء الطوائف الاخرى في هذا القطر وسواه أرقى من نظام تكايا الاوقاف واكثر سعياً في سبيل الاجر والثواب . ولو كنا احوج الكل الى الاكثار منها بالنسبة الى كثرة عدد العجزة والضعفاء منا

"ما يصرفهُ الاوقاف على التعليم"

لدى ديوان الاوقاف اموال كثيرة مخصصة للمشروعات العلميَّة والادبيَّة . أوقفها موقفوها "رحمهم الله" على اخوانهم في الانسانية إعلاءً لمنار العلم والادب. تبارى السالفون فيها ولم يقصروا بل رغبوا في وقفها احياءً لبث التعليم ومكافأة رجال العلم وعلماً منهم ان الامة لا تبلغ المقام الذي ترومهُ من العزة والمنعة الاَّ اذا استنارت عقول افرادها بانوار العلم والادب وكثر عدد العلماء والمتعلمين ودليل ذلك الاوقاف الكثيرة التي حبسوها على هذا الخير والتي يبلغ ريعها من ٣٠ الف جنيه الى ما يقرب من الاربعين الفاً كلها موقوف على بث العلم بين الفقراء الذين هم في حاجة كبرى الى التعليم والارشاد . وكفانا ان نذكر منها تفتيش الوادي وزوائد المساحة في المديريات التي اوقفها المرحوم الخديوي الاسبق "اسماعيل" والحصص التي آلت الى بيت المال وغيرها مما يسأل عنهُ ديوان الاوقاف . ومن الغريب انهُ قدعمت الشكوى حتَّى اتصلت بسمو مولانا الخديوي المعظم حفظهُ الله وشهد بقصور ديوان الاوقاف وعدم قيامهِ بغرض موقفيهِ . فلذا لم يسعهُ حفظهُ الله الآن شاور وزراءهُ والكثيرين من نبلاء الامة ثم امر فضمت تلك الكتاتيب التي كان يديرها ديوان الاوقاف الى نظارة المعارف وتقرَّر ان ما يؤول امرهُ منها في المستقبل يناط بنظارة المعارف حتَّى يكون امر التعليم كلهُ تحت ادارة واحدة وقد تحسنت امر الكتاتيب هذه نوعاً ما كما تقدم لنا بيانهُ . وان كان ديوان

الاوقاف قد عارض في ذلك معارضة شديدة شأن كل مصلحة تحافظ على سمعتها وترغب في عدم تقليل اختصاصاتها. ولكننا نرجع فنقول ان ديوان الاوقاف يبسط يدهُ على التعليم ليكون ينبوعاً مساعداً على انتشار العلم وتعليم النشأة الحديثة الفقيرة التي هي في حاجة الى التعليم. ولعمر الحق ان مبلغ ٢٧٥٢٥ جنيه من ايراد قدرهُ ٢٣٠٦٦٢ جنيه مبلغ قليل جدًّا على امة مثل امتنا تريد ان تباري الامم الحية المتقدمة عليها

"ما يصرف على عمل الخير"

اما ما يصرفهُ الاوقاف على عمل الخير فلا ندري ما هو اللهم غاية ما يمكننا ان نقولهُ انهُ ربما يقصد بذلك ما يعطيهِ لجماعته من المستخدمين الذين يستولون على ما يقرب من ربع الايراد او ما يصرفهُ وهو مبلغ ١٥٦١٠ جنيه فان من هذا المبلغ يُصرف اعانة للكتبخانة ومعاشات لافراد قليلين نعم اننا نجهل حقيقة ما في ذمة ديوان الاوقاف تماماً لعمل الخير. ولكن العقل يرشدنا ان في ذمة ديوان الاوقاف لعمل الخير شيءٌ كثير ودليلنا عليه النظر لتبرع السلف الصالح وما هو مكتوب في سير الخلفاء والامراء الذين كانوا يوقفون من سعتهم ما يضمن للفقراء والعجزة راحتهم في حال ضيقهم وشدتهم فكم من خليفة وسلطان وامير بنى بجانب الجامع المستشفى رحمة منهُ وحناناً على امتهِ من بعدهِ. ومن ذلك وقف اقامهُ اخيراً الخديوي الاسبق "اسماعيل" لانشاء دار للعجزة يراها المطلع ذات شرط في وقفية المذكور وخصص لها اربعة آلاف جنيه وللآن لم يسمع احد ما هو غرض الاوقاف من هذا الشرط. ولو فتشنا الاوقاف نرى مثل هذه الشروط أشياء كثيرة كلها في ذمة الديوان المذكور بخلاف المبالغ التي لبعض المستحقين وقد طال عليها الأمد ولم يطالب احد الديوان بها والمرجح عقلاً ان اكثرهم ماتوا ولا وارث لهم وعلى ذلك يمكننا القول

ان في استطاعة الديوان ان يعمل بهذه المبالغ عملاً يخفف بهِ بلاء العجزه والمساكين ممَّن لا سند لهم ولا معين ولو لاولاد وبنات خدمة الجوامع او لجماعة الازهريين الذين هم لكثرتهم في حاجة الى مستشفى وكيف لا ولنا في حادثة الكوليرا واحتياج المجاورين أقرب شاهد . فانهم اذا أُصيب احدهم بمرض تعدى الى غيرهِ بسهولة . ولا اعتراض في ذلك لو اخرج الاوقاف ما ذكر من حيز القول الى حيز العمل . فان ذلك اولى بمجدنا ومجد الذين اوقفوا عمرهم على تعليم قرآننا وديننا وليس بشيء اصعب على الحر من ان يرى ذلك المتعمم بالعمامة والمرتدي بالطيلسان والمتزي بزي امة تنفر من المن والاذى يخرُّ بين يد انكليزي او الماني ليفخ لهُ خراجاً في قلبهِ وما في قلبهِ الاَّ محبة خالصة وسريرة صالحة بعيدة عن البغضاء بعد الارض عن الجوزاء وفي الحديث الشريف "داووا مرضاكم بالصدقة"

"قضايا الاوقاف"

بما ان للاوقاف حقوقاً وعليهِ واجبات ولسبب تنوع اختصاصاتهِ في املاكهِ وعقاراتهِ ولغرض استثمار موارد ايرادهُ ترى ديوان الاوقاف كثير المشاكل كثير القضايا وهي اما لهُ او عليهِ واغلب التي تقام عليهِ من تصرفات مستخدميهِ فلهذا السبب اتخذ الديوان لهُ جملة محامين مستخدمين لديهِ بمرتبات باهظة كي ينظروا في دعاويهِ ومشاكلهِ واوجد مستشاراً قضائياً خاصاً لهُ " وهو الوحيد الذي يماثل المستشار القضائي في نظارة الحقانية من جهة الاختصاصات وما شاكل ذلك" والغريب في هذه القضايا ان بعضها يجري فيها التلاعب الكثير بعضهُ بمعرفة رجال الديوان وبعضهُ بمعرفة المحامين فمثلاً القضايا المختصة بجماعة الاغنياء اصحاب الجاه والنفوذ فان هؤلاء يراعون لصحبتهم مع رجال الديوان وقد نحفظ قضاياهم من سنة الى عشرة . اما المختصة بالفقراء فتظهر بمظهر الاهتمام ويأخذون اصحابها قسراً الى

المحاكم ويطالبون بحقوق الديوان واما لو كان للفقراء حقًّا عليه فهنالك ...
وتصعيب الامور ولو كانت سهلة واضحة مذللة وشاهدنا تلك القضية ...
التي قامت بين الديوان في سنة ١٨٩٥ و... فقراء العميان ... ازهريين وحكم ...
فيها سنة ١٨٩٧ على الديوان بدفع ٣٠٠٠ جنيه والفضل في ذلك لرجل الفضل
والمروءة والنبيل احمد بك الحسيني ... الضعيف ومرشد القوي للحق . والغريب
ان الديوان لا يطالب بالفوائد في قضاياه ولكن يدفع الفوائد التي ...
المحاكم يدفعها من امواله المجموعة من اهل البر ... وهو ... على نفسه
اخذها لو اودع شيئًا من ماله في احدى المصارف ولا ... ذلك ...
نعلم كيف يحل دفع الفوائد في عرفهِ . ولو تأملت ... سنة ١٩٠٠
لوجدت له في باب المصروفات ٢٤٠٠ جنيه بالقلم العريض تحت عنوان المصاريف
القضائية اي ان ما يذهب على قضاياه ضعف ما يصرف على مستخدمي لجنة
او ما يقرب من ثلث ما يصرفهُ على تكاياه

"خلاصة القول عن الاوقاف"

هذا وفي الختام نقول ان ما ذكرناه عن ديوان الاوقاف الاسلاميَّة انما ...
بهِ بيان الحالة لا مس كرامة احدٍ وان نوقف القارئ على الحقيقة التي لا مندوحة
عنها ولا بدَّ منها . ولا نقصد بكل ما تقدم بيانهُ الاَّ ان نُعد في مصاف اهل الحق
والحريَّة الذين بقدر ما تسعهم القدرة يدرأون الخلل باشهار الوصمات والنقائص
ليجتمعوا مع امثالهم فينشطوا الى الصعود والرقي من الدركات الهابطة ولا يخفى ما في
الجهر بالحق والقول بالصدق من لذة التقدم القومي واننا لا نرى ما يراهُ البعض
... الهمة الفاترة من ان الستر على النقائص اولى ومن اهم الخصائص

تالله لو اتبع رجال الاوقاف سنتهُ التي وجد لاجلها وفطنوا لسر هذه الاوقاف

وما وضعت له لوجدوا من المسلمين من يعضدهم ويأخذ بيدهم والاّ فالحاد ر مشاهد من انه لعدم الثقة فيه الآن وبسبب ما يلحق شروط الواقفين من التغيير والتبديل في اقرب زمن ترى عدد الواقفين يقل عاماً فعاماً فيتركون مخلفاتهم لابنائهم من بعدهم فتذهب اكثرها ضحية التبذير والاسراف. ولنا فيما تقدم من الكلام عن حالة اولاد الاغنياء ما فيه عبرة المعتبر [illegible] انا [illegible] كان الناس ينشطون للعمل ويرشدون [illegible] بالاعمال [illegible] كالصناعة وتحسين الزراعة فلا يكونون [illegible] ومتروكات آبائهم لان من [illegible] الادلة على اننا امة اتكالية [illegible] الاو [illegible] حصول التنازع فيها دائماً وابداً سواء بين المستحقين [illegible] المتطاولين عليها او [illegible]. وقد مضى على الاسلام قرون متوالية لم [illegible] اوقاف منتشرة كما هي [illegible]ن ولم يكن الاّ الاوقاف الخيرية المحضة فى السلف [illegible] الخير وهذا يدلنا على ان السلف الصالح كان [illegible] وعمدتهم انما هو [illegible] على النفس بعد الاتكال على الله وهذه سيرة الرسول صلى الله [illegible] وسيرة الخلفاء الراشدين والخيرة من اصحابه والتابعين وتابعيهم تدلنا دلالة ظاهرة لا ارتياب فيها على ما نقول ونتكلم عنه فعسى قومنا تهزهم داعية العمل فينشطون وينبذون عنهم مطارف الكسل ويكون الانسان انساناً بنفسه [illegible] بنفسه واثقا بجده لا بجده معتمداً على ما رعه الله من التدبير لا ما جاءه من متروكات آبائه من الفتيل والقطمير. وهكذا الرجل يعيش اينما كان بسعيه واجتهاده قال تعالى (وأن ليس للانسان الاّ ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى وأنّ الى ربك المنتهى) صدق الله العظيم

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات